رواية

@ketab_n
Follow Me
3.6.2016

يوري بونداريف

الطلقات الأخيرة

ترجمة غائب طعمة فرمان



يوري بونداريف

الطلقات الأخيرة

ترجمة
غائب طعمة فرمان





المؤلف: يوري بونداريف
عنوان الكتاب: الطلقات الأخيرة
ترجمة: غائب طعمة فرمان
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى عن المدى: ٢٠١٥

Author: **Yuri Bondarev**
Tittle: **The Last Shots**
Translator: **Gaeb Tohme Faramen**
Cover designed by: **Majed AlMajedy**
P.C.: **Almada for media, culture & arts**
First Edition by Almada: **2015**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نواس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: ٨٢٧٢
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

أنا أوصيكم فلا تنسوا وصية
أن تكونوا سعداء في الحياة...

أ. تفاردفسكي

الفصل الأول

في منتصف الليل كان الكابتن نوفيكوف يتفقّد مخافر الحراسة.

سارَ على مرتفع في الظلام الخريفي الحالك، والريح تعصف بقوة في قمم أشجار الصنوبر.

لقد جاءت من جبال الكاربات البرودة الشمالية اللاذعة واهتزّ المرتفع كله وكأنه كان يهتز هادراً بفعل الأعاصير التي كانت تعصف من الجبال، وفاحت رائحة الثلج.

وكانت صواريخ الإنارة تنطلق بين حين وآخر فوق مواقع خطوط الألمان الأمامية فتحرف الريح شعلتها، وتحترق وتخبو خلف المرتفع المظلم نصف الدائري المجاور. وفي الوهدة إلى اليمين حيث تقع بلدة كاسنو البولونية كانت تتوهّج أنوار مجهولة من دون أن تحدث صوتاً، ثم تخمد وكأن الريح تطفئها.

كانت الرشاشات صامتة، وكان نوفيكوف لا يرى في الظلمة مدافعَ ولا حراساً. فمشى ويداه في جيبه، والريح تضرب بقوة في أطراف معطفه العسكري. وتملّكه شعور غريب بالأسى والضياع الغامض في تلك الجبال الكارباتية الحزينة الباردة. ولقد انتابته نوبات الأسى هذه في الأسبوع الأخير مرّات في الليل دائماً، وفي فترات السكون القصيرة. ويمكن أن يفسر هذا بطريقة رئيسية واحدة؛ هي أن بطارية نوفيكوف قد خسرت منذ أربعة أيام أثناء الاستيلاء على بلدة كاسنو تسعة رجال دفعة واحدة، بينهم قائد فصيلة الإدارة و لم يستطع نوفيكوف أن يعفي نفسه عن ذلك.

هتف نوفيكوف في صوت صارم وهو يتوقف مستهدياً بالأصوات المنبعثة أمامه من الخندق الملجأ للفصيلة الأولى:

- حارس!

و لم يتلقَّ جواباً.

فعاد يقول بصوت أعلى من ذي قبل:

- حارس!

- ها؟

وتحرّك شيء أسود، وخشخش المشمع - الخيمة بالقرب من مدخل الخندق - الملجأ وردّد صوت أجش من الظلمة:

- ها! من هنا؟

- ما معنى «ها» هذه؟ لعنة الشيطان عليك! - قال نوفيكوف موبخاً في غضب - تلعب الاستغماية؟

- قف! من الآتي؟ - صاح الحارس في تهديد مبالغ فيه، وقرقع بترباس رشيشته.

- هل استيقظتم؟ ما سبب هذه الكركبة في الخندق - الملجأ؟ - سأل نوفيكوف بنفس اللهجة السابقة - لماذا أنت ساكت لا تجيب؟

فتمتم الحارس وهو يسعل في خوف:

- إنه أوفتيشنيكوف، أيها الرفيق الكابتن، يضوضئ لسبب ما. فلماذا يزعقون؟

دفع نوفيكوف باب الخندق - الملجأ.

كان ضجيج الأصوات الكثيف يتماوج تحت السقف الواطئ.

وكانت الأنوار البنفسجية التي ترسلها ذبالات الغاز المغنومة من الألمان تسبح في الهواء المملوء بالدخان. كان الجنود جالسين على التخوت الخشبية وحول المائدة، فكانت وجوههم الحمراء تلوح مغبشة. وكانوا جميعاً يتحدّثون في وقت واحد ويدخنون. وضرب أوفتشينيكوف قائد الفصيلة الأولى، وهو رجل ذو فم رقيق جميل أناني، الطاولةَ بجمع يده، ونهض ببطء، ونحّى عن ردفه غمد مسدسه الثقيل، ورفع كأساً مملوءة بالفودكا، وصاح بصوت أجش وآمر:

— أوقفوا الصخب، واشربوا نخب لينا العزيزة! ماذا، يا إخوان؟ اشربوا جميعاً!

وفجأة أجابته زمجرة الأصوات غير المفهومة وخمدت: فقد رأى الجميع الكابتن نوفيكوف صامتاً واقفاً قرب الباب، أجال الكابتن بصره في وجوه الجنود وئيداً.

وسأل مقطباً وهو يقترب من الطاولة:

— يعني أنتم في غاية الانسجام؟ والممرضة هنا أيضاً؟

فالواقع أن مرح الجنود على بعد ٨٠٠ متر عن مواقع الخطوط الأمامية الألمانية، وإطلاقهم العنان لأنفسهم، بالرغم من معرفتهم بذلك، لم يثيرا دهشةَ نوفيكوف، بل أثار دهشته وجود الممرضة لينا كولوسكوفا وسط دخان التبغ البلدي الخانق، ووسط ضجيج المخمورين. كانت جالسة على أحد التخوت الخشبية، ويداها تطوقان ركبتيها، متمايلة ذات اليمين وذات اليسار، متحدّثة مع لياغالوف جندي الترباس المخمور المسترخي، ضاحكة ضحكاً لطيفاً هادئاً قلبياً فيه دعابة.

وفكّر نوفيكوف في انزعاج: «إذن فقد عادت إلى ضحكها اللؤلؤي. أهي مخمورة أم أنها تريد أن تثير إعجاب الملازم أوفتشينيكوف بها. وما نفعها من ذلك؟». - حاول أن يثير في نفسه كراهية أكثر لهذا الضحك الغافل ثم حول بصره إلى أوفتشينيكوف بسرعة وسأل:

- ماذا عندكم هنا؟.. عرس؟

ربما نطق بذلك في فظاظة، فقد لاذ الجميع بالصمت. وحولت لينا نظرتها إليه في تساؤل. وفجأة قفزت من تختها خفيفة الحركة هفهافة، وتناولت من الطاولة كأس أحد الشاربين واقتربت من نوفيكوف وحدقت في عينيه بعينيها البراقتين البسّامتين مضيقة إياهما قليلاً.

وقالت وهي تدفع رأسها إلى الوراء:

- نعم، بالضبط! هنا عرس! فهنئني وهنئ أوفتشينيكوف.

- وأمرت: أيها الملازم أوفتشينيكوف! هيا أعط الكابتن فودكا!

صمت نوفيكوف. إنها لم تكن مخمورة على ما يبدو (ذلك أمر غير مفهوم على العموم). وكانت تمرر عليه بجسارة، ومن الأسفل إلى الأعلى، عينيها المتألقتين، وجيدها الرقيق الناعم يتلَعُ من ياقة بدلتها الجاسية العالية، وكتفاها ضيقتان وصدرها القوي الصغير يلوح من خلال القميص العسكري الصوفي الملموم بشدة عند خصرها بحزام عريض.

كان نوفيكوف كثيراً ما يجد نفسه حائراً من جرأة هذه الممرضة المستديمة المثيرة له. والآن شعر بأنه قد احمرَّ خجلاً، وهو تحت نظرات الجنود الساكنين. وغضب من نفسه وقال لها بحدة:

- أنت دائماً تمزحين بصورة غير موفقة، أيتها الرفيقة الممرضة!

– ثم تحوّل إلى الملازم أوفتشينيكوف وأنهى كلامه بلهجة آمرة: كفَّ عن ذلك! لِمَ هذا المرح؟ وأي سرور هذا؟ استريحوا جميعاً!

قلّص الملازم أوفتشينيكوف باعتزاز عينيه البراقتين الصاحيتين، ورمق الكأس التي لم يُشرب كل ما فيها من خمر وسأل:

– لِمَ كل هذا، أيها الرفيق الكابتن؟ إنه عيد ميلادي. ألا تعترف بأعياد الميلَاد؟ لقد بلغت السادسة والعشرين من عمري.

يا لياغالوف! صبَّ كأساً لقائد البطارية، ولنشرب، أيها الرفيق الكابتن، وإلى الجحيم أعداؤنا جميعاً، ها؟...

كان جندي التُرباس لياغالوف كهلاً، قصير القامة، قبيح الوجه، ينمو على خديه النحيلين شعر خشن ذهبي. وقد نظر لياغالوف في ارتباك إلى أوفتشينيكوف، ثم إلى قائد البطارية.

وملأ من الزمزمية كأساً كاملة من الخمر، وهو غير مصدّق، وقدمها إلى نوفيكوف.

– لا تقرف من شربها، أيها الرفيق الكابتن. إنها خمرة نظيفة....

كان لياغالوف لا يدمن الخمرة، ولأنه قد شربها الآن ومد له قدحاً فقد اغتاظ نوفيكوف كلياً. فنحى عنه يد لياغالوف، وقال مبتسماً ابتسامة معوّجة:

– تهانيَّ! – وطأطأ رأسه، وتقدّم نحو الباب خارجاً.

وعند عتبة الباب أحسّ وراءه بالصمت غير المريح. وتألّم من نفسه لأنه جلب إلى الخندق – الملجأ، إلى جنود أوفتشينيكوف الذين يحبهم، البرودة والانزعاج. وكان يعرف أن لينا قد أفسدها اهتمام

الرجال الدائم بها، ولكل ذلك بالطبع علاقة بخدمتها السابقة في استطلاع الفوج. وقد جاءت إلى البطارية قبل شهرين تقريباً بعد حادث غامض وقع في الفوج اضطر الجنود الكتبة الذين يعرفون كل شيء إلى السكوت عنه. وشاع أنها صفعت الضابط المرافق لقائد الفوج، وأوشكت أن تطلق الرصاص عليه. إلا أن نوفيكوف وجد صعوبة في تصديق هذه الشائعة. ثم ظهرت شائعة أخرى أقرب إلى الحقيقة. فقد قيل عنها إنها على علاقة ودّ خاصة بالكشافين. وكان نوفيكوف كلما رأى قامتها الصغيرة الممشوقة، وصدرها المحكم على نحو فاضح والبادية معالمه من خلف القميص العسكري، والنور الدافئ والمُشع من عينيها عندما تبتسم وعندما يسمع ضحكتها التي كانت تبدو فاسقة فسوقاً غير واضح أيضاً، كان يعاني نوبات مؤلمة من الانفعال. ولأنها سهلة المنال للجميع، كما يبدو، لم تكن كذلك بالنسبة إليه.

فمنذ الأيام الأولى لوصول هذه الممرضة الجديدة إلى البطارية كان خشناً معها ونصف ساخر، وفي حضورها كان لا يمسك نفسه عن السباب، وهو يفكر: «إنها ليست هندباء برية. فقد رأت الكثير في حياتها!». ولكن، حين كان مستلقياً في مخبئه وحيداً بعد ذلك تذكر، في ألم نفسي، المشاعر التي جعلته يلعن في حضورها، ولم يخلد إلى الراحة. إن وجود هذه المرأة في بطاريته كان يضايقه، ولكنه وفي الوقت نفسه كان يحسّ بوجودها دائماً مع أنها غائبة، ولم يقدر على تفسير انزعاجه المفاجئ والمقرف الذي أثارته فيه بجرأتها وصوتها.

وبعد خروجه من الخندق - الملجأ، وقف نوفيكوف طويلاً في الظلام الخريفي البارد. وفكّر بأنه قد جرح مشاعر الجنود، جرحها في الوقت الذي لم يبق غير عشرين نفراً من أطقم بطاريته، وحين كان ينبغي له أن يكون أكثر رقة مع الناس، فسحقه هذا التفكير سحقاً.

كانت الريح تصفر في أذنيه، وكان نوفيكوف يسمع صرير أشجار الصنوبر المغني بين هدير أصوات السكارى. فأحس بشعور من الحزن لأنهم هناك في الخندق – الملجأ كانوا يشربون الكحول ويتضاحكون، وكأنهم نسوا الذين دفنوهم في الأمس.

وتلمّس وعثر على جذع شجرة مقطوعة كان قد رآه في النهار، وجلس عليه. وحكّ خديه غير الحليقين حتى آلماه، وحدّق في الظلمة وراء المرتفع، على بعد كيلومتر ونصف، في الضاحية الغربية لكاسنو ينتصب مدفعا الملازم أليشين، وهما يكوّنان الفصيلة الثانية للبطارية، الفصيلة التي يولي نوفيكوف لها اهتماماً خاصاً. لم تنطلق الصواريخ هناك.

وانبعث صوت نسائي على بعد بضع خطوات من نوفيكوف:

– أنا ذاهبة!

وصدرت من الخندق – الملجأ ضجّة الأصوات وخفتت، وارتمى شريط من الضوء الأصفر على الشجيرات، وسمع نوفيكوف على بعد أربعة أمتار منه وقع أقدام خفيفة، فعرف لينا من صوتها، ومن شبح قامتها المعتمة المعالم. وتوقّفت هي على مقربة منه من دون أن تراه. وحدقت طويلاً في وهج الصواريخ التي كانت تطير قريبة من الجبال. وقد التقى الوهج ضوءاً شاحباً على وجهها، وكشف عن ملامحها الحاسمة غير المفهومة. ثم سمع نوفيكوف صوت باب الملجأ مخلوطاً بصفير الريح في أشجار الصنوبر، وخرج الملازم أوفتشينيكوف من الخندق – الملجأ، وبدلته المبطّنة بالقطن غير مزررة وصاح بصوت أجش إلى حد ما: .

– إلى أين، يا لينا؟ قفي لحظة!

– أنا واقفة، ولكن لماذا أنت؟ – سألت بصوت خفيض – أنا ذاهبة وحدي.

واقترب منها وسأل بإلحاح ورقّة:

– إلى أين؟

فأجابت هازئة:

– إلى الكشافين، فهم ليسوا بعيدين عن هنا. أنا لم أتعود على بطاريتكم، وأنتم لا تشبهون الكشافين، أيها الملازم....

تقدم أوفتشينيكوف نحوها وقال بصوت جاد مرتجف:

– لا نشبههم؟ هل تريدين أن أعرّض نفسي للرصاص هناك من أجلك؟ ها؟ أتريدين؟ أنت لا تدركين ذلك!

فقالت ضاحكة:

– ولكن ذلك غير ضروري! إنه حماقة!....

إذ ذاك قال في قنوط:

– هكذا إذن؟ وعلى أية حال لن أدعك تذهبين. أنت لا تعرفين جماعتنا.

واقترب نحوها في التصاق، وكأنهما امتزجا في كيان واحد. ثم قالت لينا في ازدراء وتثاقل وتعب:

– ابتعد عني. لا تحقق معي.... ما زلتَ أخضر!

ودفعته عنها، وابتعدت. أما هو فبعد أن تراجع خطوة إلى الوراء ناداها بصوت عالٍ: «لينوتشكا، قفي لحظة!» – واندفع وراءها في الحال. وكان في أنفاسه المقطوعة وصرخته القصيرة غير المطمئنة شيء

مبتهل غير مسوّغ ومشين لكرامة الرجل، وامتعض نوفيكوف فنهض واتجه مسرعاً نحو ملجئه.

كان الملجأ مضاءً بمصباح غازي، خافت الضوء مضطرب الذبالة. وكان الهواء دافئاً ثقيلاً، فيه رائحة معاطف وقش قديم.

وكان جندي المحابرة الخفير غوسيف، الشاب المدور الرأس، نائماً مسنداً قفا رأسه إلى الحائط، وحاجباه يتذبذبان في تعب.

وكان عقب السيكارة المنطفئة ملتصقاً على شفته الممطوطة. وكانت هناك سيكارة أخرى ملفوفة وموضوعة خلف أذنه. وأمامه على صندوق الذخيرة قصعة، ما زالت فيها عصيدة دخن، وملعقة خشبية، وقطعة من قلم مقضوم، وورقة مجعّدة انتزعها من دفتر.

وعلى الورقة مساطر الحبر وفتات خبز تدلّ على أنه كان يأكل ويكتب رسالة. ونظر نوفيكوف إلى الورقة. فابتسم من دون إرادته على هذه الكتابة المدرسية الرقيقة: «لا تكوني غيوراً عليّ لأن النساء لا وجود لهن هنا عندنا، إلا ممرضة واحدة وهي أيضاً قبيحة للغاية...».

وأراد أن يسأله عمّا إذا كان قائد الكتيبة قد اتصل بالتلفون، إلا أنه أشفق من إيقاظه. وفي ما حوله كان الجنود نائمين يرسلون شخيراً، أو يتمتمون في نومهم. ولم يخلع نوفيكوف ملابسه، واستلقى على ظهره على حافة التخت الخشبي في مكانه المعتاد.

وأغمض عينيه وشعر وكأنه يغوص في هواء حار رطب ومملوء بالشرر المتطاير، في فوضى من الأصوات الإنسانية المضطربة، وفي وسطها تماوج وجها لينا والملازم أوفتشينيكوف – حلم اعتيادي، غامض، خاطف.

واستيقظ على دويّ خافت ضغط على رأسه، فقفز وهو ما يزال ثملاً بالنعاس.

وسأل بصوت حاد:

– ماذا؟ نداءات إلى التلفون؟....

فأجاب صوت:

– المدفعية بعيدة المدى أطلقت النار على المرتفع.... والدخان الأصفر اللاذع. الجنود الذين استيقظوا فجأة يتحركون في الدخان مثل أشباح مرتجفة، راحوا ينظرون بعيون مثقلة بالنوم إلى السقف المرتج بشدة. وقرقعت أخشاب السقف الجافة، وتزعزعت وتحركت من مواقعها فوق رؤوسهم. وهناك في الأعلى بدا وكأن شيئاً جباراً هائلاً خانقاً ثقيلاً قد سقط من السماء بقرقعة وهزّ المرتفع. وغرق عويل الريح في خضم الانفجارات الحديدية الثقيلة.

وتمتم المخابر فغوسيف في همس وهو ممتقع اللون:

– المدفعية البعيدة المدى تطلق... والحفر المتخلفة عنها.... كبيرة بحجم البيوت.....

وصاح الرقيب الأول لاديا قائد المدفع، وهو يقزل برجل واحدة في عسر، ويدخل رجله الثانية بسرعة في بنطلونه، صاح على غوسيف:

– أنت نائم، يا كسول! ما الذي يحدث هناك في مواقع الخطوط الأمامية؟ كنْ على علم!... – وزرّر قميصه وألقى نظرة إلى نوفيكوف، وقال مغيّراً لهجته: – يبدو أنها بدأت! أتسمع، أيها الرفيق الكابتن؟ هذا لا يشبه قصف المدفعية. يا لها من مرجلة!

ثم رفع صوته بلهجة آمرة:

– إلى أماكنكم! أسرعوا إلى المدفع!

وقال نوفيكوف في هدوء:

– قفوا. – واتجه نحو غوسيف الذي كان يصرخ بنداءات في سماعته ممزق القلب. وسأل في عبوس وبطء:

– هل جاء أمر من «خزامى»؟

تمتم غوسيف وهو ينحني فوراً على آلة التلفون ضاغطاً السماعة على أذنه بكلتا يديه:

– لا، مطلقاً. – وهنا سقطت كتل ترابية من السقف على آلة التلفون وعلى كتفيه. فكرر وشفتاه ترتجفان قليلاً: – لا، مطلقاً. – وحكّ بخوف رأسه المدور، القصير الشعر.

– أعطني السماعة! أي جندي إشارة أنت! ينبغي عليك أن تعرف كل شيء! – قال ذلك نوفيكوف بحدة وأخذ بل اختطف السماعة الحارة والمبللة بالعرق من يد غوسيف.

– «خزامى»! «خزامى»! يا للشيطان! ماذا يجري هناك؟! ربما لا يوجد عندكم تيار كهربائي؟ – وتحول إلى غوسيف: – هل تأكّدت من خط الاتصال؟

وفجأة تردّد في السماعة صوت خافت كطنين بعوضة. ثم تدفّقت الكلمات:

– أنا «خزامى»! من على التلفون؟ أعطني رقم ٦، أعطني رقم ٦ ... يجب على رقم ٦ أن يصل إلى «خزامى» حالاً، إلى «خزامى» حالاً..... حالاً!

فخاطبه نوفيكوف باقتضاب:

– رقم ٦ يتكلمْ. – وثبت عينيه بالقصعة التي وقعت على صندوق القذائف، وكانت مملوءة بسائل أسمر: – ما الذي حدث؟

أنا قادم.... قادم على الفور.

ووضع السماعة وارتدى معطفه المفصّل بصورة جيدة، والرثّ أيضاً. وشدّ حزامه المثقل بالمسدس الموضوع في قرابه، وبعد ذلك قطب حاجبيه فوق أنفه، وأخذ المسدس من القراب، وأخرج منه مخزن الرصاص وأدخله من جديد إلى مقبض المسدس. وفعل كل ذلك صامتاً ومن دون عجلة، وكان الجنود صامتين أيضاً ينظرون إلى الكابتن تارة، وإلى سقف الخندق - الملجأ المهتزّ تارة أخرى، ملقين أسماعهم في توتر إلى دوي انفجارات القذائف المتزايد. و لم يلق نوفيكوف نظرة واحدة إلى الأعلى، وظلّ متجهماً من شيء ما.

وبلهجته الاعتيادية الخشنة قليلاً التي لا تُناسب وجهه الفتي الطفولي بعض الشيء، والشاحب دائماً. أمر باقتضاب:

- ريميشكوف، تعال معي!

وريميشكوف حامل القنابل شابٌ في السادسة والعشرين، صموت وكتوم، جندي سعيد الحظ قضى مؤخراً ستة أشهر بالإجازة في قريته قرب ريازان بعد جرح خطر. وقد حوّل نحو نوفيكوف وجهه القوي الأبيض الحاجبين، وفي عينيه الوضّاءتين توسّل، و لم ينهض من مقعده، وقال بصوت خفيض أشبه بالهمس:

- ولكن قدمي..... قدمي..... - وحكّ ركبته، وتلوّى ألماً، وخفض رأسه وقال: إنها جبال كما ترى. وقدمي غير سليمة، أيها الرفيق الكابتن. فلعلك تختار أحداً غيري هذه المرة.

- أحداً غيرك؟ سأل نوفيكوف في سخرية دافعاً مسدسه في غمده في حركة مدبرة - تقول: أحداً غيرك؟

وكان نوفيكوف يعرف إلى أين سيذهب الآن وقد اختار

ريميشكوف لأنه قد قضى في بيته ستة أشهر مستلقياً على سريره. وخلال ذلك الوقت خاض جنود بطارية نوفيكوف المعارك، ووصلوا إلى الكاربات من دون أن ينالوا راحة. لقد اختاره لأنه لا يملك خياراً غير ذلك لا سيما أن ريميشكوف كان رجلاً جديداً في البطارية.

- تقول: أحداً غيرك؟

سكت ريميشكوف. وصمت الجنود.

واهتز المخبأ اهتزازاً خفيفاً، ومادت الأرض تحت الأقدام، وكانت في فترات قصيرة بين الانفجارات تسمع طلقات المدافع الرشاشة وكأنها تتناهى إلى أسماعهم من تحت الماء. والآن كان واضحاً للجميع أن ذلك لم يكن قصفاً اعتيادياً للمدفعية، لم يكن تبادل إطلاق نيران اعتيادياً من المدافع ورشاشات الخفر بعد المعارك الضارية التي حدثت مؤخراً عند الاستيلاء على كاسنو على الحدود التشيكوسلوفاكية.

ثم إن ريميشكوف كان يرفض في خجل أن يذهب إلى مواقع الخطوط الأمامية في وقت تناقص فيه عدد أفراد البطارية خلال الأسبوع إلى عشرين رجلاً من الجنود القدامى، بينما لم يمض على مجيء ريميشكوف إلى البطارية غير أيام، وجاء إليها شبعان، ممتلئ الجسم، له وجه طازج متورد بعد تناول مؤونة بيتية من الخبز والسمن. وكان ذلك شيئاً في غاية الإزعاج لنوفيكوف خاصة.

فقال بصلابة:

- إن الأمر عندنا في البطارية لا يكرر مرتين - تجاهل ريميشكوف واتجه نحو الباب.

- أيها الرفيق الكابتن!....

قال ريميشكوف متوسلاً وخطا نحوه في الحال، وانحنى حتى لاحت رقبته الحمراء القوية. وفرك ركبته متأوهاً وهمس:

– أيها الرفيق الكابتن، حقاً إنني.... أليست هناك شفقة؟ ها؟

– لا! – قال نوفيكوف ذلك وخرج.

وفتح الباب، واندفع هدير انفجارات إلى الداخل، فانغلق الباب.

وقف ريميشكوف باحثاً في وجوه الجنود عن شيء، وهمس في أسى وهو يحكّ صدره:

– آه، قدمي تؤلمني، ولا شفقة لكم عليَّ. ها؟

– شفقة؟ أيها الكسول المائع! يفكر أيضاً، هذا الأبله من ريازان! – هتف الرقيب الأول لاديا بصوت رنان، ومعابث، ودفع طاقيته إلى جبينه البارز. – انظروا! سمَّن وجهه في المؤخرة، ويظن أن كل شيء على ما يرام! وقد أعيد عليه الأمر مرتين. أجئت لتحارب أم لتأكل سمن الخنزير؟

كان قائد المدفع لاديا في العشرين من العمر. وكان ركين البُنيان، أشقر الشعر، يرتدي طاقيته بطريقة خاصة أنيقة، يدفعها إلى جبينه وجانب رأسه. وكان أنيق الهندام دائماً، وهو الآن يرتدي جزمة ألمانية لم تأته عن طريق القواعد المتبعة، ويضع في حزامه المشدود شدّاً محكماً سيفاً عريض النصل، ألمانياً. وكان يبدو مثل صبي يرتدي بفرحٍ لباساً عسكرياً وسلاحاً مغنوماً.

وصاح:

– حسناً؟ يمكنك أن تفكر فيما بعد!

فتمتم ريميشكوف في أسى ويأس من أمره، وهو يتلفّت في ما

حوله:

- حيوانات، حيوانات تماماً!

كان الرقيب سابريكين قائد المدفع الثاني، وهو رجل كهل، ثقيل الجسم، له كتفان عريضتان على نحو مفرط، ومربعتان، يرتدي قيمصاً عسكرياً ضيقاً مشدوداً على ظهره المستدير، لفّ رجله بقطعة من القماش الدافئ، وهو يئن، ونظر إلى ريميشكوف نظرة لامعة رقيقة تقريباً، وقال في رفق:

- الأحسن، يا ابن بلدي، أن تتناول رشيشتك، وتسرع بأقصى ما تستطيع. ذلك سيكون أصحّ! ألم تحارب من قبل؟ أفهمت أم لا؟ حسناً، هذه رشيشتك فخذها. - ثم تحول إلى لاديا وأضاف بتمتمة: - ذلك حقّ، فبعد الموقد الدافئ، وزوجتك إلى جانبك يعزّ عليك أن تموت، ألا تفعل ذلك بنفسك يا لاديا؟

قال لاديا بتصميم:

- إذن لرفضت الذهاب في إجازة! لا حاجة بي إليها! - ثم تناول حقيبة ريميشكوف الظهرية المنتفخة من التخت الخشبي، ورفعها في الهواء، وقال في ابتسامة ساخرة:

- هيا دحرج نفسك. - ثم دفع ريميشكوف من ظهره المتصلّب.

توقفا برهة في خندق المواصلات، يصمّ آذانهما دويّ القذائف التي انفجرت في جميع أنحاء المرتفع. وقد أضاءت وميضات النيران جذوع أشجار الصنوبر العارية الأغصان للحظة وبضوء مُربد.

وكانت شظايا القنابل تشقّ الهواء برنين نحيل وتقطع التربة من

السترة الأمامية مثل حدّ الموسى. وسقط مدَر على عمرة نوفيكوف. وبصق نوفيكوف الطين الصارف بين أسنانه، وبالتلمّس وجدَ سلك خط التلفون البارد المؤدي من المدافع إلى مواقع الخطوط الأمامية. ورفع رأسه، ونظر باتجاه بلدة كاسنو.

كانت المنطقة وراء المرتفع - نحو كيلومترين - منارة كلها بنور كنور النهار. وكانت عقد الصواريخ المعلقة بسرعة في السماء تضيء السحب المنخفضة بروعة، وتحلّق آثار الرصاصات الخطاطة الحمراء في هذه السحب بانحراف، وكانت السماء خلف المرتفع تغير لونها على الدوام، وتُفعم بحمرة شديدة، وذلك يعني أن شيئاً ما يحترق في البلدة.

وأمر نوفيكوف ريميشكوف قائلاً:

- اذهب إلى سلك خط التلفون وأنا وراءك. أمسك سلك الخط..... إنه في يدي.... هاك.

فتمتم ريميشكوف بصوت لا يكادُ يُسمع:

- سلك خط التلفون؟

وفي الحال شعر نوفيكوف بأصابع غريبة عرقة تمسّ يده وسمع هديراً فوق رأسه؛ وكأن كرة نارية تبهر العيون انفجرت في السماء، واندفع من الأعلى هواء حار ألقى نوفيكوف أرضاً.

وارتطمت قنبلة بشجرة صنوبر فانفجرت.

وفكر نوفيكوف في قلق: «لقد تدمرت المدافع»، وسمع حالاً صوت ريميشكوف المتأوه:

- لقد أصبت... أصبت برأسي..... أيها الرفيق الكابتن، أصبت بجسمي كله!

فقال نوفيكوف بانزعاج وهو يقف:

- أوه، يا للشيطان! هل جرحت؟ أين أنت.... تزحف؟

وفي الضوء الشاحب الناجم عن انعكاس وهج الصواريخ في السحب رأى نوفيكوف شبح ريميشكوف المحدودب قابعاً عند حائط الخندق، وأمسك ريميشكوف رأسه بيديه ونظر إلى نوفيكوف بعينين هائمتين لا تعبير فيهما. وقد استردّ هذا المظهر المرتسم عليهما روع نوفيكوف - فإن الجرحى لا ينظرون هذه النظرة.

وسأل نوفيكوف: - دم؟.... ها؟

ثم أضاف بسخرية:

- إننا لم نصل بعد إلى مواقع الخطوط الأمامية..... وانظر إلى نفسك!..... كيف سنحارب؟ ولكن هيا!.... أمسك بسلك الخط.

وضع ريميشكوف كفيه البيضاوين على عينيه، وأخذ ينشج على نحو غريب. وتمتم في ترويح:

- إنها الموجة الصادمة.... قد هزّتني.

- ليست الموجة الصادمة.... بل الخوف.

ومشى نوفيكوف إلى الأمام سائراً في خندق المواصلات نحو المدافع.

وعلى بعد ثلاث خطوات من ملجأ أوفتشينيكوف كادَ يصطدم بشخصٍ طويل منتصب القامة.

- من هناك؟ قف! - هدر الشخص بوجهه في تهديد، ووضع الرشيشة على صدره. وعرف نوفيكوف حارس المدفع الأول

بوروخونكو من صوته. فقال وهو يدفع بماسورة الرشيشة عنه:

- أصدقاء! تسمح بالمرور إلى هذا القرب! - وفجأة لاحظ في الوهج الباهت قامة لينا الهيفاء على مقربة من بوروخونكو (كانت تقف ساكنة الحركة تسند ظهرها إلى حائط الخندق) فسأل عرضاً:

- وأنت هنا؟ لقد كنت تريدين الذهاب إلى رجال الاستكشاف؟

فأجابت على مضض:

- كنت أريد.... - ثم أضافت بشدة وتحد:

- ومن أين عرفت ذلك؟

وارتبك نوفيكوف. فهو لم يحسب حساب هذا السؤال المباغت. ورأى في عينيها الواسعتين المتسائلتين، ووجهها القريب منه، انعكاساً حاراً للصواريخ. وتحول إلى بوروخونكو وسأله في عبوس:

- هل المدافع سليمة؟

وكان بوروخونكو قد أدرك كل شيء. حكّ في رقة ماكرة ذقنه الضيق غير الحليق وقال ضاحكاً في إبهام:

- إنه يمطرنا بالقنابل بسهولة وكأنه يكتب..... يطلق ويطلق! هل ذهب عقل ذلك الألماني؟ أما المدافع فهي سليمة. إلى أين ذاهب، أيها الرفيق الكابتن؟

ولم يتلق جواباً. وسار نوفيكوف في الخندق. إلا أن ريميشكوف صرخ بصوت أجش وهو يعدل حقيبته على ظهره:

- إلى أشداق الفاشيستين! إلى أين أيضاً؟....

ثم غطى على كلامه صوت انفجار. وغطى الدخان على الوهج.

وغطس ريميشكوف في الخندق، وهرول منحنياً محدودباً.

نادت لينا بصوت لا أبالي:

- أيها الرفيق الكابتن.... انتظر لحظة!

ووقف.

قالت بعد أن لحقت به:

- أنا ذاهبة معك إلى مواقع الخطوط الأمامية وليس لدي هنا ما أفعله... وانظر ماذا يجري هناك؟ إنني قد تعودت عندما كنت في وحدة الاستطلاع على مواقع الخطوط الأمامية.

- تعودت؟

إن هذا التذكير بخدمتها في الاستطلاع، بحياتها تلك الهينة المريبة في الفوج، دفع نوفيكوف إلى الغلظة من جديد عن غيرة.

- لماذا تعرقلين طريقنا بحيلك النسوية، أيتها الرفيقة الممرضة؟ - قال ذلك بالرغم من أنه غير قادر على أن يضع المضمون الدقيق لكلمة: «حيلك النسوية». - ثم قولي أيجدر بي أن أضيع الوقت معك؟

وبدت وكأنها جفلت وفغرت فمها بصورة قبيحة - وقالت بشغف وهدوء:

- قد يكون جنودك، أيها الرفيق الكابتن، يميلون إليك، ربما. ولكنني لا أستطيع أن أتحملك! لا أستطيع تحملك! وفي وسعي أن أقول أكثر من ذلك...... ولكن ريميشكوف هنا!....

- شكراً، - أقرّ لها بذلك بأدب مفرط. - ولكنني أظن الإنسان

في هذه الساعة يتحمل كل شيء إلا الألمان.

وأدرك نوفيكوف من مخاطبتها له بهذه الغلظة، ومن نظرته إلى وجهها الذي فقد جماله، أن علاقته معها لا تكون إلا بحدود النظام، وشعر بانفراج كئيب مثل ألم يمر ببطء.

الفصل الثاني

كان مركز هذه البلدة البولونية كله بكنيسته القوطية الثقيلة العالية الواقفة بثبات وسط ساحة مبلطة بالحجارة، سوّدتها الدبابات الألمانية المحترقة، كالموت بالقرب من السياج الحديدي، وبشوارعها الخالية ذات البيوت الصامتة الحمراء السقوف المغطاة بالقرميد، والأبواب والنوافذ ذات المشابك، وظلال أشجار الحدائق العارية من وراء الأسيجة والأرصفة المبلطة بالحجارة - كان كل ذلك يسبح بوهج أحمر غير بعيد يرتفع من الضاحية الغربية لهذه البلدة.

وكانت رشقات الرصاص تشقّ نور الحريق وتتبدد فوق السطوح كالشرر. وكانت طقطقة المدافع الرشاشة المخنوقة تتعالى مع صليات الرشيشات الرفيعة وطنين قنابل مدافع الهاون النبّاحة. وكانت القنابل الثقيلة بقرقعتها الراعدة تنفجر في الجادة الحجرية، وكانت الريح الحارة تثير أكوام الأوراق اليابسة، وتلقيها على الوجوه فتخدشها، وكأنها حكّت بورق صنفرة حار.

كانت كل البلدة الملونة بالوهج المشؤوم تدوي، وترجع أرجاؤها صدى الانفجارات، وقراميد السقوف تنهمر على الأرصفة.

ووسط هذه الأصوات ارتفعت أصوات جديدة رفيعة، وتعالت حتى بلغت شأواً في شدتها وأصبحت مثل صوت ترام ينعطف في منعطف وهو منطلق بأقصى سرعته، ثم توقفت هذه الأصوات.

وقع نوفيكوف وريميشكوف قرب أحد المداخل، فقد رفعتهما

بشدة موجة صادمة عن الأرض مرتين. وهذه القوة بالذات قربت نوفيكوف من كتف ريميشكوف الجاثية كالحجارة، وهمس في وجهه صوت حار كان الرعب قد ملأه:

– لقد حلقت وجهي اليوم.... أوه.... لماذا حلقت وجهي؟

فسأل نوفيكوف وهو لم يفهم ذلك:

– ماذا؟... ماذا تبرير؟

وضع ريميشكوف رأسه على كتفيه وكأنه لم ير نوفيكوف، وهمس مسموع الأنفاس وكأنما أخرج من ماء مثلج:

– حلقت/، نعم حلقت.... وتلك علامة تعلمتها من القتال بالقرب من نهر الدنيبر..... إذا حلقت أو لبست ملابس داخلية نظيفة أو أخذت حماماً فستقتل حتماً... فقد حصل ذلك لصديق لي..... بالقرب من كييف.

فأوقفه نوفيكوف قائلاً في اشمئزاز:

– اصمت!... ستحلق في بطاريتي وستذهب إلى الحمام، – ثم أضاف بلهجة لا تنم عن مزاح: – حين تموت، تموت وأنت حليق الوجه. ولكن اللحى تنمو في وجوه الموتى.... ألم تلاحظ ذلك؟ – ونهض بحركة حانقة: – انهض! إلى الأمام!

نهض ريميشكوف، واستند إلى جدار حجري لفيلا وقدماه نصف معكوفتين على طريقة النساء. وألقى نظرة خائفة إلى السماء التي كان يمزقها صفير قنابل مدافع الهاون وتمتم:

– إلى أين نذهب؟.... نحن لا نصل إلى مواقع الخطوط الأمامية والحالة كهذه، أيها الرفيق الكابتن.... يطلقون النيران من جميع الجهات.... ويحاصروننا؟

كانت المخاريط التي تنثرها الانفجارات تتطاير في أعماق الشوارع الكدرة.

وكان الدخان اللاذع يموج على طول الأسيجة عبر الدبابات الألمانية المحترقة على الجادات. كانت البطاريات البعيدة المدى ترمي البلدة بنيرانها، وتصل القنابل من الغرب ومن الجنوب.

فكان ذلك يوحي بأن كاسنو قد حوصرت. ولكن نوفيكوف لم يتأثر بعد ذلك كبير تأثر؛ لأن ذلك في الغالب هو الوضع المألوف في ظروف الكاربات الطبيعية، فإن الألمان من مواقعهم في الوديان والمرتفعات كانوا لا يكفون عن إطلاق النيران على الطرق.

قال نوفيكوف:

– حوصرنا، قطعت الطريق علينا وأحدقوا بنا! أتتذكر عام ١٩٤١؟ تقدم إلى الأمام! ولا تحن قامتك، يا للشيطان!

وهرول في أعماق الشارع.

وما إن وصلا إلى الضاحية الغربية للبلدة حتى أعمتهما الحرائق القريبة منهما، وأحسّا بالهواء الخانق المحرق ينفذ إلى حنجرتيهما. وحولهما تموج عاصفة بركانية من اللهب والشرر والرماد.

وأمامهما على شاطئ بحيرة طويلة تحترق بيوت صيفية، وتلقي الحرائق انعكاساً أحمر على الماء. كانت الخيوط النارية من رشقات الرشاشات تلمع في الدخان فوق البحيرة وتصطدم وتتقاطع، وفي الجبال كانت تُرى الوميضات الكثيفة الناتجة من إطلاق المدافع والألسنة اللامعة لطلقات الدبابات، والانفجارات المستديرة القرمزية من قنابل الهاون على الشاطئ وتسمع أصوات إطلاق الرشيشات المستمرة، وكل ذلك قد ألقته ومزقته الريح الشديدة المجففة للحناجر فوق ضاحية البلدة.

- ورائي..... عدواً سِرْ!

ورأى أمام ريميشكوف إلى الضباب الذي فاض سريعاً فوق الشاطئ. ورأى أمامه خندق المواصلات المظلم لخنادق المشاة الأولى، فقفز مهرولاً إلى قاعه غير العميق. ورنت تحت قدميه أظرف الرشيشات الفارغة. كان ثمة جنديان جالسان هناك من دون أن يتحركا في صمت قرب صناديق الذخيرة يعبان الدخان من سيكارتيهما بنهم مخبئانها في الأكمام. وإذ قفز نوفيكوف لم يرفعا رأسيهما بل اكتفيا بأن سحبا سيقانهما الملفوفة باللفائف في تعب، ووضعاها تحتهما.

وصاح نوفيكوف وهو ينحني عليهما:

- ألم تريا مدفعيين من فوج المدفعية؟

رفع أحدهما، وهو رجل أشيب الشعر له عينان جديتان دامعتان، بصره إلى نوفيكوف، وفجأة سعل وأشار بكوعيه الناتئتين و لم يشرح شيئاً. والظاهر أن حنجرته قد جفت من الدخان والرماد بينما كان ينقل صناديق الذخيرة إلى الخندق. وكان الجندي الثاني أصغر سناً وقد أربكه العثور عليهما جالسين هنا يدخنان فصاح في أذن نوفيكوف:

- نحن من المشاة، أيها الرفيق الكابتن! وهذا عملنا..... نجلب صناديق الذخيرة من مستودعها.... أما المدفعيون فهم هناك على المرتفع.....

وقطعا الطريق إلى المرتفع - وطوله مئة متر - عبر الخندق منحنيين ومطأطئين رقبتيهما المتعبتين. وكانت حزم من آثار الرصاص المضيء ترن فوق رأسيهما وتصفر. وكانت سترات الخندق الأمامية تهتز من انفجارات القنابل القريبة، وكان الجنود يشتمون بأصوات مبحوحة وينفضون التراب عن معاطفهم، ويخرجون فجأة رؤوسهم من

الخنادق ويضعون صدورهم على السترة الأمامية، ويطلقون النار عبر البحيرة وصاح صوت بُح من كثرة الأوامر:

– النار على البيت، على البيت! ها هم أولئك، مستلقين قرب السياج!

وإلى الأمام على قمة المرتفع، حيث كانت وميضات الرشقات تهتز بصورة محمومة – أدار أحد رماة الرشاشات رأسه وصاح بصوت مبحوح:

– شريط! – ومسح العرق بردنه، وغاص في قاع الخندق المتورد من الوهج الخفيف المنعكس عليه. ونزعَ من حزامه زمزمية، وألقى رأسه إلى الوراء وأخذ يعب الماء بعطش. وإذ وصل نوفيكوف حوّل إليه هذا الرجل عينيه الضيقتين السوداوين المحمومتين،/ ونظر نوفيكوف إلى هذا الرجل ذي الشعر الملتف العرق الملتصق على جبينه، وعرف أنه غورباتشوف قائد جماعة الاستطلاع.

– ماذا تفعل هنا؟ أهناك نقص في رماة الرشاشات؟ – سأل نوفيكوف باستغراب. – وأين قائد كتيبة المدفعية؟ هنا؟

ألقى غورباتشوف الزمزمية ونظر إلى نوفيكوف بحرارة وعناد:

– لقد جئت في الوقت المناسب، أيها الرفيق الكابتن! إن الجميع في انتظارك، والقوّاد هنا. وكذلك أليشين. إلا أن رماة الرشاشات قد هلكوا. ففكرت ما دام الوقت سانحاً، هيا! اسلخ جلود بعض الألمان أولاً. – ثم سأل في غير مبالاة: – تسمح لي بذلك ها؟ ما دام الوقت سانحاً!

كان الخندق – الملجأ لقائد كتيبة المدفعية واسع الأرجاء.

وكان ثمة مصباح غاز صغير، كامل اللهب موضوع وسط طاولة صغيرة مترفة في ظلالها الميناثي جلبت من البلدة، ينير السقف الواطئ ووجوه الضباط المجتمعين. وكان هناك اثنان من جنود الإشارة نائمان على كومة من القش في الزاوية، ورأساهما مدفونان إلى آذانهما في معطفيهما.

جلس الميجور غولكو قائد كتيبة المدفعية محدودباً على المائدة وقميصه العسكري غير مزرر، وبلا حزام، يدخن سيكارة، ويترك الرماد، وكان ذلك عمداً، يتساقط على الخارطة المبسوطة على الطاولة. وكان وجهه النحيف ذو العينين الحزينتين الأرمنيتين عبوساً كالعادة. وكان حاجباه العريضان المعقودان فوق أنفه معكوفين في ازدراء. وكان يصغي بتكدّر ظاهر إلى الملازم الثاني أليشين، وهو شاب، كثير المرح لغير سبب ظاهر، في عينيه بريق الصبا، رنان الصوت كالزمير. وهو يتكلم بكلام سريعاً.

كان أليشين لا يفتأ ينفخ الرماد عن الخارطة بعناية، والانفعال يبقع جبينه الناصع ورقبته النحيلة الشبيهة برقبة رياضي ببقع داكنة. وحين يتكلم كان يرمق في حبور جنود الإشارة النائمين على جدار الخندق – الملجأ ثم يثبت بصره في حيوية بشعلة المصباح. ولكنه كان يتحاشى النظر إلى جهة الميجور غولكو مخافة أن يبتسم فجأة والموقف لا يسمح بالابتسام. وكان يقف وراء غولكو مرافقه بيتين. وكان رجلاً ضخم البنيان، شعره شديد الشقرة، وردناه مطويان. صبّ في راحتيه العريضتين فودكا ألمانية من الزمزمية بسحنة جادة حزينة، ورفع قميص الميجور، وفرك ظهره وخاصرتيه بالفودكا. فقد كان غولكو مصاباً بروماتزم الظهر، وقد انحنى الميجور إلى الأمام في كرسيه تحت ضغط راحتي بيتين ناخراً من منخريه المشعرين. ومع ذلك فقد ارتسمت على

وجهه علائم الاستقلال والاهتمام العميق بما يفعل أليشين، كما يبدو.

وحين دخل نوفيكوف وريميشكوف وراءه تماماً وأنفاسه لاهثة من الانفعال، رفع غولكو عينيه المتقلصتين فوق لهب المصباح وقال في لهجة لاذعة:

– آه، نوفيكوف – وابتسم بابتسامة لا رونق لها، ولكن حتى هذه الرقة التي كان نوفيكوف يلاحظها عند لقائه مع الميجور قد اختفت بسرعة لتحل محلها غضون كئيبة على جبين جعله الصلع عريضاً. ونظر غولكو في الساعة اليدوية الغارقة في معصمه المشعر وقال في تبرم:

– لا تتعجل في الذهاب إلى مواقع الخطوط الأمامية، أيها الكابتن. إنك تفضّل المؤخرة؟ أتشرب الشمبانيا الفرنسية؟ من الغنائم؟ أن تغازل الفتيات البولونيات على أنغام القيثار..... هيه؟ أم هناك ممرضة عندك؟

كان غولكو الذي طلق زوجته قبل الحرب بوقت طويل لا يتحدث عن النساء بصورة جدية معتبراً نفسه أعزب ثابتاً على عزوبته.

ولعله بسبب ذلك كان رائعاً يرتاب في حرية ضباطه وخفتهم، ويعتقد أن ذلك من خصال جميع الشبان غير المتبصرين.

قال نوفيكوف في جفاف:

– جئت بناءً على أمركم. – ثم فكر: «روماتزم الظهر كالعادة».

– يا لها من قضية مرحة! – تابع غولكو كلامه وهو يخاطب سيكارته لا نوفيكوف. وكان لا يفتأ يقلبها بين أصابعه الصفراء من التبغ، وهو يقطب بين آونة وأخرى. ثم رفع حاجبيه فجأة وتحول إلى

مرافقه وسأله بوقار وجهارة صوت:

– أوه، كفى تدليكاً. إن يديك الجاسيتين تمزقان جلد ظهري كالمبرد. كفى! Genug حافظ على الفودكا!

مال الملازم الثاني أليشين بصدره على الطاولة، وسدّ فمه بقبضة يده، ونظر إلى نوفيكوف بعينين مضطربتين في مرح ومحررتين من الجهد، وغصَّ بالضحك. وحكّ غولكو ظهره وهو يئن، ثم زرر قيمصه العسكري، ونظر إلى أليشين في ازدراء:

– ماذا بك، يا أليشين؟ رقصة ضحك بناتية؟ أرجو أن تلتزم الوقار. – ثم تحول إلى نوفيكوف. – اجلس.... كما في وسعك وراء الطاولة..... ما الذي تنظر إليه؟ إلى الشنابس (فودكا ألمانية)؟ لا، ثم استدعيتك لاحتساء الفودكا.

قال نوفيكوف:

– أنا لم أطلب فودكا، أيها الرفيق الميجور. – وجلس إلى جانب أليشين.

فقال غولكو في سخرية وهو يشد حزامه:

– شيء مفرح للغاية، تفضل هذا لحم معلّب. أخرجه بالشوكة.... لحم خنزير دنماركي محفوظ جيد. ولكن من الغرابة أن يلذّ لنا أيضاً.

قطب نوفيكوف في نفاذ صبر، ونظر إلى الخارطة. وكان يعرف غرابة أطوار غولكو. كلما ازداد الموقف تعقيداً ازداد فيض حديثه المتشكك بكل شيء قبل أن يعطي أمراً، وزاد عدم اكتراثه. في أحرج أوقات المعركة يمكن أن يرى غولكو في نقطة القيادة قرب نظارة

مزدوجة يعطي أوامـره، وعلى وجهه تصعر متجمد، والسيكارة الدائمة مشدودة بين أسنانه، وهو من دون قميصه العسكري، لأن مرافقه كان يخيط له زراً مقطوعاً فيه. وفي أوقات الدفاع كان يجرجر نعليه البيتيين الناعمين في المخبأ أو يستلقي دائماً على التخت الخشبي، يقرأ مجلداً مهلهلاً لغوته، وعلى وجهه علائم عدم الثقة التي يؤكدها كما يبدو بتحريك أصابع قدميه المجوربتين. وكان يبدو وكأنه قد عزم على حياة العزوبة في راحـة وحرية مزدرياً في ارتياب كل هندام عسكري. وبالرغم من أنه لا يسمح قط بحرية كبيرة للضباط المرؤوسين إلا أنه كان مشهوراً بينهم بالرجل المدني البيتي. ومع ذلك فقد كان نوفيكوف يعتبره غريب الأطوار ولا يعيش في الواقع، فكان يحافظ على علاقته الرسمية الجافة معه.

قال نوفيكوف في نفاذ صبر:

- أنا منصت إليك، أيها الرفيق الميجور.

- هذا هو الموقف.... - قال غولكو ذلك وهو يشعل سيكارة جديدة من عقب سيكارته السابقة، مطلقاً الدخان من فمه وأنفه، وقد ارتجف منخراه: - أوف!.... يا للقذارة! هذا قش لا تبغ! - ثم رسم دائرة حول كاسنو على الخارطة بعقب سيكارته. - انظر هنا، أيها الكابتن. لقد دفعنا الألمان إلى الحدود التشيكوسلوفاكية. والآن يضغط الألمان بكل قوتهم على البلدة من الغرب يضغطون كلياً، قاصدين من ذلك احتلال البلدة من جديد. ولكن لماذا؟ انظر! هل يمكن أن تعبر الجبال بالدبابات، ها؟ طبيعياً لا يمكن. وهذه البلدة نقطة لالتقاء الطرق.

- ألق اهتماماً خاصاً، يا نوفيكوف، إلى هذا الطريق العام إلى

الشمال، الطريق الجاري على طول البحيرة إلى المضيق. فإن مفتاح الموقف كله هنا. إنه الطريق المفضي إلى مدينة ريفني.

ها هي ذي ريفني على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً من كاسنو.

أتعرف ماذا يجري هناك؟ إن فرقنا المجاورة حاصرت في ريفني وضيقت على مجموعة من القوات الألمانية وهذه المجموعة قوية جداً، عندها كثير من الدبابات والأسلحة الأخرى. هل أدركت ذلك؟ هذه المجموعة تحاول كسر الحصار والوصول إلى الطريق الوحيد الصالح لسير الدبابات، الطريق العام الذي يعبر المضيق، ويجتاز كاسنو إلى تشيكوسلوفاكيا. وهناك، كما ينبغي عليَّ أن أخبرك، تجري أحداث جسام. فإن السلوفاك انتفضوا على حكومة تيسو. – ومص الميجور غولكو دخان سيكارته في تفكير، وأمسكها بين أصابعه، ووضع يده النحيلة على الخارطة ومضى يقول: – إن الأنصار السلوفاكيين يحاصرون بلدة ماريتسي منذ يومين. والمفروض أن مجموعة القوات الألمانية في ريفني ستحاول شقّ طريقها خلال كاسنو إلى ماريتسي، وتنضم إلى الحامية الألمانية هناك محطمة الانتفاضة في طريقها. هل أدركت ذلك؟ وهذا هو السبب في ضغطهم من الغرب لاحتلال كاسنو، عقدة الطرق، لتسهيل العمل لمجموعتهم الشمالية في كسرها لحصارنا.... هذا هو الموقف، وهذه هي الأمور.... – وعبّ غولكو نفساً عميقاً من سيكارته وقال: – على العموم، ألا يبدو لك، يا نوفيكوف، أننا في عشية الأيام العظيمة؟ لقد حرّرت بلغاريا، ورومانيا، والمعارك جارية في يوغسلافيا وهنغاريا..... ألا تسمع الموسيقى من الغرب؟ ها؟.....

وأشار الميجور غولكو بسيكارته إلى أخشاب السقف المهتزة من الانفجارات. وكانت كتل الطين تتساقط من السقف على الطاولة والخارطة من ضربات القنابل المصمة، وارتجّت زجاجة المصباح.

كل ذلك كان يعطي انطباعاً بأن تيارات شديدة تمر في الأرض.

وأراد نوفيكوف لسبب لا يعرف أن يمسك المصباح بيده ليوقفه عن الارتجاج، إن هذا الارتجاج المحزن كان يثيره.

كان الملازم الثاني أليشين ينظر إلى الخارطة بجدية جاهدة.

وفجأة تبسّم ثانية ونهض من مقعده وأخذ ينفض عمرته، ثم مسح رقبته، ونظر إلى نوفيكوف من طرف عينه متبسماً. وقال:

- تساقطت التربة على قفاي! مثل زخة من التراب.

ولم يرد عليه أحد. ومضغ غولكو سيكارته، وبصق قطع التبغ بأذى، وتابع كلامه بنفس الصوت المتراخي:

- في هذه الليلة يا نوفيكوف ارفع مدافعك من الموقع القديم، وانصبها لضرب مباشر.... هنا.... على شاطئ البحيرة الجميل، ووجّه نيرانها إلى المضيق والطريق العام وريفني. أما جيرانك فهم: في الجناح الأيمن دبابات الفيلق الخامس مضافاً إليها فوج للمدفعية المضادة للدبابات وبطاريات المدافع المائلة، وفي جناحك الأيسر القوات التشيكوسلوفاكية التي يقودها الجنرال سفوبودا. إنهم يحاربون معنا. والملازم الثاني أليشين قد رأى الموقع. في الحقيقة هذا كله. - ورفع غولكو صوته قليلاً وقال:

- أيها الملازم الثاني أليشين! أطلع قائد بطاريتك على موقع البطارية الجديد.

فأجاب أليشين في حيوية: حاضرا!

وصاح غولكو وهو يرسل سحابة من الدخان الكثيف من منخريه المشعرين:

- بيتين! عليّ بالماء الحار للحلاقة! - وتحول إلى الضباط وقال في همهمة: - سأكون في الموقع، بعد ساعة ونصف تقريباً... بالمناسبة إن مهندسين يزرعون الألغام على مشارف المرتفع. فالزموا جانب الاحتراس!

وفكر نوفيكوف: «ليأخذ الشيطان نظافته هذه». ونهض. وفي تقطيبة أجال ببصره في أرجاء هذا المخبأ النظيف المتضوع برائحة الكولونيا والفودكا، وذي المرآة الألمانية الصغيرة المستديرة الموضوعة على الطاولة. وعلى الطاولة تلمع أدوات الزينة النيكلية المغنومة؛ وهي عبارة عن سكاكين وفرش صغيرة لتقليم الأظافر وتصفيف الشعر وفكر نوفيكوف «يعيش وكأنه في بيته». وبازدراء ظاهر لهذا الوضع المتأنق بشكل نسائي، ولهذه العزوبة المحبة للراحة استأذن نوفيكوف بلهجة رسمية:

- اسمحوا لي بالخروج؟

وكان أول من خرج من الملجأ إلى الخندق.

كانت الريح تمزق بقوة أصوات الطلقات، ولعلعلة المدافع الرشاشة، وانفجارات الألغام الثقيلة الكثيفة والخانقة الدوي.

وتراكم كل ذلك فوق الخندق، فردده في صدى واحد متواصل.

كان الضباب الأحمر يتلوى في عبوس فوق البحيرة فتبدو وجوه الجنود في الخندق بنفسجية فاتحة مشوبة بدكنة. وكانت المدافع الرشاشة تطلق نيرانها على مدى بعيد عبر البحيرة مصوبة على الفواصل بين البيوت المحترقة بسطوع، حيث كان الألمان. ومن الأعلى كان نوفيكوف يرى البحيرة اللامتناهية الممتدة على طول المرتفع والمملوءة بنيران الحرائق.

كان الرصاص يرتطم بالسترة الأمامية في تدفق سريع، فيسقط قطع الطين اليابس. وفجأة أمسك نوفيكوف عمرته التي دفعتها الريح كما يبدو وأنزلها على عينيه، وانحنى، وتمتم لاعناً.

وصاح ريميشكوف من وراء ظهره:

– ماذا؟

فأجاب: طين.

– آ..... ها.....

وقرفص ريميشكوف على ركبتيه، وحدق بنوفيكوف من الأسفل بادي الإعياء. ومرت في رأسه فكرة خاطفة: إن نوفيكوف لو جرح – ولو جرحاً بسيطاً – فسيعفى إذ ذاك من الذهاب عبر النار إلى الطرف الآخر للبحيرة: وكان إذ ذاك ينبغي عليه أن يصطحب قائد البطارية إلى المؤخرة، إلى السرية الطبية. ولأن ذلك لم يحدث في الواقع فإن عليه الآن لا محالة أن يسير. وشعر وكأن يدين مثلجتين قد أطبقتا حول صدره وضعفت رجلاه. ونادى نوفيكوف بصوت عالٍ نفذ إلى قلبه، وقد أدار له ظهره:

– هيا نذهب بسرعة، يا أليشين!

– أنا مستعد، أيها الرفيق الكابتن، سنذهب! – جاء صوت الملازم الثاني.

ولاح ضوء المصباح لحظة خاطفة عبر باب الخندق – الملجأ وانبعث دفء مضمخ بماء الكولونيا، دفء لم يرد ريميشكوف أن يغادره.

وتمنى ريميشكوف بينه وبين نفسه في قنوط: «آه، لو جعلني الميجور مرافقاً له! ما كنت مثل بيتين أبداً». ثم سمع صوت أليشين المرح وفكر

في كره: «إنه مزيف، يتظاهر ويبدي المرح. ولكن ذلك ليس كله نابعاً من صميم القلب. بعض الناس يعاني الحرب والبعض الآخر يلتذّ بها. يا للعنة!».

– أوه، ما هذا الشيطان؟ ما هذا الذي يدب على الربع؟ – قال ذلك أليشين في حيوية، وضحك بطلاقة ضحكة فتية متعثراً بقدمي ريميشكوف.

وصاح نوفيكوف بصرامة:

– أين أنت، يا ريميشكوف؟

نهض ريميشكوف بصعوبة وحزن منتزعاً جسمه المثقل من الأرض، ثم اقترب من نوفيكوف وهو يعرج وحدق نوفيكوف به في حنان. وسأل:

– ما هذا؟

أنَّ ريميشكوف وتمتم:

– ساقي! – وحين انحنى ليحك ركبته تكورت تكوراً سخيفاً حقيبته الظهرية الممتلئة على ظهره وكأنها سنام.

قال نوفيكوف في غضب:

– يا للشيطان.... أية ريح حملتك إليّ؟ هل جئت لتحارب، أم لتدفئ عجيزتك على الموقد؟ لقد مكثت في بيتك ستة أشهر، و لم تعالج ساقك. فإذا لم تشفها فتحمل كل شيء! فهناك آخرون يتحملون أكثر منك! وتذكر دائماً أنني لا أعرف عنك إلا كونك جندياً! فخلّ عنك هذا التجهم. وكف عن الأنين! ومن الأحسن لو تترك حقيبتك! إنك تحمل وراء ظهرك نحو بودين.

- وأدرك نوفيكوف أنه يتحدث بفظاظة ولكنه لم يضبط نفسه. لقد جرح هو نفسه ثلاث مرات، ودخل المستشفى.

- وهناك، وبعد عودته إلى الوحدة لم يكتف بالسكوت عن آلامه، بل كان يخجل منها في الواقع ويكتمها.

وكرر نوفيكوف قائلاً:

- كف عن الأنين!

كف ريميشكوف عن الأنين - إلا أن أسنانه كانت تصطك - ولكنه لم يلق عنه حقيبته، وكل ما فعله هو أن مس شرائطها بأصابعه المرتجفة.

- حسناً، اتركه هنا، أيها الرفيق الكابتن! - اقترح أليشين في غير اكتراث، وحدق بدهشة بوجه ريميشكوف الذي ارتسم عليه تعبير مؤلم. - ما فائدته لنا؟ ليجلس هنا مع ساقه.

- إنه ذاهب معنا.

ووضع نوفيكوف قدمه في مشكاة الرمانات في حائط الخندق، وخرج من الخندق في عزيمة.

بقي ريميشكوف آخر الثلاثة في الخندق ورفع رأسه ورأى الرصاص الضوئي يمر بصفير فوق راسي نوفيكوف وأليشين. وفي الحال عرقت راحتا يديه، والتصقتا في رطوبة بأخمص رشيشته، وأخذت أنفاسه تتردد في شهقات قصيرة من فمه وكأنما ليس هناك هواء كاف. وفكر في نفسه: «إذا نظرت إلى اليمين أولاً، ثم إلى اليسار لا يقتلوني وإذا لم أنظر...»، ونظر إلى اليمين أولاً ثم إلى اليسار ورأى في الخندق وجوه الجنود القريبين الموردة من الوهج وكأنها مكفنة. وندت منه صرخة قصيرة غريبة، وقفز على السترة الأمامية وصدمته دفقة ريح حادة.

واندفع خلف نوفيكوف متهيئاً لأن يصرخ من ضربة يتوقعها على ظهره، متعثراً بحفر القنابل الحديثة ومتحسساً بكفيه شظايا القنابل حين يقع على الأرض. ثم شعّت في رأسه فكرة: «إن هذه الحقيبة على الظهر تمنع اختراق الرصاص... لا. لا..... لا يقتلوني رأساً.... بل سأجرح فقط».

ولحق بالضابطين بالقرب من أول البيوت. وأسند حقيبته إلى سياجٍ، ولم يكن قادراً على أن يتفوه بكلمة واحدة، بل كان يتنفس لاهثاً. ولا شيء غير ذلك.

الفصل الثالث

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، بعد الاستطلاع الشخصي أرسل نوفيكوف ريميشكوف إلى الموقع القديم ومعه أمر بما يلي:

ترفع مدافع أوفتشينيكوف في الحال. وفي هذه الليلة بالذات تحتل مواقع على يمين البحيرة شمال البلدة على مرتفع جديد.

جلس نوفيكوف على الأرض على بعد خمس خطوات من الموقع الجديد للبطارية ينتظر وصول المدافع. وأصغى بوضوح إلى صرير المجارف الرطب على الأرض، وأصوات الجنود الهامسة، ووقع الأقدام الخفيفة في الظلمة - إن أفراد أطقم أليشين يحفرون، وخيّم حول المرتفع سكون أجوف، مبهم. وكانت البحيرة تلمع بانعكاس الوهج الأحمر الهادئ على صفحتها. وفي الجهة الأخرى كان الألمان صامتين. وهناك تشيكوسلوفاكيا.

وهنا، على بعد أربعة كيلومترات من ساحة المعركة الرئيسية شمالاً، وعلى بعد مئتي متر من الألمان، تملّك نوفيكوف شعور مضطرب وكأنه يفتقد شيئاً ما، أو أنه أتى خطأً لا يمكن تصحيحه، ولكنه غير قادر على أن يتبيّنه بوضوح، أو يمسك بالعلل الحقيقية لاضطرابه، وكان أحداً يحدق في ظهره تحديقاً ثابتاً.

كانت البحيرة تنبسط أمامه متدرجة في عتمتها، وطرفها الشمالي يصطدم بجبال الكاربات السوداء. وفي المدى البعيد إلى اليمين يمتدّ شريط وردي هو الطريق العام من كاسنو إلى رفني، الطريق الذي يختفي في المضيق ويتلوّى مكتسباً زرقة الضباب الداكنة.

- أيها الرفيق الكابتن! أتريد سكائر فاخرة، سكائر بولونية! «مونوبوليا» أوه، اللعنة، انظر ماذا يجري في البلدة!

واقترب أليشين.

رفع نوفيكوف كم معطفه في صمت، ونظر في ساعته ذات الأرقام الفوسفورية، ثم نظر إلى الخلف، إلى البلدة البعيدة الوهاجة. هناك كانت تظهر نجوم الانفجارات الشعثاء من دون انقطاع، وتطير وميضات قذائف الدبابات يلتقي بعضها ببعض، وكأنها تتمازج فوق البحيرة التي تمتدّ زهاء خمسة كيلومترات على الحدود التشيكوسلوفاكية. وكانت الريح تهبّ من الشمال، وتصفر حول المرتفع الذي يجلس عليه نوفيكوف وتكتم أصوات المعركة.

- وهنا يسود الصمت، - قال ذلك نوفيكوف وفجأة رأى نقطة ضوء شاحبة فوق خندق أمامي فسأل:

- من يدخن هناك؟ أطفئها! أهو بوغاتنكوف، الذي لا يمكنه أن يصطبر قليلاً؟

وكان الجواب صمتاً.

واختفى الضوء الشاحب فوق الخندق. وسعل شخص هناك سعالاً يمزق القلب وكأنه يختنق. وأخرج الملازم الثاني أليشين علبة السكائر المغنومة الكبيرة من جيب معطفه، ثم دفع بالعلبة حافة عمرته إلى قفا رأسه في حيرة. وبدا وجهه الفتي بسبب ذلك كوجه صبي غرير، ولاحت الجرأة عليه. وقال بانزعاج:

- شياطين!... - وبعد أن صمت برهة ليحافظ على اللياقة، طفق يقول بصوت مرح: - أيها الرفيق الكابتن، إن كشافين عثروا هنا على فيلا ريفية فاخرة حقاً، حوض للسباحة وحمام وطنافس - وكل

شيء. إن رأس الإنسان يدور مما فيه. هيا نذهب. إنها قريبة جداً، هناك في الأسفل.

– فيلا فارغة؟

– تماماً.

كانت هذه الفيلا بيتاً رحيباً ذا طابقين على بعد زهاء مئة وخمسين متراً من المرتفع. وكان البيت واقعاً وسط منتزه محاط بسياج من الحديد. وفي المنتزه أشجار زيزفون تساقط منها نصف أوراقها. وكان باب السياج ثقيلاً ذو خوخة مزينة بوجوه برونزية لامعة لأسود مكشرة الأنياب بدلاً من المقابض.

دخلا المنتزه الواسع الأرجاء الكثيب الداكن. واحتواهما حفيفه السياجي، وهسهسة الأوراق المتساقطة على المعاشي، وصفير الريح الواني بين أشجار الزيزفون نصف العارية. كانت الأوراق في تساقطها تنزلق على معطفيهما، وسمع نوفيكوف صوتاً خفيفاً من أقدامهما حين كانت تطأ البساط الكثيف الذابل من الأوراق المتساقطة. وكان ينبثق من جميع الأرجاء والمماشي المكسرة بالأوراق الشعور بانعدام الحياة تضخمه رائحة أواخر الخريف الداخنة، الكئيبة، المرة.

وفي وسط المنتزه بالقرب من البناية الداكنة لمع سطح بركة محاطة بشجيرات كثيفة. وعلى سطحها الأبنوسي تطوف جزيرات صغيرة كونتها الأوراق المتساقطة، وبينها رأى نوفيكوف في سواد حوضٍ ساكن لمعان النجوم المنعكسة؛ وكانت تلك أول نظرة له إلى النجوم منذ أيام عديدة، ونطت ضفدعة تضايقت من وقع أقدامهما، ودخلت الماء في صخب مهشّمة النجوم إلى شظايا فضية.

توقف نوفيكوف لينظر. إنه يحب فصل الصيف من بين فصول

السنة كلها. وقد تعود في سنوات الحرب على كره الخريف، لأن الأمطار فيه تجعل الطرق موحلة. وفكر فجأة بأنه أخذ ينسى الخصائص الفريدة لعالم ما قبل الحرب الذي كره لأجله الخريف والألمان ونفسه لما يضمر من حزن لذلك العالم. والتفت نوفيكوف حين سمع أليشين يقول:

- ما هذه الهولة؟.... أي حشرة هذه؟

وبفضول طفل مشاغب حوّل الملازم الثاني أليشين ضوء مصباحه اليدوي إلى الماء. فقال نوفيكوف متبسماً في غير توقع:

- لا تلتفت إليها، إنها ضفدعة اعتيادية!

- أوه! يا لها من حمقاء! - صاح أليشين في إعجاب.

- أعطني المصباح.

صعد نوفيكوف درجات الشرفة الزجاجية، وأشعل المصباح اليدوي.

كان الطابق الأول خالياً، والظاهر أن أهله قد هجروه منذ أكثر من أسبوع. وكانت فيه رائحة سجاد مغبرة، وأنفاس حياة غريبة مكتومة حلوة، ورائحة ترف غير معروف. وعلى قطع الأثاث الصقيل، والكراسي الوثيرة الواطئة - طبقة غبار رمادية، فيها آثار أصابع. وفي كل مكان آثار رحيل جرى في عجالة، وفي زاوية القاعة لفت سجادة سميكة. وكانت هناك خزانة السفرة المحتلة نصف طول الجدار، واللامعة بالكؤوس البلورية مفتوحة، وكانت جرارتها المملوءة بأدوات المائدة الفضية نصف مجرورة. وهناك على السجادة تلمع شظايا الفناجين الصينية المهشّمة. ويبدو أن أحداً من الناس قد نقب في عجالة عن أثمن الأشياء التي كان يمكن أن يأخذها معه، فهشم في غضب كل شيء وقف في طريقه.

وكانت مرآة خوان الزينة مكسورة في الوسط بأخمص البندقية في الظاهر.

وعلى الأرض أمام الخوان تورد ببراءة قميص نسائي رقيق له حاشية من الدنتلة.

قال أليشين في غيظ:

– يا لهم من حمقى! انظر ماذا فعل هؤلاء الهبل من فوضى هوجاء!

– من هناك؟؟.... إنهم يرفضون أم ماذا؟ – وأشار نوفيكوف بالمصباح إلى السقف حيث كان يسمع وقع أقدام متقطعة، وأصواتاً مكتومة تنفذ إلى الطابق الأسفل.

أجاب أليشين وهو يهز كتفيه:

– أحد رجال الاستكشاف المساعد غورباتشوف.

وارتقى نوفيكوف الدرج المغطى بالسجاد مستنيراً بضوء المصباح وصعد إلى الطابق الثاني. وقابلتهما رائحة عطور مختلطة دافئة، ونفتالين نافذ. وكان في غرفة واطئة السقف هي غرفة نوم، كما يبدو، ذات ستائر ثقيلة مسدلة بعناية يسود ظلام خفيف أخضر مغبش بدخان. وكان ثمة، ثلاثة أشخاص.

اثنان لا يعرفهما، هما ضابط وجندي؛ كانا ينبشان الدواليب لاهثين، ملقين أثواب النساء الداخلية الحريرية، منتقين الثياب الرجالية، حاشرين إياها في حقيبتهما، مستعملين قبضتيهما. وكان الكشاف غورباتشوف جالساً فوق كرسي، طويلاً، مرن الخصر، والسيكارة في طرف فمه، يتحدث من خلال الأسنان في نصف ازدراء:

– أنتم من هواة جمع الأشياء، يا ضابطي التموين! آه، لو كان بالإمكان إرسالكم إلى مواقع الخطوط الأمامية.... – وحين وقع بصره على الضابطين القادمين نهض في تراخ وحيّاهما بلياقة، وبشيء من الإهمال أيضاً، أشار برأسه إلى الدواليب وقال في تلطف:

– إنهما ضابطا تموين من الكتيبة الطبية، يبحثان عن سراويل داخلية للجنود.... ولكن كل الأشياء هنا نسائية مع الدنتلة. ها!

سأل نوفيكوف وهو يتوجه نحو الضابطين:

– من الذي أمركما؟ إنني أسألكما: من الذي أمركما؟

ودار أحد الضابطين وهو ما يزال يلهث من الجهد. وكان عرقاً، أحمر، قصير الساقين، محلول المعطف عند الرقبة، خداه الممتلئان لامعان محلوقان جيداً ووجهه كوجه الرئيس، والشيب قد بدأ يسري في صدغيه. وكان هذا الضابط برتبة كابتن في خدمة الشؤون الإدارية. وقد نظر إلى نوفيكوف من خلال عينين قد ضيقهما، وسأل بصوت جهير قصير مثل صوت المدمنين على التدخين:

– ومن أنت؟ ماذا تريد؟ ماذا؟... أي شيء؟

– إنني أسألك من الذي أمرك بأن تنبش هنا؟ – كرّر نوفيكوف قوله بصوت هادئ، كما يبدو، ورفع إلى الكابتن عينين ناريتين من الغضب. – أفرغا الحقائب حتى آخر خيط، واخرجا من هنا! إلى الجحيم!

قاس الضابط ذو الوجه المدور بنظره قامة نوفيكوف القصيرة وقال بلهجة واثقة:

– اهدأ قليلاً، أيها الكابتن. لا تتجاوز حدودك كثيراً. إنني لا

أفعل ذلك لنفسي، بل لكم، للجنود والضباط، للكتيبة الطبية. أبحث عن ملابس تحتانية. المهم أن تلتزم الهدوء.... هيا، يا فاسيشكين، خذ الأشياء، وهيا نخرج! – قال الكابتن ذلك بلهجة آمرة محوّلاً وجهه إلى الجندي ذي الوجه الكئيب غير المعافى.

كان هذا الجندي يقرع الأرض برجليه، أمام صوان للملابس مفتوح الباب، متدلي اليدين بارتباك. ثم نظر في حيرة، ورفع أربع حقائب منتفخة بمحتوياتها. وانحنى ضابط التموين السمين لاهثاً على الحقيبتين الباقيتين وحملهما، وهو ينظر إلى نوفيكوف نظرة صلابة وادعة، ومشى نحو الباب.

وفي الحال وقف نوفيكوف في طريقه وقال من خلال أسنانه:

– أول نذل يعبر عتبة الدار ومعه سقط المتاع هذا.... ارجع!

وتراجع الجندي الأحدب وكأنه دفع من صدره، وتعثّر بكومة من الملابس الداخلية النسائية المتبعثرة ووضع حقائبه عند رجليه غير مصدق. وصاح الكابتن وقد ظهرت على جبهته الناتئة خطوط الغضب، ولاح الزبد في طرفي فمه:

– ابتعد عن الطريق! لا تتدخل في ما لا يعنيك، أيها الصبي!....

وفي نفس اللحظة وضع يده على غمد مسدسه وحنجرته تفحّ فحيحاً قوياً.

قال نوفيكوف بقوة وعجالة:

– أيها الملازم الثاني.... جرّده من هذه اللعبة!

اندفع الملازم الثاني أليشين منحنياً نحو الكابتن، وتبعه غورباتشوف. وفي تلك اللحظة تردّد في الزاوية صوت صراع شديد وصوت مكتوم

كريه هو صوت الكابتن، وصرخات الجندي الأحدب المتوسلة المتوانية: «لِمَ كل ذلك، أيها الرفيق الكابتن؟.... لماذا؟». وحين أخرج ضابط التموين من الغرفة محمرّ العينين، ثقيلَ الجسم، صاح وقد ثبت ساقيه القصيرتين:

– أعد إليّ المسدس! سلاح شخصي... ولكن الملابس الداخلية ليست لي بل للكتيبة الطبية! لقد دمرت الكتيبة الطبية نتيجة لغارة جوية.... ولكن....، أوه، يا للشيطان، أنت لا تفهم شيئاً، أيها الصبي!

وأنزلوه. وأخذ صوت أقدامه وصرخاته يبتعد ويتضاءل في الطبقة السفلى. وتقدم نوفيكوف نحو الطاولة، وصب لنفسه نصف قدح من الماء، وشربه بجرعة واحدة وهو واقف.

وعاد أليشين وغورباتشوف إلى الغرفة. وقال أليشين في إعجاب تقريباً، وهو يعدل نطاقه:

– لقد فقد ذو الوجه المنتفخ عقله...! حقاً فقد عقله! – ثم أخرج المسدس من جيبه بانفعال: – هذه هي اللعبة التي أخذناها. – ووضع المسدس أمام نوفيكوف. وجلس إلى جانب الطاولة وكأن شيئاً لم يحدث، وقلص بلا مبالاة عينيه اتقاء نور المصباح ذي الظليلة الخضراء. ومد يده إلى صندوق فيه قطع من الشوكولاتة، وتناول قطعة، ونظر في دهشة إلى الصورة المرسومة على غلافها: رأس فتاة ذات عينين باسمتين مع قطعة من الشوكولاتة قرب فمها، وإلى الخلف منها برج ذو فرجات حديدية عليه حروف غريبة. وحين أمال عمرته إلى قفاه قرأ في مضض:

– با – ري، – ورفع ناظريه اللذين ملأهما اهتمام الأطفال نحو نوفيكوف. – ما معنى «باري»؟

قال نوفيكوف:

– هذا بالفرنسية – باريس. إن الألمان ما زالوا يلتهمون الشوكولاتة الفرنسية. وهذا برج إيفل الذي وضع تصميمه المهندس إيفل. وارتفاعه ثلاثمئة متر كما يبدو. ولكن، على أية حال إنني لا أثق بذاكرتي، نسيت....

ودفع المسدس نحو كومة من علب المحفوظات، ونهض وابتعد عن الطاولة، وأخذ يفحص بانتباه الغرفة بكراسيها الوثيرة؛ فراش الريش العريض غير المرتب، وسجادتها المبعثرة عليها ملابس داخلية نسائية. ثم تناول كتاباً مغبراً من رف فوق أريكة عريضة، وطالعه وألقاه على الأرض في اشمئزاز. ثم حشر يديه في جيبي معطفه وأخذ يروح ويجيء على السجادة الممتصة للصوت.

وتمتم:

– ألمان! لقد كان سكان هذا البيت ألمان، وليسوا بولونيين، كان الضباط الألمان يستريحون هنا... وواضح أن البلدة كانت للاستجمام.

– أوه... ليذهبوا إلى الجحيم، أيها الرفيق الكابتن، – قال غورباتشوف مهدئاً وعيناه تبتسمان من تحت خصلة شعر متدلية على جبينه، – اجلس، ولنتناول شيئاً حتى لا يقلق علينا أهلنا! هناك طعام كثير في السرداب، طعام يكفي عاماً. ما رأيك في الشرب، أيها الرفيق الملازم الثاني؟.... ولكن كيف التمزّز بالشوكولاتة مع الخمرة؟ ابصق، هذه تفاهة! هناك أكوام منها في السرداب....

– شراب؟..... تفضل كما تريد!

دفع أليشين قطعة الشوكولاتة المفكوكة، ورمق نوفيكوف

مستفسراً، واحمرّ فجأة. وتناول كأساً من الروم، وشربه في عجالة وعدم اقتدار وهو يختنق ثم نظر ورفّت عيناه كثيراً، وتنفس من فمه. وفي آخر الأمر تمكن من أن يقول:

– نخب النصر! أوه، صعبة، حادة، وقوية!.... – وانحنى أليشين وكأنه يريد أن يلتقط شيئاً، ومسح الدمع الذي درّه الروم من عينيه. ثم انتصب وبدا عليه التأثر، وبشجاعة مزعومة تناول نصف شوكولاتة.

وشرب غورباتشوف كأس الروم بجرعة واحدة من دون تغيّر في سحنته ونشق قطعة الخبز فقط، وتناول ملء شوكة من لحم الخنزير من العلبة ثم دفع العلبة إلى أليشين.

غير أن أليشين راح يمضغ الشوكولاتة، ويهز رأسه معترضاً، وقال بجرأة:

– هذه عادتي! كنا نشرب الكحول في ترامبول بقصعات بل ولا نتناول معه مزة. أصحيح، أيها الرفيق الكابتن؟ أتذكر؟ آه.... لقد انقضى ذلك العهد!

أحب نوفيكوف ذلك الملازم الثاني ذا العينين الزرقاوين والوجه المرح والأنف ذي النمش الساطع، وأحب طريقته في إخفاء تفاوته الصبوي، وتظاهره بانطلاق الرجل المجرب. وكان يعرف أن أليشين لم يشرب الكحول قط بقصعات، وحين كان رجال الاستكشاف يجلبون جردلاً من معمل للتقطير في ترامبول كان أليشين يرفض أن يشرب شيئاً منه متحججاً بمعدته الموجعة الحمقاء. والآن قال له نوفيكوف:

– أتذكر.... أوه، يا لك من شرّيب آنذاك!

وابتسم فجأة حين رأى أليشين مخموراً ومحمراً من أثر الخمرة، وعيناه متألقتان، وهو يفض الورق الفضي المشوشر من قطعة شوكولاتة ثانية وأضاف يقول:

– لقد شربت بكثرة، ويسر. ولكن دعنا نذهب، فلا بد من أن البطارية قد وصلت. وأنت، يا غورباتشوف، ابق هنا، وإذا عاد الرجلان اطردهما... واضح؟

– حاضر!

ونظر نوفيكوف في الساعة، ومشى إلى الباب. وبدأ أليشين مكتئباً حشر أربع قطع من الشوكولاتة في جيوبه، ونهض لدن المفاصل، ودفع حافة عمرته عن جبينه. وقال لغورباتشوف بعبوس وغطرسة:

– ليكن كل شيء على ما يـرام، مفهوم؟ – ومتى خلف نوفيكوف بخطى ثابتة حازمة.

حين كانا يسيران في ممرّ المنتزه الصامت المغروس بأشجار زيزفون عارية الأوراق تصفر قممها صفيراً حفيفاً، لم ينظر نوفيكوف إلى ساعته، بل مشى على أكوام الأوراق الجافة. وكان يحدق من خلال الأغصان المتشابكة نحو المرتفع. وأرهف أذنيه.

ومن رنين عدد الخيول المعروف والمعتاد، ومن الأصوات التي تصدر الأوامر على المرتفع، ومن لعنات سوّاق الخيل الشديدة عرف نوفيكوف أن المدافع قد وصلت.

وفكر نوفيكوف وهو يحث خطاه: «ماذا، هل أوفتشينيكوف أحمق؟ لماذا يحدثون هذه الضجة تحت أنف الألمان؟ ماذا حدث لهم؟» وأمر أليشين:

- لنركض!... إنهم أقاموا سوقاً ريفية! ها هذا عندكم؟

أجاب أليشين:

- لا يمكن!

وهرولا صاعدين المنحدر إلى المرتفع وأبصر نوفيكوف هياكل المدافع السوداء، والعربات، والخيول، وأشباح الجنود المتحركة.

وأمر بصوت مكتوم:

- اصمتوا! ماذا تفعلون هنا؟ ليأت قائد الفصيلة إليّ!

في هذا السباب والأصوات وقفت الأشباح غير الواضحة إلى جانب المدافع وكأنها جمدت. وجاء الملازم أوفتشينيكوف إلى نوفيكوف لاهثاً تفوح منه رائحة العرق الحادة المعافاة، وأبلغ باقتضاب عن وصول أفراده.

وسأل نوفيكوف في هدوء وهو يتمالك نفسه:

- ماذا جرى لكمم، يا أوفتشينيكوف؟ أتريد أن يبيدوا البطارية بدون طلقة واحدة؟ أمامكم منطقة محايدة، والألمان على مقربة منا. أليس هذا واضحاً لك؟

فهمس أوفتشينيكوف بصوت منفعل من الأوامر التي أعطاها أخيراً:

- ما من شيء واضح لي: هـراء! هل يجب عليّ أن أنصب المدافع في منطقة محايدة؟ أما خلط ريميشكوف عليّ الأمر، أيها الرفيق الكابتن؟

- كلا. ما الذي يضايقك؟

– إن الألمان أنشأوا حقل ألغام هنا، خلف المرتفع. وقد فلتت المدافع، ولكن عربة اصطدمت بلغم! – ولعن أوفتشينيكوف – وقطّع حصان تقطيعاً وتناثر فلا تعثر منه على ذيل أو رأس، وجرح السائق جرحاً بليغاً، ولينا هناك تعتني به. إذن عليّ أن أقف في المنطقة المحايدة؟ من دون مشاة يسندونني؟ – سأل ذلك وكأنه ما زال غير مصدق.

– نعم، بلا مشاة. سيكون موقع مدافع أليشين هنا، على المرتفع، وموقعك، يا أوفتشينيكوف، خلف المرتفع، على المنطقة المحايدة. لماذا ينبغي عليّ أن أعيد الأوامر؟

فأجاب أوفتشينيكوف وقد عادت إليه سكينته:

– حسبت ريميشكوف قد أخطأ.

– لم يخطأ احد. فاحتل موقعك من دون جلبة، – ردد نوفيكوف. – أين الجريح؟ – ومن دون أن يصغي إلى جواب أوفتشينيكوف مشى على المرتفع باتجاه المنطقة المحايدة.

صاح أوفتشينيكوف:

– إلى أين ذاهب؟... على الغام؟ – وانطلق نحوه. – هل زهدت في الحياة، أيها الرفيق الكابتن؟ لينا هناك، وأنت أيضاً؟.... ينبغي دعوة المهندسين....

– لقد دعوناهم بالفعل... غير أنهم لا يوزعون الألغام بل يبثّونها....

وقوطع صوت نوفيكوف بصراخ أوفتشينيكوف: «على الأرض!..». وفي تلك اللحظة مزق الصمت دوي حادّ، وارتفع

أزيز متزايد، وشعر نوفيكوف بأن شيئاً ما حدث وراء ظهره، فالتفت بسرعة ورأى في السماء الوضاءة: نجمة مشتعلة متلألئة ترتفع باندفاع. وهناك كرة أخرى مثلها ارتفعت من أعماق البحيرة خلف المرتفع، وانفجرت فجأة فوق البحيرة نار خضراء كشفت بوضوح المرتفع والمدافع، والعربات والخيول، والجنود. وفي تلك اللحظة بينما كان الصاروخ يضيء أقطار السماء أمطر المرتفع بوابل من آثار الرصاصات الخطاطة الحمراء قادمة من طرف البحيرة بالقرب من الموقع الذي يجب أن تحتله مدافع أوفتشينيكوف. وعلى مسافة قريبة جداً خلف المنطقة المحايدة تماماً أزّ مدفع رشاش. ثم ارتفع صاروخ آخر إلى اليمين قليلاً، ومن هناك أيضاً انهالت على المرتفع سلسلة من الرشقات.

أمر نوفيكوف:

– العربات في المخبأ! – وكان من الواضح له أن المخافر الألمانية الأمامية لاحظت البطارية.

وهرول نحو العربات المجتمعة التي تحمل الذخيرة فرأى الجنود يفرغون صناديق الذخيرة بسرعة، بينما كانت الخيول المشدودة إلى قادمات المدافع تركض في عجالة على المرتفع.

والتقت عيناه بعيني أول السواق الذين يفرغون الذخيرة، وهو يلقي الصناديق على الأرض بأنين ونفاذ صبر. وقال بسرعة:

– أمرت إلى المخبأ! البطارية مكشوفة وكأنها على راحة اليد، ألا تفهمون ذلك؟

وأزت فوق رؤوسهم رشقة الرصاص. وطأطأ نوفيكوف وسقط سائق مع الصندوق الذي يحمله وتمتم:

– أيها الرفيق الكابتن... إن الألمان إلى جانبنا تماماً، على بعد قبلة..... نحن لم نعرف بذلك......

فأمر نوفيكوف:

- سِرْ!

أنهض هذا الأمر السائق من الأرض وألقى جنبه على العربة، وهزّ العنان، وابتعدت العربة مسرعة هابطة المنحدر، والصناديق الباقية تفرقع على قاعها. ورأى نوفيكوف في ضوء الصواريخ العربات الأخرى تندفع مارة به، تسوطها من الخلف حزمات نارية من رشقات الرشاشات. أقفر المرتفع المضاء بلا انقطاع، كأن كل شيء مات فيه في الحال. وبدا المدفعان الرشاشان القريبان جداً اللذان كانا يطلقان عليه النار المتقاطعة الحاصدة، وكأنهما يمشطان كل عشبة ذابلة بأسنان مضيئة لمشط كبير، وطرح نوفيكوف نفسه على الأرض حين سمع ارتطام الرصاص المقترب منه، واستلقى على العشب. وشعر بأن الألمان سيولون المرتفع انتباهاً أكثر، وسيستمرون في تمشيطه بالرصاص طول الليل. وكل ذلك يضاعف من تعقيد الموقف، وقد كدّره ذلك: «لقد اكتشفوا موقع البطارية قبل بدء المعركة!».

وتوقفت المدافع الرشاشة عن إطلاق النار فجأة، ولكن الصواريخ ما زالت ترتفع فوق البحيرة ملقية ذيولاً نارية متلوية في الماء.

وفي آخر الأمر انطفأت الصواريخ أيضاً، وهبطت الظلمة على المرتفع. ونهض نوفيكوف، ونادى بصوت خفيض، وهو لا يثق الآن بالهدوء:

- الملازم الثاني أليشين!

- أنا هنا.

وهمس العشب على مقربة منه. واقترب أليشين مسرعاً، وكان وجهه يبدو واضحاً في الظلمة.

– نظموا جازاً حقيقياً!... لقد حددت موقع اثنين من رشاشاتهم. إنهما قريبان منا جداً. انُطلق النار عليهما لإسكاتهما؟

فزجره نوفيكوف قائلاً:

– لا تقل هراء! لا تكشفوا البطارية! احفروا الخنادق بهدوء تام. ومن يدخن يحال إلى محكمة عسكرية. أواضح هذا؟ هل هناك جرحى؟

– كلا. سائق واحد فقط هو سوجيكوف. فقد تعثر بلغم، ولينا معه الآن.

– أعرف. أنا ذاهب إلى هناك الآن فحلَّ مكاني هنا.

– حاضر! سأحل! – قال أليشين وفي صوته رنة من الأسى.

ثم أضاف بصوت تكلّف أن يكون مرحاً: – هلّا تأخذ هذه، أيها الرفيق الكابتن، وتعطيها إلى لينوتشكا، – وناوله في ارتباك قطعتين من الشوكولاتة. – هذه لتحلية الفم كانتا مكومتين في جيبي مهملتين.

وحشر نوفيكوف قطعتي الشوكولاتة في جيبه في صمت، متظاهراً بأنه لم يفطن إلى ارتباك أليشين. وحتى ذلك الحين لم يلاحظ أية علاقة خاصة بين الملازم الثاني أليشين ولينا، كتلك التي يخيل إليه أنها قائمة بين الممرضة وأوفتشينيكوف. وكان ارتباك أليشين حين فاه باسمها بصيغة التحبب: «لينوتشكا» غير مقبول له، وكان لا يريد أن يرى هذا الصبي النظيف الذي يحاول أن يكون رجلاً راشداً – واقعاً في حبائل هذه العفيفة عفافاً خادعاً، لينا التي تعرف كل ما يمكن أن تعرفه امرأة في الحرب، لها اتصال دائم مع رجال أحدقت بهم، وقسّتهم ويلات الحرب.

وهبط المنحدر نحو المنطقة المحايدة، وأخذ ينظر إلى الأرض تحت قدميه محاولاً أن يعرف أين يبدأ حقل الألغام غير المعروف.

وكان يفكر: «اصطدموا بلغم ألماني؟». وفي تلك اللحظة عندما هبط إلى التجويف سمع صوت التحذير:

- من هنا؟.... احـذرا.... - ثم تبيّن إلى يمينه بالقرب من حرش صغير بقعة سوداء.

هرع نحوها وتبين له أنها العربة المحطمة من دون عجلتيها الأمامتين، وإلى جانبها جثّة حصان صريع. وكانت لينا راكعة على ركبتيها تضمد جراح سوجيكوف الذي كان يئن في وهن:

وكانت تقول بهمس هادئ مسكن:

- تحمل قليلاً. تحمل عدة دقائق.... فستأتي العربة في الحال، وسنذهب بها إلى الكتيبة الطبية، إلى الكتيبة الطبية.... تحمّل قليلاً....

وسأل نوفيكوف في اقتضاب وهو ينحني على الجريح:

- جروحه بليغة؟

وربطت لينا شد الضمادات بأصابعها النحيلة ورفعت بصرها.

وحدقت عيناها الداكنتان في عيني نوفيكوف، وقالت بصوت مندهش غاضب:

- لماذا أنت هنا أيضاً؟ جريح واحد غير كافٍ؟

- سوجيكوف! - نادى نوفيكوف وركع بالقرب من الجريح.
- كيف فعلت بنفسك هذا؟ والحرب توشك أن تنتهي... لقد عملنا سوية منذ أن كنا في كييف... هل عرفتني؟

كان سوجيكوف جندياً كهلاً حارب في بطارية نوفيكوف منذ معارك الدنيبير. والآن منطرح، ورأسه ملقى إلى الخلف، وعيناه المجهدتان الجاحظتان تحدقان في السماء، وكان وجهه غير الحليق رمادياً نحيلاً وكأنما جاءه النحول فجأة. وقد حول بصره إلى نوفيكوف ببطء، وعرفه. وتحركت شفتاه الشاحبتان الشقيتان على نحو يائس:

– مصادفة!.... لم أكن أعرف.... مؤلم.... – وانحدرت قطرات دمع كبيرة على خديه ببطء. – مؤلم.... مؤلم، – كرّر ذلك والصوت يكاد يختنق في حنجرته. – خضت الحرب كلها، ولم أجرح ولو مرة واحدة.

ولم يستطع نوفيكوف تهدئة سوجيكوف. وكان يعرف جيداً أن الجريح حين يشعر بدنوّ أجله لن يكون مخطئاً في ذلك قط.

ولم يتحدث سوجيكوف عن الموت، غير أن نوفيكوف فكر بأن الحرب بالنسبة إلى هذا الجندي قد انتهت مبكراً أبكر مما يجب.

وهذا الشعور بالظلم أجّج نار الغضب المرير في صدره.

وانحنت لينا على الجريح، وبقطعة ضماد مسحت الدموع التي خضّلت شعرات وجهه. وقالت له بصوت رقيق مهدئ واثق:

– لا تبك، يا سوجيكوف، لا تبك، يا عزيزي، ستعيش، نعم ستعيش، وسيزول الألم.... فتحمّل قليلاً....

وكان نوفيكوف لا يطيق قط سماع تلك الكلمات الكاذبة التي تقولها الممرضات للمشرفين على الموت. وخامره شعور غير مريح، شعور رجل صلّبه الأسى وفكر في نفسه: إنه لا يريد قط أن يخدع بلطف وهو يجابه الموت. ولكن وجعه لن تخمده هذه الملاطفة الأخيرة في الحياة. وقال للينا في هدوء:

- لا تحاولي تهدئته. إنه يفهم كل شيء. وداعاً، يا سوجيكوف... إنني لن أنساك قط. - قال ذلك وضغط بنعومة على كتف الجندي النحيف، وإذ نهض سمع صوت الجندي الخافت من الأسفل. «شكراً، أيها الرفيق الكابتن». وشعر بألم حاد من هذا الشكر، وقال لنفسه: «هذا رجل آخر...».

وبعد زهاء عشر دقائق جاءت عربة الإسعاف من الكتيبة الطبية، ونقلوا سوجيكوف.

ووقف نوفيكوف ولينا جنباً إلى جنب صامتين. وتحولت لينا نحوه بصورة غير متوقعة. وقالت وهي تكاد تمسه بصدرها الذي برز تحت معطفها:

- في وسعي أن أرسله وحدي، فلماذا جئت؟ أتريد أن تكون بطلاً صرعه لغم؟ من الذي دعاك إلى هنا؟ هذا عملي!

فأجاب نوفيكوف:

- هذا أحد جنودي. هيا، لنذهب إلى أوفتشينيكوف ولكن احذري، كيلا تدوسي على لغم، امشي إلى جانبي. إن لي تجربة أكثر على ما يبدو. - ثم أضاف: - على أية حال، هذه شوكولاتة لك من أليشين.

- أية شوكولاتة؟ ماذا بك؟... ليست روضة أطفال هنا.

وشعّ ضوء ندي في عينيها. ورأى شفتيها ترتعشان ازدراءً أو كراهية، أو رثاء وابتئاساً كما حدث لسوجيكوف في هذه الساعة.

ومشت أمامه بسرعة في المنخفض نحو البحيرة.

ولحق بها.

وأوقفها غاضباً:

– قفي! لقد قلت لك امشي إلى جانبي. أينقصني أن أفقد جريحاً آخر.... هل سمعت؟

ولم تجب.

الفصل الرابع

نقل مدفعان من البطارية وهما فصيلة الملازم أوفتشينيكوف، إلى المنطقة المحايدة على بعد مئتي متر من المرتفع، الموقع الذي احتلته فصيلة الملازم الثاني أليشين.

وكان رجال أطقم أوفتشينيكوف يحفرون الأرض الصلبة، ويتخندقون في صمت تام تقريباً. وكانت الأوامر تقال همساً، والرجال يتحركون.... كان الجنود يكتمون ضربات المعاول محاولين أن لا تحدث أرفاشهم أي قرقعة.

كانت نفحات الريح الباردة القادمة من البحيرة تحمل إليهم أصوات الألمان المضطربة في موقع المخافر الأمامية، ورنين أظراف الخراطيش الفارغة، وهم يسيرون عليها في خنادقهم، وجمد الرجال، وجثموا في مواقعهم، والأرفاش في أيديهم، محدقين من خلال الظلمة إلى الأحراش التي تلوح على الجانب الرصاصي من البحيرة. كانوا يتوقعون انطلاق صواريخ التنوير، ورشقات الرشاشة القريبة، وخُيّل إليهم أنهم سمعوا أحد رماة الرشاشات يدخل شريط الطلقات المعدني.

كان الملازم أوفتشينيكوف ما يزال منفعلاً من جرّاء نقل مدافعه الأعمى الأخير خلال حقل الألغام، وكان مستلقياً نصف استلقاء على السترة الأمامية الجديدة للموقع ويدخن في عجالة، واضعاً سيكارته في كم معطفه. وقد همس آمراً:

– تحرك، تحرك! يا لياغالوف، ماذا تفعل؟ تعانق الرفش؟ اعمل بهمّة فتى!

وكان يرى ظهور الجنود البيضاء اللامعة وقد تعروا إلى النصف. وكانت رائحة العرق النافذة تصل إلى أنفه قادمة من أجسام الجنود العاملين.

- بماذا تفكر، يا لياغالوف؟ هل تذكرت زوجتك؟ - سأل ذلك مرة أخرى محوّلاً مكانه على السترة الأمامية، محدقاً في الظلمة بعيني القطة البصيرتين. - بماذا تحلم؟ هل ضجرت من الحياة؟

كان جندي الترباس لياغالوف مسنّاً قميئاً، له وجه قبيح هياب غليظ الشفتين بطاقيته المدغوعة دائماً عرض رأسه، وكان واقفاً يتعانق رفشه ويداه قابضتان على نطاقه المثقل بجراب الخراطيش. وقد تمتم بصوت خجول تعب:

- استريح قليلاً، أيها الرفيق الملازم... استراحة قصيرة. لقد أصابني مغص من جراء الطعام الألماني المعلب. استرح قليلاً.

- يكذب، ليهلكه الشيطان! - قال المسدد بوروخونكو بلسان ساخر، وهو يقبل نحوه وجسمه النحيل العاري الخالي من الشعر يلمع في الظلمة. - إنه يتذكر فتاته البولونية الكونتيسة، محبوبته. فقد التقى بها في قلعة.... في طريقنا إلى هنا. توقفنا هناك لنشرب ماء. وماذا رأينا؟ كونتيسة لها يدان بيضاوان فيهما خواتم كثيرة... وقد ركعت على ركبتيها أمام لياغالوف وقالت: «أنا كيت وكيت، رأسمالية، وأنا أموت حباً بك. فاتخذني لك زوجة، يا سوفييتي الشهم. إن قلبي يذوب عليك....».

فطلب لياغالوف بصوت خجول بطيء وهو لا يزال يمسك نطاقه في يأس:

- كف عن ذلك. إنني أرتعش، أيها الرفيق الملازم.... اسمحوا

لي؟ – وكان ينقل ثقله من قدم إلى أخرى. ثم زحف إلى الخارج، مزيحاً التراب أثناء زحفه المرتبك، محدقاً في اضطراب باتجاه المخافر الألمانية.

فقال بوروخونكو في سخرية:

– حذار أن يقتلوك وسروالك مرفوع! – وبصق في كفه. ستبقى كونتيستك أيماً!

قال الرقيب سابريكين الركين البنيان في غضب وهو يلهث بقوة مما بذل من جهد في حفر التراب:

– لماذا لا تفك تلابيب الرجل؟ تسخر من صديقك من دون سبب. إن لسانك، يا بوروخونكو، لا ينفك عن الحديث، ولكن دماغك لا يفكر. – وأضاف في هدوء: – حقاً إن بطنه ليس بخير، أيها الرفيق الملازم. لقد أكل طعاماً معلباً أكثر مما ينبغي. وهذا يحدث.

فأجاب أوفتشينيكوف في هدوء طبع:

– إن الجندي السيئ دائماً يصاب بالإسهال قبل بدء المعركة. – وهرس سيكارته في التراب، وخلع معطفه: – إذا لم نتخندق قبل الفجر.... فسنهلك هنا جميعاً. أفهمتم ذلك؟

وحدق سابريكين في الظلمة وقال في تفكير:

– إن التشيك جيراننا على مقربة منا يتخندقون، وهم شبان طيبون. ومنذ عدة ساعات قد تحدثت إلى واحد منهم وقال لي إن الأنصار انتفضوا في تشيكوسلوفاكيا، وهم في انتظار قواتنا.

إن الزمن السعيد قادم نحونا، يا شباب. ولكن الآن سنسرع في الحفر، ولا تدخروا قطرة عرق.... فكل ذلك سيكافأ!

سأل بوروخونكو غير مصدق:

– ماذا؟ دعاية وتحريض يا سكرتير الخلية الحزبية، أم لرفع الروح المعنوية؟

أجاب سابريكين في طيبة قلب:

– أحرضك أنا؟.... أصرف جهدي عليك، يا ماسح المدفع؟ عندك عقل، فكر واسمع بانتباه ما ينبغي ولا تخطأ من دون دعاية وتحريض.

– كفى حديثاً! واسرعوا في حفركم! – أمر أوفتشينيكوف بصوت أجش.

وبعد أن خلع قميصه وضغط قدمه القوية غرس المجرفة في التربة الصلبة، وألقى التراب على السترة الأمامية بدفعة غير مسموعة. ولم يتكلم أحد. وأثار نزول الملازم نفسه إلى العمل شعوراً مضطرباً حاداً في نفوس الجنود. وحفروا جميعاً في صمت مجهد، فلا تسمع إلا أنفاسهم الثقيلة، وتصببت أجسامهم عرقاً لاذعاً.

ومرة أخطأ سابريكين حساب قوته الحقيقية الكامنة في جسمه الثقيل فضرب بمعوله صخرة تردد عنها صوت رنان. وفي نفس اللحظة سمعت من ناحية الألمان طلقات سريعة، وارتفعت في أثرها صواريخ حمراء، واشتعلت في السماء، وملأت حافة البحيرة وما حولها بنور كاشف وهاج.

ورأى الرجال في موقع إطلاق النار بعضهم بعضاً بوضوح محولين رؤوسهم إلى اتجاه واحد، وقد انعكس الوهج في عيونهم.

– انبطحوا! – أمر أوفتشينيكوف في همس مهتاج.

واندلعت دفقات من اللهب من شاطئ البحيرة، واجتاحت السترة

الأمامية دومات نارية، وارتفعت صعداً في السماء الآتي أضاءتها الصواريخ واختفت في ارتفاع النجوم.

وألقى الرجال أنفسهم على موقع إطلاق النار وأجسامهم العرقة ملتصقة بالأرض الباردة، والضوء المميت ممن آثار الرصاص كان يرغي فوقهم، وفي تلك اللحظة انهار لياغالوف على موقع الرمي ممسكاً ببنطلونه، وأنفاسه متقطعة، وفواقه مسموع، ورأسه جنب أوفتشينيكوف المستلقي على الأرض.

- هل مستك رصاصة؟ - سأل أوفتشينيكوف، - وسمع صوت لياغالوف المضغوط:

- فظيع!..... مثل المطر..... أظن.....

- آه..... إسهال عندك، - ضحك بوروخونكو. - تفكر في الكونتيسة. وبدأ الفواق من تأثرك العصبي....

وسقط صاروخ محترقاً بلهب وراء السترة الأمامية تماماً، مرسلاً الدخان، عامياً العيون. وأراد أوفتشينيكوف إطفاء نوره البراق بحفنة من التراب فقد كان يبدو أن السترة الأمامية لم تغطهم، وأنهم انبطحوا جميعاً على الأرض المسطحة من دون أي غطاء.

- وكأنهم سدوا علينا منافذ الحياة، - قال سابريكين في هدوء.

- لاحظونا أولئك الفاشيست! حددوا موقعنا بالضبط، - قال الملازم أوفتشينيكوف في أسى ولعن في دهشة: فقد خفت وميضات الصواريخ وفي نفس الوقت توقفت المدافع الرشاشة عن إطلاق النار وهنا نهض أوفتشينيكوف بسرعة وهمس:

- خذوا مجاريفكم واحفروا!! شدوا على قواكم!

وكان لياغالوف أول من استجاب. نهض في ارتباك، وكأنما قد اقترف ذنباً، واندفع يفتش عن مجرفته ماسكاً ببنطلونه، واصطدم بقائد المدفعِ سابريكين الذي كان ينهض من الأرض بهدوئه المعتاد فأوقفه قائلاً باتزان:

- على مهلك. لماذا ينبغي أن تضوضئ مثل تراكتور، لماذا؟ تريد أن تسير بسلسلتك على رأسي؟ - وتناول المعول.

فعلق بوروخونكو قائلاً:

- إنه لبطل في ذلك، محاسب كولخوزي، دائماً في المعمعة - مرة مع الإسهال وأخرى مع الكونتيسة، أو يرفس على رؤوسنا... وله اسم عائلته المناسب... رفاس[1]. ذهب إلى الأحراش لاكتشافنا.

فسأل لياغالوف في هدوء وارتباك:

- ولَم كل هذا، أحقاً إنني مذنب في ذلك؟ تجرح مشاعري..... ما الذي تجنيه من وراء ذلك؟

- تعجبني لباقتك.

- كفوا عن الحديث! - أمر أوفتشينيكوف في صوت خفيض وساد السكون موقع الرمي.

وبعد قليل رفع الملازم قامته وحدق في الظلمة.

- هناك شخص قادم نحونا، - واقترب من طرف موقع الرمي ونادى: - من القادم؟

---

(١) اسم عائلة «لياغالوف» مشتق من الفعل «لياغات» وبالروسية مفاده «رفس». المترجم.

وقال سابريكين بهمس:

– هناك شخصان، لعلهما تشكيان. وهما يسيران في حقل الألغام.... أوه، أيها السلاف.... لا.... إنهما، كما يبدو، قائد البطارية والممرضة.

ولعن أوفتشينيكوف في عبوس. إنه لم يخف ميله إلى الممرضة عن أحد من جنوده الذين يحترمون صراحته وبساطته في علاقاته، و لم يسيئوا به الظن لذلك. ومع ذلك فقد كانت تكدره رؤيته لها مع رجل آخر، بالرغم من معرفته تماماً بأن علاقتها مع نوفيكوف ليست طيبة بينما كسب هو نجاحاً في علاقته معها في تقصده أشياء ذات دلالة يحدوه في ذلك جوعه إلى حب امرأة.

اقتربت لينا ونوفيكوف، ولاحت هيئتاهما مغبشتين فوق السترة الأمامية إزاء ظلام الليل.

– لينوتشكا، هاتي يدك لئلا تقعي، – قال أوفتشينيكوف في حفاوة وهو يضع قدمه على السترة الأمامية. – أرجوك، يا لينا. شكراً على مجيئتك.

ومدت له يداً نحيلة منداة الكف. فضغط عليها عمداً بأصابعه الجاسئة القوية، وساعدها في الهبوط على موقع الرمي. وحين نزلت، شعر بثقل جسمها وحركتها الرشيقة السهلة في ذراعه، وتقطعت أنفاسه قليلاً لأنه أحس في مصافحتها المتكلة عليه دلالة أخرى مشجعة.

وسأل نوفيكوف:

– هل قمت بالاتصال التلفوني بلاديا؟

تناول أوفتشينيكوف معطفه ووضعه على كتفيه وأجاب مسرعاً:

- سيرتب حالاً.... أرجو أن تدخل إلى الخندق - الملجأ، أيها الرفيق الكابتن. وأنت أيضاً، يا لينا.... استمروا في عملكم.... خذ مجرفتي، يا لياغالوف.

ولم يدهش نوفيكوف عندما عرف بأن أوفتشينيكوف ساهم في حفر الموقع مع طاقمي المدفعين. فقد كان يعرف جيداً بان أوفتشينيكوف وهو ضابط أناني ليس في وسعه أن يجلس وينتظر. فقد كان دائماً أول من يتخندق، وأول من يبلغ بالاستعداد لإطلاق النار.

وحين هبطوا إلى الملجأ العميق الجديد الذي فاحت فيه رائحة الرطوبة الحريفة أنزلوا الستارة المشمعة أمام المدخل، وجلسوا على القش. نظر نوفيكوف إلى أوفتشينيكوف بانتباه على ضوء قداحة وقال:

- قبل الفجر يجب أن تتخندق عميقاً وتموه مواقعك بحيث لا ترى حتى على قيد خطوة.

- أعرف، - أجاب أوفتشينيكوف باقتضاب وأشعل سيكارته.

ولاذوا بالصمت هنيهة.

وسألت لينا غاضبة:

- قل لي: أحقاً أن قيادة الكتيبة في الماضي لم تعرف أن هناك حقل ألغام في هذا المكان؟ وحدقت في نار السيكارتين ورأت وراء توهجهما عيني أوفتشينيكوف تطيلان النظر إليها.

وقالت ساخرة وهي تخاطب أوفتشينيكوف وقد كدرتها نظرته الناعسة:

- أعطني سيكارة، هل غفوت، أيها الرفيق الملازم؟

هز أوفتشينيكوف رأسه. وأضاءت السيكارة أنفه الأقنى، وجزءاً من خده النحيل. وفجأة نطق بصوت ثقيل النبرة:

– هل علمك الكشافون التدخين؟ لن يناسبك التدخين. أنا شخصياً لا أحترم الفتيات المدخنات، ولكن العطور والطيوب لها شأن آخر وأنا أعدك بها بعد أن نخوض أول معركة.

ونظر إلى نوفيكوف الصامت نظرة جانبية غيورة، وقدم سيكارة إلى لينا، وأشعل عود ثقاب. فنظرت إليه بعينيها الضيقتين غير الراضيتين، ونفخت على عود الثقاب فأطفأته وقالت بصوت يشوبه التحدي:

– شكراً. عندي عطور فرنسية رائعة أهداها إلي الكشافون من قبل. والأحسن أن يحملوا بدلاً منها مزيداً من القش إلى ملجئك، وأذن لي، أيها الرفيق الملازم، بأن أعطي أمراً.

وسحبت الستارة وخرجت.

– ماذا بها؟ – غمغم أوفتشينيكوف غمغمة من عومل بسوء ثم أضاف بلهجة صريحة جداً ومتساهلة: – ماكرة! لو تزوجتها لحلت عليّ ملكة في فراشي. فتاة طيبة، أيها الكابتن!

وحين كان يتحدث بذلك كان يريد، في ما يبدو، أن يبين لنوفيكوف بأن علاقاته مع لينا قد تطورت إلى شأو بعيد وأنهما من التصافي إلى حد الإيعاز أو تقديم النصح إليها بلهجة آمرة. ومع ذلك فقد قال نوفيكوف ما لم يتوقعه أوفتشينيكوف:

تذكر أن مدفعيك سيتلقّيان أول الضربات، وأن الطريق العام يقع على مسؤوليتك. ولكن قطاع الرمي يجب أن يهيأ للرمي في جميع الاتجاهات.

أجاب أوفتشينيكوف في تجهم:

- أعرف.

- إن المهندسين لن يرفعوا حقول الألغام، بل على العكس، سيبثونها في المنخفض أمام مدفعيك. ستحيط بك الألغام من كل جانب؛ الألغام الألمانية وألغامنا. فإذا تقدّم الألمان نحوك حجزتهم حقول الألغام هذه. أواضح ذلك؟

- أعرف، - أجاب أوفتشينيكوف في عبوس، وهو يشعل سيكارة أخرى من عقب سيكارته.

وجلس برهة غارقاً في أفكاره، مقطب الجبين، يعبّ من سيكارته أنفاساً عميقة، ويطلق الدخان في صوت مسموع.

- إذن نحن في الفخ؟ - قال في ريبة وغضب وكأنّه أراد أن يعترض على كلامه فقط.

- أي فخ؟ - سأل نوفيكوف وهو يبتسم في سخرية.- إننا نقاتل في المنطقة المحايدة لا غير. أعط أمراً لجنود الإشارة عندك بأن يتصلوا بالمهندسين ليرسموا ممراً حتى المرتفع خلال حقل الألغام.

- أعرف، - قال أوفتشينيكوف مرة أخرى بنبرة حادة.

وقد قال هذا الجواب الجهم «أعرف» مدفوعاً بأنانيته الثقيلة، ولأن نوفيكوف كان أصغر منه سناً، وأفقر إلى تجارب الحياة كما يخيّل إليه، غير أن هذا الصبي نوفيكوف هو الذي قاد البطارية لا أوفتشينيكوف البالغ من العمر ستاً وعشرين سنة وذلك - كما يفسره هو - لمجرد سير الأمور على هذا النحو ولسوء في الطالع.

- ما هذه «أعرف»؟ - سأل نوفيكوف في لهجة وادعة. وقد

أشعرت هذه اللهجة أوفتشينيكوف مرة أخرى بتفوق نوفيكوف. – اعمل، ومدّ الخط التلفوني إلى المرتفع حالاً. أرجو لك التوفيق وأن أراك حياً!

ونهض نوفيكوف، وسحب الستارة المشمعة.

كانت ليلة انتشرت النجوم في سمائها، وسادها سكون غير طبيعي، وسرى فيها هواء جبلي منعش، فنفذت إلى المخبأ المملوء بالدخان جالبةً معها حفيف العشب المنذر. شعت نجمة كبيرة فوق السترة الأمامية بضوئها الأزرق المتألق.

– إنهم صامتون، ينتظرون، – قال نوفيكوف في هجس ثم سأل من دون أن يلتفت: – ألا يخامرك شعور بأن الحرب تلفظ أنفاسها الأخيرة؟ ففي هنغاريا وصلت الجبهة الأوكرانية الثانية إلى سيسا، وفي يوغسلافيا بلغت دبابتنا ضواحي بلغراد. إن نهاية الحرب قريبة....

ولم يتحرك أوفتشينيكوف وهو في أعماق المخبأ، ولم يخرج من هناك، بل ظل يعب أنفاساً عميقة من سيكارته، وقد أضاءت السيكارة شفتيه الرقيقتين. وأجاب باقتضاب:

– لا.

ولكن هذا الجواب كان كذباً. فقد كان أوفتشينيكوف يحسّ كالآخرين باقتراب الحرب من نهايتها. وكان يفكر أحياناً وذلك أفعم نفسه بشعور الارتباك والقلق الغامض، كأن يفكر أن هناك شيئاً ما قد تركه من دون أن يتمه. كان يعذبه التفكير بأنه لا ينجز في الحرب شيئاً رئيسياً كما فعل الآخرون.

وردد:

– لا، لا أظن.

وهنا أجاب نوفيكوف بلهجة شبه جادة:

– إذن فأنت أحمق! حسناً، أنا ذاهب.

وفي خندق المواصلات، الذي لم يتم حفره بعد، اصطدم نوفيكوف بالمسدد بوروخونكو. وكان هذا الجندي يحمل على ظهره حزمة من القش المربوطة في المشمع الخيمة وقد وضع بدلته المبطنة بالقطن على كتفيه العاريتين العرقتين. وسأل في تأوّه وهو يعدل وضع حمله:

– هل أنت الذي أمر، أيها الرفيق الكابتن، بذلك أم الممرضة من فوج الاستطلاع؟

وتظاهر نوفيكوف بأنه لم يفهم وجه التلميح.

– أنا الذي أمرت بذلك. لقد آن الوقت لأن نتعلم أن نعيش في الحرب براحة نسبية. – ثم أضاف وكأنه يمزح: – قريباً سننام على فرش نظيفة، إنني أعدك، يا بوروخونكو، بذلك.

وانسل بوروخونكو إلى المخبأ، ووضع عن ظهره حمله وفجأة نظر في الظلمة التي احتوت قائد البطارية نظرة فاهمة بل ووجيهة أيضاً. وكان يعرف جيداً أن هذا المرح الهادئ الغريب الذي يبديه نوفيكوف يعني أن معركة على الأبواب.

وكان صمت ما قبل الفجر تاماً، وكان الألمان صامتين.

وأخبروا أوفتشينيكوف قبل أن يطلّ الفجر بنصف ساعة بأن كل شيء قد تم: كانت مواقع إطلاق النار محفورة بعمق قامة رامٍ، ومد الخط التلفوني إلى المرتفع، واحتل الحراس أماكنهم.

أيقظ الرقيب سابريكين أوفتشينيكوف فتريّث الأخير لحظات

مستلقياً على القش في الخندق المخبأ، يلفه النعاس مثل نسيج العنكبوت. وحين نهض قاعداً أوجعته عضلات ظهره وسأل بصوت أذبله النعاس:

- والمدفع الثاني؟ هل أخبروا عن استعداده؟

- حتى الآن لا.

ودخل الجنود إلى الخندق المخبأ، وقد بدأ الإنهاك على وجوههم الشاحبة، مقلصين عيونهم اتقاء النور. وكان هناك صندوق للذخيرة ومسارج ألمانية تضيء لهباً بنفسجياً ساكناً في الجو الرطب الدافئ. وكانت هناك قِصاع فردية مدخنة وعلب لحوم محفوظة، وزجاجة كبيرة من النبيذ الأحمر.

وكان المخابر غوسيف يحني رأسه القصير الشعر، ويغرف من قصعة عصيدة الدخن الحارة بملعقته، ويضعها في فمه، نافخاً بقوة على كل ملعقة، محترقاً بها.

وقطع الرقيب سابريكين رغيفاً من الخبز الأسود ضاغطاً إياه على صدره، عاقفاً كوعه غير موزع قوته وهو يضغط على السكينة بشدة وبدا وكأنه سيجرح نفسه، وبمهارة ربة البيت رتّب قطع الخبز الكبيرة على صندوق الذخيرة، ونصح بهدوء:

- تفضل إلى العشاء، أيها الرفيق الملازم، ومع النبيذ أيضاً.

فقد أرسله الكابتن نوفيكوف..... - وأشار برأسه للجنود قائلاً:

- اجلسوا، أيها الرفاق.

قال أوفتشينيكوف وملأ من زجاجة النبيذ قدحاً كاملاً من الخمرة الدبقة وعبّ منها بظمأ السائل الكحولي القابض وتلوّى.

– أية خمرة قذرة هذه، يا للشيطان! أرسل مربى! غوسيف! اتصل بقائد المدفع الثاني الرقيب الأول لاديا.....

مسح غوسيف شفتيه بسرعة – فقد كانت هناك آثار عصيدة على شفتيه مثل الأطفال – والتقط سماعة التلفون، ونفخ فيها كما نفخ من قبل بملعقة الحساء، وتكلم بصوت خفيض:

– لاديا!... أعطني لاديا! هل أنتم نائمون؟ نحن لا نعرف ماذا تفعلون..... – وهزّ كتفيه في حيرة، ومد السماعة إلى أوفتشينيكوف.
– إنه يستمع إلى موسيقى، وقد ذهب عقله.

– ما هذه الموسيقى عندك، يا لاديا؟ – سأل أوفتشينيكوف بتكاسل، مستمعاً بالتلفون إلى صوت قائد المدفع الثاني المقرقع:

– ربما جنيت غنائم؟ كيف حال الأمور عندك؟ لماذا لم تبلغني عن استعدادك في حينه؟ إذا كان كل شيء على ما يرام يجب أن تخبرني. حسناً، سنصغي إلى الموسيقى، ولكن أية موسيقى هذه؟

ونهض، وزرر معطفه على قوامه القوي العضلي المنحني قليلاً، وسأل بلهجة آمرة:

– أين لينا؟ عند المدفع؟

و لم يتريث ليسمع الرد، وخرج من الخندق – الملجأ.

كانت ساعة من ساعات أواخر الليل الهادئة حين غيرت النجوم أماكنها في السماء المخضرة قليلاً، وكان الهواء فوق الأرض الصامتة شفافاً، وكانت رائحة الفجر الرطب اللاذع البرودة تنبثق من العشب الداكن على السترة الأمامية، ومن حيطان خنادق المواصلات، ومن المجارف الرطبة اللامعة في الحفيرة.

ومشى أوفتتشينيكوف بخطوات خفيفة نحو المدفع، وهو يرتجف قليلاً من الرطوبة. ومن هناك كانت تصدر أصوات خفيضة. وكان في وسعه أن يرى شبح الحارس القاتم، وهو جالس على مسند الحاضن. ومن وضعه الأخرق عرف أنه لياغالوف. كانت ياقة معطفه ملقاة على رقبته، وكانت رشيشة يلمع حديدها على ركبتيه. وكانت لينا جالسة إلى جانبه على صندوق للذخيرة، وعلى كتفيها المشمع الخيمة. وكان لياغالوف يقول وهو يزفر بصوت رقيق ناعس:

– الحرب ليست من شأن النساء، وإذا قتل رجل فهذا أمر مقبول على نحو ما، ولكن للمرأة آفاقاً أخرى. عندي ابنة كبرى اسمها إليزافيتا، واعذريني في ذلك وهي طالبة وتحب أن تتدلل.... والفتيان يجرون وراءها في كوبان زرافات، ولكن بحق حياتي هل المعقول أن أتصورها في ذهني جالسة هنا مثلك؟ لا، لم يتيسر لي ذلك قط.

إنني مستعد لأن أخوض مئتي معركة بدلاً منها.... وأنت من أين؟ أين تعلمت؟ هل كنت تلميذة في مدرسة؟

– أنا من لينينغراد. وقد تعلمت في معهد طبي، – أجابت لينا وضحكت ضحكة خافتة، وضحك لياغالوف معها منقاداً، وهو يلاطف رشيشته بيد الفلاح الكبيرة. وسأل:

– وكيف والدك؟

قالت لينا:

– أنا وحيدة وليس لي أم ولا أب. ومن الخير أن يحارب المرء مرة واحدة حرباً لا قائمة لها بعد. لقد كنت من قبل أتصوّر الفاشية عن طريق الصحف فقط. ثم رأيت كل شيء بنفسي لا....

ليس الرجال وحدهم يجب أن يقاتلوا الفاشيين، بل والنساء والأطفال. مرة واحدة وإلى الأبد، وبغير ذلك لا تستقيم الحياة.

وساد صمت.

جاء لياغالوف نحوهما بخطوات خفيفة.

صاح أوفتشينيكوف في حدة:

- اذهب واسترح يا لياغالوف. سأبقى هنا. عندي حديث ضروري معك، يا لينوتشكا.

وقرع لياغالوف الأرض برجليه في تردد، ونظر في اضطراب إلى شبح لينا الساكن القاتم، وهز لها رأسه في ارتباك، واختفى في الخندق، وتريث أوفتشينيكوف برهة ثم جلس على الصندوق، وكتفه تكاد تمس كتف لينا، وأخرج من جيبه علبة سكائر جلدية مغنومة، وقدمها إليها، وهو يبتسم في مداعبة:

- سندخن، يا لينوتشكا؟ ولكن تحت أكمامنا....

- لا أدخن، يا أوفتشينيكوف.

- بهذه الرسميات؟... كنت تمزحين معي إذن؟ يمكن القول إن هذا لطيف جداً، - قال ذلك بسماحته اللعوبة المعتادة. ومع ذلك قال بصوت عسر عليه أن يضبطه، وابتسم ابتسامة معوجة: - لعلك تتباهين أمام قائد البطارية؟

وبقيت غير منتبهة مقطبة حاجبيها بشكل لا يكاد يرى، وسألت وكأنها تصغي إلى شيء ما:

- ألا تسمع شيئاً؟ - ثم تحولت باتجاه البحيرة وقالت:

- اسمع. ماذا يحدث هناك، عند الألمان؟

و لم يفهم أوفتشينيكوف.

كانت حوافي البحيرة تلمع ظاهرة في العتمة رصاصية منخفضة.

وكان الضباب الخفيف ينتشر فوق الماء الخريفي الرمادي الذي لم يعكس النجوم العالية وكانت الأنجم التي انطلقت منها طلقات المدافع الرشاشة طوال الليل في الجانب الآخر من البحيرة ساكنة سكوناً مكتوماً. وكان الفجر الساكن قد تقارب بحذر من الأرض الباردة، ومن البحيرة.

وفجأة سمع أوفتشينيكوف في شيء من الارتعاب والشك، وكان ذلك خلال شق ضيق في الأرض، أصوات السكسوفون الناعمة الرنانة ودقات مقارع الطبول، وصوت امرأة حنون تغني عن شيء موجع مبهم.

وفجأة خامره شعور بأن راديو الألمان في الجانب الآخر من البحيرة قد التقط عن طريق المصادفة موسيقى آتية من كوكب آخر - موسيقى سمعها جنود مدفع الرقيب الأول لاديا أيضاً - وعلى الفور برقت في ذهنه فكرة هي أن الألمان لم يقضوا هذه الساعات الحرجة في النوم. وأرهف أذنيه وألقى سمعه في شكّ غامض.

جلس دقائق يستمع. كانت إلى يسار المدفع خلف المضيق في الجبال، طلقات المدافع الرشاشة البعيدة تشق الصمت ممزوجة برشقات الرشيشات الناعمة والمديدة ودوت عيارات نارية للدبابات دوياً قصيراً. هناك في الجانب الآخر، في منطقة رفني تجري معركة منذ أربعة أيام. ثم توقف إطلاق النار، وفي الحال صمت غرامفون الألمان وساد سكون هناك.

- ماذا بك، يا لينوتشكا؟ إنه وضع اعتيادي مألوف. ما أنت والهم؟ إنني أعدك بصورة جدية - سأحصل لك على عطر رائع - لقد رأيته كثيراً ولكن لم آخذه بل أخذت هذه اللعبة. حسنة؟ هل تريدين أن أهديها لك؟

وطرح طرف معطفه وأخرج من جيبه مسدساً صغيراً دافئاً من حرارة جسمه، ذا قبضة لامعة من الصدف لا يكاد يملأ كفه. وقال وهو يقلبه في يده:

- حملته محاربة ألمانية. وحتى لا يمكن، كما يبدو، أن تقتلي نفسك به، بل ولا تجرحيها ولكنه نوع من اللعب لا غير، وليس عندك سلاح.... خذيه.

- أو.... هذه..... دعني أراه.

وأنزلت عنها المشمع الخيمة المبللة قليلاً لتطلق يديها. وشعر أوفتشينيكوف وكأنها تخلع ملابسها أمامه. ورأى بوضوح كتفيها الضيقتين المنحوتتين، وجيدها النحيل إزاء سطح البحيرة اللامعة لمعاناً رصاصياً. وبلغت أنفه رائحة شعرها اللوزية حين أدارت رأسها، وشعر وكأن إشارة ضمنية على قرب جسدها القوي اللين منه.

وسمع صوتها:

- مسدس «فالتر» النسائي... خذه.... إنه لعبة حقاً. تسيطر عليه فكرة أرهقتها الغيرة، هي أنها تعرف جيداً ما لا تعرفه النساء الأخريات، وأنها باردة وصعبة المراس بسبب تذبذبه هو. وارتجف في نفاذ صبر. وهمس لها بصوت متقطع:

- إنك مثل مسمار في قلبي، يا لينوتشكا، لا يمكن إخراجه بالكماشة. إنني لن أتركك لأحد غيري.... لن أتركك!

وحضنها بقوة ومهارة رجولية، وانحدرت يده في ثقة ولطف من صدرها إلى فخذيها الدافئتين على نحو خفي، وحولها إليه بقوة، وضمها إلى صدره في مودة ضماً شديداً، وألقت رأسها إلى الخلف، محاولة أن تبعده عنها. وأخذ يقبل فمها البارد المقاوم في عطش وتهوّر، وأسنانه تقرع أسنانها المصكوكة.

- لينوتشكا.... لينوتشكا!

وانتزعت نفسها في مرونة، وقفزت، ولطمته على صدغه بكل قوتها، ثم ثنته بلطمة أخرى، ووجهها يتلوى. وقالت في موجدة وغيظ:

- أحمق، أبله، اغرب عن وجهي وإلا فعلت بك ما.....

وجلس مصعوقاً يفرك خده الذي خدرته اللطمة. ثم تبسم فجأة في استغراب، وأدار لها وجهه ذا الأنف الكبير الأقنى.

- اضربي مرة أخرى.... اضربي أقوى!

وخطت نحوه خطوة واحدة:

- نعم ، أضربك!

- أيها الرفيق الملازم، يطلبونك في التلفون، أسرع! - سمعا صوت لياغالوف الخائف. والتفت كلاهما في آن واحد. ورأيا شبح رأس لياغالوف المعتم فوق الخندق - الملجأ.

- من هناك؟ لياغالوف؟ هل أنت تتجسس؟ - سأل أوفتشينيكوف في موجدة - إني أسألك... هل أنت تتجسس علينا؟

فأجاب لياغالوف في وداعة وهو يكتم تثاؤباً:

Twitter: @ketab_n

- لا، أبداً. عاد إليّ وجع البطن فخرجت لقضاء الحاجة. إن قائد البطارية يدعوك..... وسأظل أنا هنا في مخفري.

وهدأ أوفتشينيكوف بسرعة عجيبة، ولم يبق إلا وميض الريبة الحاد في عينيه. وألقى نظرة جانبية إلى وجه لينا الشاحب، وعقف كتفيه وقال في ألم:

- في وسعك أن تذهبي وتضاجعي الكشافين. اذهبي.... نحن لا نليق حتى لمسح أحذيتهم. أريهم من أين تؤكل الكتف.

وسار نحو الخندق – الملجأ في خطى خفيفة متوجسّة، ودفع لياغالوف عن طريقه، ودخل في الخندق – الملجأ الخانق حيث يتعالى الشخير. وكان جندي التلفون غوسيف جالساً في الغبش الرمادي الناعس، محاولاً أن يجعل عينيه مفتوحتين، وأن يكف عن الانزلاق من الكرسي. وكان ظهره لا يفتأ يرتخي على الحائط.

واختطف أوفتشينيكوف سماعة التلفون الموضوعة على ركبتي جندي التلفون، وقال بصوت لم يزايله الانفعال بعد:

- رقم ٢ على التلفون.

وسأل صوت نوفيكوف:

- لماذا لم تبلغ عن الممرّ في حقل الألغام؟ هل اتصلت بالمهندسين؟ لماذا أنت صامت؟

- هل أنت قلق على حياتي؟ – قال أوفتشينيكوف ذلك بصوت أجش وقد أثاره صوت نوفيكوف الهادئ من دون مسوّغ (وفكر: يجلس في الفيلا ويحتسي الخمرة) ثم قال: – سأنفذ أمرك! ولن أهرب من هنا! فلا تقلق عليَّ بالذات!

قال نوفيكوف بهدوء ووضوح:

– إذا لم يحدد الممرّ فسأقدمك إلى محكمة عسكرية. إنني لا أقلق عليك بالذات.

– بحسب ما تريد، إلى محكمة عسكرية أو إلى الشيطان!....

وجلس أوفتشينيكوف زمناً طويلاً على تخت من الألواح الخشبية، مسحوب الوجه، طويل الأنف. وكان يبدو بشفتيه الرقيقتين المطبقتين بقوة، ويديه على ركبتيه، وكوعيه البارزين مثل طائر جارح منفوش الريش.

– ما الجدوى من بعثرة البارود، أيها الرفيق الملازم؟ أنا ذاهب إلى المهندسين، وسيكون كل شيء على ما يرام، فنمْ قليلاً، أيها الرفيق الملازم. ها أنا ذاهب على مهل....

وإذ ذاك فقط لاحظ أوفتشينيكوف الرقيب سابريكين. وكان ينحني على صندوق للذخيرة موضوع في زاوية. ويبتسم في صفاء نفس، منهمكاً بإلصاق صورته المنخلعة من بطاقة حزبية مدعوكة ومحكوكة بشدة. وكانت على وجهه الكبير الطيب مسحة من التأمّل البسيط، وكان الشيب في صدغيه يلوح فضياً في ضوء المسرجة الباهت.

– هذا عقاب!.... غفرانك! ألصق الصورة ثم تنخلع..... هل من الرطوبة أم من العرق؟ في أي جيب أضعها؟ عثرت على هذه الخرقة الحريرية من البارود الألماني. هل هي صالحة؟

وببرود لف بطاقة الحزب في قطعة الحرير ثم وضعها بحذر في جيب خاطه داخل قميصه العسكري. ثم نهض وقال في هدوء وكأنه يزن كلماته:

- أنا ذاهب، أيها الرفيق الملازم. واسترح أنت قليلاً.

الفصل الخامس

وصل الميجور غولكو قائد كتيبة المدفعية إلى مواقع الرمي لنوفيكوف نحو الساعة الرابعة صباحاً.

وبينما كان يفحص المواقع كان لا يفتأ يضرب عنق حذائه بسوطه القصير، وكانت شوكتا مهمازيه تجلجلان أثناء سيره.

وقف طويلاً على المرتفع، غارقاً في أفكاره، محدقاً في ما وراء البحيرة إلى اليسار من المنطقة المحايدة حيث، على بعد مئتي متر من مواقع الألمان، كانت تقع مدافع أوفتشينيكوف.

- موقع سيىء، المدافع مكشوفة وكأنها على راحة يد..... ولكن ليس هناك أحسن من هذا الموقع.... ثم التفت إلى نوفيكوف:

- ما رأيك؟

فقال نوفيكوف من غير مواربة ولا خجل:

- أرى أن الألمان قريبون منا جداً، وقد أمرت أن يجري الحديث همساً، وأنت أيها الرفيق الميجور، تطقطق بمهمازيك، وتتحدث بصوت عالٍ وكأنك في حفلة زفاف. لقد أحكمت المدافع الرشاشة رميها على مواقعنا.

حين يكون الميجور غولكو جالساً في الخندق - الملجأ بين ضباطه يكون في قميصه الداخلي، أما في مواقع البطاريات فيصل في العادة ببزته الميدانية المهندمة، حليق الوجه بعناية، مرتدياً حذاءه العالي

ومهمازيه، ونطاقه، وأربطته الجلدية المزيفة الجديدة مشدودة، ويتكلم بصوت عالٍ وبلهجة آمرة يتمسك بها المثقفون الذين ينخرطون في الجيش أثناء الحرب. إلا أن غولكو على أية حال لم يمتعض من ملاحظة نوفيكوف. وقال في تفكير وهو يضرب عنق حذائه بسوطه:

– أصدر أمرك إلى فصيلة أليشين لتستريح، حسناً كما يستريح البشر في تلك الفيلا المحترمة ما دام السكون مسيطراً.

إنهم يستحقون ذلك. فدعهم ينامون على فرش من ريش، وأغطية نظيفة قال نوفيكوف في هدوء:

– لقد أصدرت أمري بالفعل. فتفضل إلى الفيلا.

وكانت أمامهم مهلة صغيرة تقدر بساعات. ولا أحد يعرف كم هي بالضبط.

ولم يغمض للضباط جفن. لقد جلسوا في الطابق الثاني من الفيلا وأسدلوا الستائر على النوافذ وراحوا يحتسون الكونياك الفرنسي المعطر بكؤوس من بلور. ودخنوا كثيراً، وأكلوا قليلاً، ولم يسكروا.

كان الدخان يتدلّى في طبقات فوق مظلة مصباح الغاز الخضراء.

وكانت الغرفة دافئة. وكان الجنود المتعبون بعد عملهم الطويل في الليل ينامون على الأرائك الوثيرة، والسجاد المفروش في الأرض.

وكان جندي الإرسال كولوكولتشسيكوف التعب نائماً على كرسي وثير مستنداً إلى طاولة الصحف الصغيرة، وهو يحتضن تلفونه بلطف ويتلمّظ بشفتيه متلذذاً، ويتمتم: «وأنت اذهب إلى البئر.... إلى البئر».

وكان الملقم بوغاتنكوف الذي تبدل من مخفره عند المدافع، منذ

حينه، جالساً على السجادة في قميصه الداخلي، يخيط بعناية كلاباً في معطفه، وبين الحين والآخر يلقي نظرة رقيقة إلى كولولتتشسيكوف. وبوغاتنكوف رجل طويل القامة داكن الشعر متين البنيان، له صحة حسنة ووجه جميل أسمر. وكانت حركات أصابعه العمّالية الكبيرة واثقة، فتلوح عضلاته الفتية متوترة من تحت قميصه الداخلي.

وقال بوغاتنكوف متوجّهاً إلى نوفيكوف:

– أية أشياء تحصل، أيها الرفيق الكابتن. عندما كنت في المستشفى خلال شهرين كنت أحلم بقصف القنابل. أما هنا في مواقع الخطوط الأمامية فانا أحلم بالسهب عند الفجر وتلال الفحم ومصابيح عمال المناجم، وحين أستيقظ من نومي أظنّ أن صفارة المنجم هي التي أيقظتني.... أما كولوكولتشسيكوف فتعلقت به الآبار....

قال نوفيكوف:

– استلق ونم قليلاً ولا تضيّع أية دقيقة من وقتك.

وكان الميجور غولكو يقلّب كتاباً مصوراً سميكاً موضوعاً على طاولة إلى جانبه بأصابع نحيلة عصفرها النيكوتين، والسيكارة مدلاة من شفته، وعيناه متقلصتان من الدخان المتصاعد من سيكارته، وكان مقطباً في عدم رضى، ودمدم قائلاً:

– ذروة الوقاحة... الدم، الموت.... وبسمات عند القبور. الخراب – «روسيا المصوّرة» – هذا الكتاب وضع للضباط الألمان....

ثم صاح:

– بيتين! خذ هذه القذارة المطبوعة إلى المرحاض، إلى المرحاض! – ورمى الكتاب في حضن مرافقه الذي كان يغفو على كرسي وثير.

وجفل بيتين وفرك عينيه وقلب الكتاب أيضاً، ممرراً عليه أصابعه الكبيرة جداً، ولاحت على وجهه بسمة ساذجة عريضة.

وقال:

– إلى أين أذهب به أيها الرفيق الميجور؟ إنه مثل ورق الصنفرة.

ونخر غولكو من أنف مشعر في موجدة. وقال في تثاقل:

– يمكنني أن أقول إنني مهندس. وقد حملني عملي من موقع بناء إلى آخر. لهذا فأنا أعرف ما هي روسيا، وأعرف ما هي الفاشية بالضبط: العالم في خراب، والمشانق على الأشجار، وتحوّل المدن إلى رماد، ومخلوقات تمشي على الرجلين كالناس متعطشة إلى الدمار، ترافقها السادية كمثل أعلى لها..... لماذا تنظر هكذا يا نوفيكوف؟

– أردت أن أقول إنني سمعت بكل هذه الحقائق المتداولة.

قال غولكو في عبوس:

– آه لو عرف كل فرد في العالم هذه الحقائق المتداولة!

– أنا لا أحب، أيها الرفيق الميجور حين يتحدثون عن أشياء يعرفها الناس جميعاً، فإن التكرار المستمر لها يبلي معانيها. يجب أن تكون الكراهية صامتة.

– أتظن ذلك؟ إنه شيء طريف. – تمتم غولكو ذلك وألقى ببصره على نوفيكوف، وبعد ذلك تحول إلى أليشين وسأل:

– وأنت أيها الغلام الثاني.... ما هو رأيك؟

وأبعد نوفيكوف قدحه وتناول سيكارة، وأغلق علبة السكائر في قرقعة وقال:

- إنه ضابط مرؤوس لي مباشرة.... فهو إذن يتفق معي في ذلك.

وجلس اليشين متمسكاً بظهره الحر وراح يسمع. وقد جلبت كلمات نوفيكوف حمرة الخجل إلى وجهه. وفجأة انفجر يضحك ضحك الصبا الطبيعي المراح وهو الشيء الذي يدهش نوفيكوف في لينا.

وقال نوفيكوف في تفكير:

- روسيا.... إنني لم أرَ ولم أفهم ما هي روسيا إلا في زمن الحرب. روسيا! أنت تعرف، يا فيتيا، ما هي روسيا؟

ونظر أليشين في وداد إلى وجه نوفيكوف ذي الحز قرب الحاجب الأيسر، لأن الكابتن دعاه باسمه الأول»: «فيتيا»، وهنا نظر غولكو بتوقع فضولي في عيني نوفيكوف الرماديتين الحزينتين، في عيني أصغر كابتن في الفوج: المزيج من الصبا والنضوج وسأل:

- ماذا بعد؟. دعنا نعرف رأيك.

ولم يجب نوفيكوف.

- إن روسيا بعيدة المنال.... بعيدة وراء بولونيا.... أوه!.... كم كيلومتر! - قال ذلك بوغاتنكوف وهو يرفع ياقة معطفه على رأسه.

ونهض نوفيكوف ودفع غمد مسدسه بحركة معتادة، واقترب من التلفون، وكان كولوكولتشسيكوف ما يزال حاضناً التلفون بلطفه السابق حاكاً خده بالسماعة. وقد ازرقّت أهدابه من التعب فكانت تخفق وهو ماضٍ في تمتمته: «وأنت اذهب إلى البئر... إلى البئر. الماء بارد».

– هذه هي روسيا! – قال نوفيكوف ذلك في هدوء وجد.

وخلّص التلفون في حذر من تحت خد جندي الإشارة الدافئ.

وطلب مدفعي أوفتشينيكوف بالتلفون. وبينما كان ينتظر مجيء الملازم إلى التلفون نظر في تفكير إلى كولوكولتشسيكوف الذي استمر في تمتمته الناعسة مسنداً خده إلى راحة يده إسناداً مريحاً.

وتحدث نوفيكوف إلى أوفتشيكوف بصوت خفيض عن حقل الألغام، ثم ختم حديثه في قوة:

– إذا لم يرسم الممرّ قدمتك إلى محكمة عسكرية، – ووضع سماعة التلفون.

وضرب غولكو على كومة المجلات الألمانية الموجودة على الطاولة إلى جانبه وقال:

– اسمع يا نوفيكوف. كم لك من العمر؟ من كنت قبل الحرب؟ تلميذ مدرسة أم طالباً؟

– وماذا يهم ذلك؟ – أجاب نوفيكوف بذلك. – إذا كان هذا طريفاً لك فانظر في ملفتي الخاصة في مقر الكتيبة.

قال غولكو وهو ينظر إلى الجنود النيام:

– أوه، لقد حان موعدي، – ونهض: – يا بيتين! قدم الحصانين!

وطقطق بمهمازيه، ورفع عنقي حذائه الضيقين عليه في الظاهر، وقال من دون أن يرفع عينيه الحزينتين الحنونتين عن الساعة اليدوية:

– ستظل بطاريتك على طرف الجناح مهما كان وضعك، أيها الكابتن نوفيكوف، فلا تتوقع معركة سهلة.

– لا أتوقع ذلك أيها الرفيق الميجور، أجاب نوفيكوف وصمت. والظاهر أن غولكو كان يعرف ما لا يعرفه هو.

ونصح غولكو في لهجة جادة:

– وأرجو منك أن تقلّل من شرب هذه الغنيمة التافهة، – ثم تناول ذراع نوفيكوف بمودة غير متوقعة، ومشى معه إلى الباب، وتوقف ونظر في وجه نوفيكوف وهمس في دراية لكي لا يسمعه أليشين: – في الحقيقة إنك ما زلت فتياً بالرغم من أنك تعلمت الشيء الكثير، وحياتك كلها أمامك، وما دمت في ريعان صباك فأسرع في إثبات الطيبة فإن الشبان حساسون إزاء الطيبة بوجه خاص. اعذرني عن هذه الفلسفة. إن الحرب ستنتهي.

وكل شيء موجود أمامك. إذا بقيت على قيد الحياة طبعاً. نعم إذا بقيت....

وضغط على ذراع نوفيكوف وخرج وأحنى ظهره النحيل على عادته عند الباب، وكأنما هو خارج من خندق واطئ، وقرقع مهمازاه على السلم قرقعة متباهية غير لازمة. ثم تلاشت القرقعة.

حشر نوفيكوف يديه في جبينه وراح يذرع الغرفة في اضطراب وانزعاج: إن أحداً من قبل لم يذكره بشبابه الذي يخفيه وكأنه ضعفه، ويخجل منه هنا في الحرب. إن بعض الناس الذين يخدمون تحت إمرته يكبرونه في العمر مرتين، ولكن له حقوقاً لا تنازع، حقوق الرجل المجرب المسؤول عن حياتهم. وقد تعود على ذلك منذ زمن طويل.

– ما هذا؟ – سأل نوفيكوف وقد رأى على الأرض تحت قدميه حقائب ظهرية غريبة: – من أين جاءت هذه الأسمال؟

فأجاب أليشين:

– تركها ضابط التموين.... من الكتيبة الطبية.... ذو الوجه المستدير.

– أها – قال نوفيكوف في غموض وأضاف بصوت هامس:
– ماذا؟.... حتى في الحرب هناك طيبة. طيبون وأشرار.... ألم تدرس الفلسفة يا فيتيا؟

كان الملازم الثاني أليشين يحني صدره على الطاولة، وينظر إلى الصور الملونة في مجلات ألمانية مصورة بفضول الصبيان، يفكر في شيء ما وقد سقط ضوء المصباح الرقيق الأخضر على جبينه الناصع، وعلى حاجبيه المسبلين، وعلى عينيه الزرقاوين زرقة صيفية حتى بدتا شفافتين في صبا واندفاع.

وقال أليشين بمرح وإعجاب أيضاً:

– أنت سعيد الحظ أيها الرفيق الكابتن.... سعيد الحظ بشكل شيطاني!

واستلقى نوفيكوف على الأريكة من دون أن يخلع حذاءه، وسحب معطفه عليه. وقال:

– هذا ما يظهر يا فيتيا. لا تطفئ النور. لماذا أنا سعيد الحظ؟

ونهض أليشين من الكرسي فدفعه إلى الوراء. وتمدّد بتلذّذ، ثم، وكأنه يرمي نفسه في ماء، ألقى بجسمه على أريكة أخرى بعنف، قرقعت بسببه لوالب الأريكة المتوترة. وأخذ يفك أزرار قيمصه العسكري، ويخلع حذاءه في آن واحد، واضعاً أطراف أصابع إحدى قدميه على مؤخرة الكعب الأخرى.

ثم لكم مخدة سميكة لها غطاء نظيف وقال بنبرة تفكير في صوته:

- أقول بصورة جدية، أيها الرفيق الكابتن، أنت سعيد وذو حظ. فستعود من الحرب، وقد حصلت على رتبة وكثير من النياشين. وسيرسلونك إلى الأكاديمية العسكرية.... أما أنا.... فإلى الشيطان!
- وزفر زفرة، وأسند نفسه إلى كوعه، وحط ذقنه على راحة يده كما يفعل الأطفال، وكانت رقبته بيضاء مستديرة فتية، وعلى جبينه خصلة شعر سقطت بصورة ساذجة، ومضى يقول: - أما أنا فالشيطان وحده يعرف، أيها الرفيق الكابتن. أقول ذلك غير هازل. لقد حصلت على نيشان النجم الأحمر. أما ميدالية «»البسالة» فلن أحصل عليها. - ثم قال في ثقة تامة: - ولكن هذه الميدالية هي أثمن النياشين عندي، ميدالية الجنود «البسالة» - حقاً! لا تضحك!

- ستحصل عليها. فليس ذلك أمراً معقداً على هذا النحو، - أجاب نوفيكوف ثم سأل: هل ينتظرك أحد... أم أو أخت أو خطيبة؟

- ماما وفيكا... اسمها فيكتوريا، - أجاب أليشين بعد تريث. وكان نوفيكوف يتصور بوضوح أنه قد احمرّ خفراً وظهرت على وجهه بقع سمراء.

- حسناً جداً،- قال ذلك ثم سأل بعد صمت: - هل تحنّ إلى روسيا، يا فيتيا؟

وكم كانت روسيا بعيدة عنهم، هناك خلف سهول بولونيا المضببة، وكأنما غلّفها الحنين العارم، الحنين الذي لا يزايلهم قط.

الفصل السادس

- أيها الرفيق الكابتن! أيها الرفيق الكابتن!

فتح نوفيكوف عينيه، ورمى عنه معطفه بحركة حادة، وسمع، والنعاس ما زال عالقاً في أجفانه، رنين الزجاج وهو يتهشم، وصفير القنابل الذي تلاشى ثم اشتدّ من جديد، القنابل المارة فوق السقف، وأنهضته في لمح البصر قرقعة وهدير الانفجارات وراء الحيطان، وترنّح الأرض غير المنتظم، ورؤيته في الضوء الخافت وجه ريميشكوف الشاحب الخائف ذا العينين المتوسعتين ينحني نحوه.

- ماذا؟

- أيها الرفيق الكابتن،... أيها الرفيق الكابتن!...

- ماذا؟

- أيها الرفيق الكابتن... إلى المدفع! - قال ريميشكوف متقطع الأنفاس، وبلع ريقه في ارتعاش. - لقد بـدأت.... لا يمكن رؤية العا لم!....

- ماذا لا يمكن؟ - قال نوفيكوف وهو يتناول حزامه وغمد مسدسه من الكرسي في انفعال: - إذا لا يمكن رؤية هذا العا لم، فربما يمكن رؤية ذلك العا لم. أين أليشين؟ لماذا لم توقظوني في الحال؟

- قال الملازم الثاني إنه سيتبين كل شيء بنفسه، من دون أن نوقظك.... الجميع عند المدافع....

فلعن نوفيكوف قائلاً:

- يا للصبيانيات!.... يأخذون القيادة!

وكف عن الإصغاء إلى ريميشكوف، وإذ كان يشد نطاق معطفه، ويضع حامل محفظته على كتفه كانت عيناه ناعستين تطوفان في الغرفة الفارغة بأغطيتها المبعثرة. ومن خلال فرجات الستائر كانت تلوح خيوط الفجر الوردية الداكنة. وعلى الطاولة وسط علب المحفوظات والزجاجات الفارغة التي ترتج عند كل انفجار كان المصباح يشع الضوء المتذبذب الخفيف ويرسل دخاناً. وكانت أوراق اللعب قد تبعثرت على السجادة بعد أن انزلقت على غطاء الطاولة نتيجة الاهتزاز. ولم يكن هناك في الغرفة غير كولوكولتشسيكوف في زاوية مظلمة. وقد التقت عيناه بعيني نوفيكوف وقال بصوت خافت:

- لقد دعاك أليشين إلى المدافع! وأنا.... إلى أين؟

- إلى هناك.... إلى المدافع!

وارتدى نوفيكوف عمرته وهو يسير نحو الباب، ثم ركل الباب بقدمه، وهبط السلم مسرعاً، إلى الطابق الأول. كان الطابق طافحاً بنور الفجر البارد. وكان الزجاج المهشم الباقي في إطارات النوافذ مضاءً بلون كهرماني. وكانت الريح الصباحية تهبّ على الطابق، وتصفق الأبواب وتحرك الستائر. تعثر سائقان كهلان بوجهيهما الناعستين من سواق الفصيلة الإدارية كانا يبحثان في حيرة عن شيء ما. وحين وقع بصرهما على نوفيكوف راوحا واستدارا نحوه، وتجمدا، وحياه تحية غير عسكرية ملقين يديهما على طاقتيهما.

- لَم هذا الجـولان؟.... سأل نوفيكوف: - كل شخص في مكانه! - وهرول خارجاً عبر المستشرف والزجاج المقرقع إلى المنتزه المندي.

وتحت أشجار الزيزفون العارية الأوراق وقعت عربات الفصيلة الإدارية وعلى سقوفها مشمع للوقاية.

ولمع الندى في ثنايا المشمع واصفرت كومات الأوراق التي ألقتها على العربات الموجة الصادمة. وفوق ممرّ الأشجار وعلى سطح البركة الأرجواني الصقيل يرتفع دخان بنفسجي لم يتبدد في الهواء الرطب.

ومشى نوفيكوف مسرعاً بل ركض عبر الممرّ الرئيسي إلى البوابة. وكان ينظر خلال الأغصان إلى آثار مقذوفات الدبابات الثاقبة تطير فوق المرتفع، وقنابل الهاون الكثيرة تنفجر على المنحدر.

ومن يساره بالاتجاه الذي تقع فيه البلدة كان يبلغه دوي انفجارات القنابل الثقيلة البعيدة المدى، وضوضاء عارمة تتقدم نحوه منضمة إلى القرقعة الحادة للدبابات على يمينه.

وفكر نوفيكوف – نعم، هذه هي البداية.... وكان عليها أن تبدأ.

وتبع ذلك شعور مربك بأن المعركة قد بدأت مبكرة جداً قبل أن تسنح له وقت ليكمل عملاً ما، وليزن بعض الأمور في ذهنه، ولكنه لم يكن في ميسوره أن يتذكر ما هو بالذات.

وحين كان يرتقي المنحدر، والفجر ينصب من خلفه على العشب المحمر، نبح رشق الرشاشة المنير آتياً من اليمين بمحاذاة الصدر. ونظر في دهشة، ورأى أجسام ثلاث دبابات داكنة إزاء جذوع أشجار الصنوبر المحمرة، على البعد إلى يمين المضيق الجبلي، وكأنما تحترق في الدخان الذهبي.

وهجس: «ما هذه؟.... هل عبرت المضيق فعلاً؟».

ألقى ريميشكوف نفسه وزحف متلمساً، ووجهه يكاد يمسّ

الأرض، وحقيبته كالسنام تترنح على ظهره. وفجأة أحس نوفيكوف بالغضب، لأنه ما يزال يحمل حقيبته المكتظة:

– ها أنت تقبل الأرض مرة أخرى. هيه؟ وتحمل هذه الحقيبة الحمقاء؟

وقفز ريميشكوف ناهضاً، وغمغم بشيء، وتسلق العشب الرطب منزلقاً عليه، مندفعاً نحو نوفيكوف إلى قمة المرتفع. وفي هذه الأرض المكشوفة شعر بأن جسمه كبير جداً و لم يتملك شعوره إلا حين وصل إلى موقع الرمي، وجلس على الأرض مباشرة.

وكان يتبين وجوه الناس، وأجسام مساند حواضن المدافع، وصناديق الذخيرة المفتوحة ووجه نوفيكوف، وكان كل ذلك مكفناً في غشاوة.

– وإذا كنت مرة أخرى ترعاني رعاية حمقاء فلن أغفر لك ذلك، – سمع ريميشكوف صوت نوفيكوف العالي، ورأى إلى جانبه وجه الملازم الثاني أليشين يحمر في ارتباك وشعور بالذنب.

وهتف أحد:

– أيها الرفيق الكابتن! إن أوفتشينيكوف على التلفون ينتظر الأوامر!

فأمر نوفيكوف:

– حول الجواب إلى المدافع: تهيؤوا ولكن لا تفتحوا النار! – وانحنى قليلاً داخلاً إلى خندق المواصلات ثم قفز إلى خندق نقطة المراقبة.

كان جميع من في الخندق من الكشافين وأفراد الإشارة –

ووجوههم مترهلة من أثر السهاد – يقرفصون حول كيس ورقي ألماني سميك مليء بالبسكويت يمضغونه ناعسين ويضحكون من شيء ما. وحين رأوا نوفيكوف استعجلوا ونفضوا فتات البسكويت على معاطفهم، وقال أحدهم:

– كف عن التحامق يا بوغاتنكوف!

وكان ملقم المدفع الأول بوغاتنكوف جالساً مطوي الساقين على السترة الأمامية، وظهره إلى نوفيكوف، يقضم بسكويته. وتكلم بصوت مرح واثق من دون أن يلتفت:

– يا غورباتشوف..... إنني لن أحمل لهم رصاصة واحدة في جسدي. أنا عامل منجم، والأرض تحميني. وأنت صياد سمك والماء لك.... لقد كنت في مواقع الخطوط الأمامية طوال الحرب، ولن أموت وقد شارفت الحرب على نهايتها. فهمت؟

– انزل من هناك.... لقد جاء الكابتن. ألا تسمع يا عامل المنجم؟

كان المساعد غورباتشوف قائد جماعة الاستطلاع يعبث بسكين طويلة جميلة كالخنجر ويقلّبها على راحة يده. وكانت عيناه السوداوان الذهبيتان تلمعان. وقد ابتسم لنوفيكوف في ترحاب، وكأنه ابتسم برموشه الكثيفة وحدها ولكز بوغاتنكوف بكوعه.

وقال وهو يضحك في خفوت:

– انزل! انظروا ماذا يفعل الفاشيست.... إنهم يحضرون شيئاً خطراً. لم يسمحوا لنا بتناول الطعام وهذا يعني أنهم في عجالة من أمرهم. ثم إن المشاة التشيكوسلوفاكيين قد وصلوا، أيها الرفيق الكابتن، وهم يتخندقون أمامنا.... أرأيتم؟

كان شاباً لدناً قميصه العسكري محلول عند عنقه وكان واقفاً أمام صندوق ذخيرة فارغ تظهر على ألواحه طعنات عميقة من سكينه - ربما أراد أن يظهر مهارته كصياد سمك: فكان يطعن الخشب طعنات سريعة ما بين أصابع كفه المبسوطة عليه.

سأل نوفيكوف في حدة:

- ما هذا؟ سيرك؟ - وكان يعرف جيداً طبع غورباتشوف المتباهي. - ماذا بك، يا بوغاتنكوف؟ تجرّب حظك؟.... انزل!.... لو رأيت أي عبث مرة أخرى لاعتقلكما كليكما!

والتفت بوغاتنكوف ولاح وجهه جميلاً، لوزي العينين، أسمر، ناعم البشرة. وإذ رأى نوفيكوف سعل بارتباك، ونزل مسرعاً إلى الخندق، وعدّل قميصه العسكري الذي كان مشدوداً على صدره القوي، وتمتم قائلاً:

- هنا، أيها الرفيق الكابتن.... كلام كثير يرسل على عواهنه.... هل تأذن لي بالذهاب إلى المدفع، أيها الرفيق الكابتن؟

- اذهب!

وضع المساعد غورباتشوف سكينه في غمدها على حزامه ومشى في تثاقل نحو رشاشتين خفيفتين موضوعتين على السترة الأمامية وضرب براحة يده على مخازنهما الدائرية بقرقعة وقال بصوت متراخ:

إيه أيها الرفيق الكابتن، كيف نسي أوفتشينيكوف رشاشته هنا؟... ينبغي أن ننقلها إليه.

اذهبوا إلى أماكنكم! - قال نوفيكوف آمراً.

لم تكن - لما رأى نوفيكوف من خلال النظارة المزدوجة - أية

دلالة يسترشد بها بادئ الأمر. كانت قذائف مدافع الدبابات تنفجر على طول شاطئ البحيرة وفي الحقل أمامه، وإلى يسار المرتفع. وكانت آثار القذائف النارية تتقاطع في الهواء فوق الحقل وكانت هناك كركبة متواصلة ترسلها طلقات المدافع الرشاشة.

ثم أطلقت مدافع الألمان المضادة للدبابات نيرانها برنين.

ورآها نوفيكوف بين الأدغال، على الجانب القصي من البحيرة، وعلى بعد مئتي متر من مواقع الرمي لأوفتشينيكوف. وكانت نيرانها موجهة إلى يمين المرتفع، حيث تخندقت للدفاع دباباتنا الثقيلة التابعة للفيلق الخامس – جيران الجناح الأيمن التي تحدث عنها غولكو. وبدا غريباً لنوفيكوف في الثواني الأولى: إن دباباتنا لم ترد على نيران المدافع المضادة للدبابات بالمثل، فقد كانت آثار قذائفها الخارقة للدروع تطير باتجاه غابة الصنوبر في المكان الذي أطلقت قبل حين الدبابات الثلاث الألمانية نيرانها على نوفيكوف، وأدرك كل شيء بوضوح. هناك على يسار الغابة حيث كان مضيق مضبب معتم، وكأنه يشق الجبال شقاً وعبر الطريق العام يجري سيل قاتم منظم من الدبابات واللوريات الطويلة الفطساء، وسيارات الركوب التي تعكس زجاجاتها لوناً بنفسجياً شاحباً، والمدرعات الحاملة للجنود، والأفراد. وكان هذا السيل ينشطر ببطء إلى طابورين كحدّي المقص: واحد يتجه إلى الغابة، حيث اختفت الدبابات المتقدمة الثلاث، وآخر إلى اليسار، إلى طرف البحيرة الشمالي حيث تقع مدافع أوفتشينيكوف، على مسافة ثلاثمئة متر من الجسر المحطم في حقل الألغام.

ولم يندهش نوفيكوف حين رأى الطابور الأيسر يندفع خارج المضيق ويسير على الطريق العام مثل موجة لا تغلب مضغوطاً ومحتمياً بجدار مدرع من الدبابات التي كانت تشق طريقاً إلى البحيرة: فإن

خطتهم كانت مفهومة؛ إنشاء المعبر والتسلل إلى تشيكوسلوفاكيا. ولكن الذي أدهشه هو أن الطابور الأيمن ينحدر من المضيق عبر الوادي إلى الغابة باتجاه الضاحية الشرقية للبلدة التي كانت دباباتنا والمدفعية المضادة للدبابات قد احتلت مداخلها.

وانفصل نوفيكوف عن النظارة المزدوجة لحظة. كان الدخان يغطي الضاحية الغربية لكاستو كلها أيضاً، ولا يرى منها شيئاً غير برج الكنيسة الذي أنار لوناً أرجوانياً في الضباب الرمادي.

ومن هناك كان يأتي بدفعات هدير قصف المدافع المستمر - إن الألمان يهاجمون هناك أيضاً.

وأدرك نوفيكوف: إن الألمان يحاولون مرة أخرى الاستيلاء على البلدة من الغرب ليسهلوا لمجموعة القوات المحاصرة في رفني شقّ ثغرة إلى حدود تشيكوسلوفاكيا من الشمال.

وفكر نوفيكوف: «أوه! ذلك ما ينوونه»!» وشعر بارتياح لذيذ لأنه فهم الموقف وأمر:

- انتبه! أريد أوفتشينيكوف على التلفون!

وأزت قذيفة شديدة الانفجار بعيدة المدى أزيزاً حاداً، وكأنها تفجرت فوق المرتفع مباشرة، وسقطت الشظايا أمام الخندق من السحاب الممزق الذي نشأ فوق المدفع.

وكان المساعد غورباتشوف يتابع حركة الطابور الأيسر المحاط بالدبابات، فتبسّم فجأة من جديد وكأنه ابتسم برموشه المرتعشة وحدها.

- أقبلوا على العمل! - وأزاح بقدمه كيس البسكويت إلى

الكوة، ونظر إلى نوفيكوف في ترقب مرهف. وانحنى جندي الإرسال كولوكولتشسيكوف وصاح في تلفونه طالباً مدفعي أوفتشينيكوف في صوت أجش وسريع، من دون أن يحصل على جواب.

- ماذا؟ - صاح نوفيكوف في نفاذ صبر. - أطلب الاتصال!

وحدّق بموقع أوفتشينيكوف ذي الحوافي القائمة، وبالدغل القريب من الموقع، وإلى الانفجارات الكثيفة في الشجيرات.

وهرول شبح رجل من الدغل متلوياً في جريه ساقطاً زاحفاً، ثم ناهضاً، ومندفعاً إلى هنا، نحو المرتفع. وهبط الطابور المضيق إلى الطريق العام في سيل كثيف متجهاً إلى مدفعي أوفتشينيكوف من دون أن يكبح. ثم أطلقت الدبابات الأولى، المشعة نوراً أحمر خافتاً، النار من رشاشاتها على هذا الشبح المنفرد، وتساقطت آثار الرصاصات حوله على شكل مروحة.

- ماذا؟ - كرر نوفيكوف والتفت نحو جندي الإرسال بحدة.
- ماذا هناك يا كولوكولتشيكوف؟ أسرع!

ورفع الجندي عينين يائستين لا حول لهما وهمس:

- إنهم لا يجيبون! لقد انقطع الخط... قطعوه هم بالقصف، سأذهب الآن.... سأذهب لتصليح الخط.... - وخفض رأسه. وبدأ ينهض في الخندق ببطء، وهو ينفض التراب بهمة، ولسبب ما، من أكمام معطفه.

- اترك نظافتك الآن! - أوقفه نوفيكوف غاضباً وأشار إلى الحقل: - هناك يسيرون بمحاذاة الخط التلفوني من أوفتشينيكوف.... أترى؟.... هيا تحرك. استقبالاً على الخط!

- اسمح لي، أيها الرفيق الكابتن! إنني أرى مثلما أرى على راحة يدي. وسآخذ رشاشة معي، - قال غورباتشوف وهو يهز كتفيه ويقترب من نوفيكوف وينظر في هدوء إلى وجهه بعينين مضطرمتين متلألئتين غير معترضتين في الظاهر:

- قف إلى جانب التلفون، أيها الشاب! - ودفعه إلى جانب:

- إلى أين هو ذاهب في حقل الألغام؟.... إنني أعرف هذه الناحية مثلما أعرف راحة يدي.

- خذ معك ريميشكوف، - أمر نوفيكوف ثم كرر: - خذه.

تراخى كولوكولتشيكوف، وكأنما خذلته قدماه وجلس في قعر الخندق قرب آلة التلفون، وأخذ ينفخ في السماعة في جهد غير ضروري وأنفاسه متقطعة. وكان واضحاً أنه، في ثانية واحدة، تابع في ذهنه رحلته من المرتفع إلى مدفعي أوفتشينيكوف.

وقدّر نوفيكوف المسافة بين مدفعي أوفتشينيكوف وكتلة الطابور الزاحفة، وعرف أنه قد حان الوقت لأن يطلق مدفعا أوفتشينيكوف النيران. نعم، حان الوقت.... وفكر: حين تبدأ دبابات الألمان الأمامية هذه تبادل النيران مع مدفعي أوفتشينيكوف، وتدخل في حقل الألغام سيأمر فصيلة أليشين الثانية بأن تفتح النار من المرتفع على جناح الدبابات.

ولم يسمع دمدمة ريميشكوف المبهمة من ورائه وقد دعاه غورباتشوف من موقع النار، ولم ير إلا قفز غورباتشوف من الخندق متثنياً وحاملاً رشاشته، وخلفه ريميشكوف يزحف على بطنه. وضرب السترة الأمامية بخفيه، وأجال بصره فاغر الفم، واختفى متدحرجاً إلى الأسفل على حافة المرتفع. وطوف نوفيكوف بعينيه باحثاً عن

الرجل الذي هرول من موقع أوفتشينيكوف - كان جسمه الصغير منبطحاً على الحقل حاشراً رأسه في الأرض، رافساً بقدميه، وكأنه يسبح. وكانت رشقات من الرصاصات تثير حوله غباراً عند ارتطامها بالأرض.

«هيا... أوفتشينيكوف! أطلق النار! أطلق النار!.... ما الذي يؤخرك هيا.... حان الوقت!» - أراد نوفيكوف أن يصرخ. و لم يكن يفهم لم يذخرون إطلاق النار. إنه الحد الفاصل بين الموت والحياة.

وفي تلك الدقيقة تقريباً اندلع لهب ممزق من الأرض، في المكان الذي يتخذه أوفتشينيكوف موقعاً لإطلاق النار. وبرقت نقاط آثار القذائف الزرقاء، وانغرزت في كتلة الطابور السوداء، وكأن وميضات مغنيزيوم قصيرة لمعت هناك.

وفي الوقت ذاته تدفق وابل من الطلقات من يمين مدفعي أوفتشينيكوف - لقد أطلقت البطاريات المضادة للدبابات والدبابات المحفورة في الأرض.

- لقد بدأ! - صرخ في الخندق رجل خلف نوفيكوف: - لقد بدأ! شرع أوفتشينيكوف بإطلاق النار، أيها الرفيق الكابتن! كما بدأ جيراننا بإطلاق النار أيضاً!

وفكر نوفيكوف بشعور حاد بالحرارة والانفراج: «والآن نيران سريعة فقط، نيران سريعة فقط، من دون تضييع ثانية واحدة!

أسرع، يا أوفتشينيكوف!» - ورأى كيف أخذ اللهب يندلع مرة أخرى، من مدفعي أوفتشينيكوف بحدة، ويطير على ارتفاع واطئ من الأرض، وكيف أخذ الأفراد الذين ظهروا فجأة في موقع الرمي يموجون باضطراب في الدخان، وشعر نوفيكوف بوخزات الحلاوة

المعتادة في حلقومه، تلك الوخزات التي تثار في نفسه كلما بدأت معركة.

– أيها الرفيق الكابتن! هل نبدأ بإطلاق النار؟ أيها الرفيق الكابتن، هل نبدأ؟ – سمع نوفيكوف صوت الملازم الثاني أليشين الرنان غير أنه لم يلتفت، و لم يجب.

وخفض الطابور الزاحف في الطريق العام نحو مدفعي أوفتشينيكوف من سرعته وكان مثل كتلة سوداء. استدارت الدبابات التي كانت تستر الطابور خلف الطابور بدندنة متقطعة، وخرجت عن الطريق إلى الأرض الوعرة، وترنحت ثقيلة مخلخلة. وزادت من سرعتها، وزحفت إلى مقدمة الطابور. وهناك كانت تحترق ثلاث من الدبابات المتقدمة. وكانت ألسنة اللهب ترسل نفثات صفراء في سحب الدخان الزيتي.

وكان واضحاً لنوفيكوف أن مدفعي أوفتشينيكوف يطلان بصورة جيدة على الدبابات الزاحفة على الأرض الوعرة بصليل الحديد الصب. وكان في وسعه أن يرى كيف ارتفعت أعمدة التراب العالية حول المواقع. والتصق نوفيكوف بالنظارة المزدوجة، واختفى المدفعان نفسهما في الضباب العالي. فلا تلوح غير ألسنة اللهب تطير من هناك مجموعة أفقية – لقد قام أوفتشينيكوف بإطلاق النار.

وخرجت عن الطريق سيارتان واطئتان للركوب يشع لونهما الأصفر. كانتا تسيران وسط الطابور تحت حماية أربع سيارات مصفحة، وفجأة عكس زجاجهما ضوء الصباح الوردي، وتشتتا على الطريق العام مثل جعلين مسطحين، ورجعتا بأقصى سرعتهما إلى الوراء، متواثبتين على أخاديد الأرض منطلقتين في الحقل باتجاه غابة أشجار الصنوبر والمضيق الذي ما زال الطابور يتدفق منه.

وأخذ الجنود الألمان يقفزون بسرعة من اللوريات المغطاة بالمشمع للوقاية في وسط الطابور، ويندفعون في مختلف الاتجاهات راكضين خلف الدبابات بوثبات – وأضاءت آثار رشقات الرشيشات المنخفض كله.

ورأى نوفيكوف في غيظ حانق كيف تمكنت سيارتا الضباط الألمان من الفرار من النار، وراقب الدبابات الثقيلة تتدحرج بإصرار نحو موقع أوفتشينيكوف باصقة النار من دون انقطاع، ففكر:

«ها قد آن الأوان!....» – ونظر بسرعة باتجاه مدفعي أليشين إلى الجنود المطأطئين الساكنين.

– انتباه! – أعطى الأمر بصوت منفعل مضطرب: – على الدبابات المتقدمة، بقذائف اختراق الدروع، ارتفاع ثابت، – ثم توقف قليلاً وشهق: – نار!

اندفع الدوي الشديد الذي هز الهواء على المرتفع إلى أذنيه حاراً موجعاً، فلم يسمع صوت أليشين في موقع الرمي، فقد غطى الدوي على كل صوت.

كانت آثار القذائف الثاقبة تنطلق بصورة موصولة من على المرتفع، وتخترق الدخان الكثيف الذي يلف مدفعي أوفتشينيكوف ومقدمة الطابور والدبابات في المنخفض.

وكان الدخان ينداح نحو البحيرة الأرجوانية الكدرة، ويبدأ يتجمع في الأدغال مثلما يتجمع في قدح. ومن بين الفرج لاحت أجسام الدبابات السوداء الواطئة، وكأنها تنفلت من آثار القذائف الثاقبة. وصاح نوفيكوف بتصميم مستميت وغيظ مبتسر اعتمل في صدره الآن على أولئك الذين جلسوا لائذين في بطون الدبابات مستعدين

لقتله، والذين ينبغي عليه أن يقتلهم:

- سددوا بالضبط، بأكثر الضبط! أين توجهون ضرباتكم؟ يا للشيطان!

وقفز خارج نقطة المراقبة وركض نحو موقع الرمي.

ورأى أليشين الذي كان يتحرك عند المدفع، وكوعي المسدد ستيبانوف المتحركين في توتر، ولطخات عريضة من سناج البارود على خد بوغاتنكوف. ولفتت نظره بقع العرق الداكنة عند إبطيه وهو يحشر قنبلة في خزنة ماسورة المدفع المدخنة بيديه الكبيرتين المرتجفتين من الانفعال. ثم ارتد المدفع، ودفع وأخرج قضباناً خشبية من تحت سكتي المدفع.

وأمر نوفيكوف وهو يكظم أنفاسه:

- قف!... أيها الملازم الثاني أليشين! هرول مسرعاً إلى المدفع الثاني! ستكون هناك! راقب التسديد بنفسك!... سريعاً! وأنت يا ستيبانوف! ابتعد عن جهاز التسديد البانورامي! - صاح بتجبر بالمسدد الذي أدار إليه وجهه المضطرب العرق وهو لا يفهم نوفيكوف. - بسرعة! - ودفعه من كتفه عن جهاز التسديد... وألصق عينيه على واقية عيني جهاز التسديد وهو يدور إطارتي الارتفاع والاتجاه.

كانت شبيكة جهاز التسديد تزحف بسرعة على بقع الدخان الأسود لاقطة آثار القذائف المتقاطعة بوميضات النار البرتقالية ثم قبضت، وكأنها اصطدمت، على جانب دبابة قاتم ظهر لحظة قصيرة من قناع الدخان. وأمسك نوفيكوف إطارتي جهاز التسديد براحتيه بقوة، وخفض الشبيكة بسرعة.

نارا- وضغط قليلاً على الزناد اليدوي.

واندفع إثر قذيفة كالبرق في اتجاه الدبابة وتضاءل في الضباب مرتطماً في الأرض على يسار سلسلة الدبابة. ورأى نوفيكوف بوضوح كيف طغت النار على الأرض. وأدار قليلاً الإطارة اليدوية، وتصبب العرق على وجهه في الحال وأحرق عينيه. ورفع الشبيكة وصاح:

- نار!

وانقضّت على جسم الدبابة نار بنفسجية خاطفة كالبرق.

وتناثرت، وانتفت سريعاً. وقد أحسّ بها نوفيكوف أكثر مما رآها. ومن دون أن يمسح العرق الحار من وجه ومن دون أن ينظر إلى ما حدث لهذه الدبابة، حوّل بسرعة جهاز التسديد باحثاً وراء هدف آخر، ومرة أخرى وقع بصره من خلال فرجة في الدخان على جسم دبابة حي متحرّك.

كانت تتجه نحو المدفع. وكان برج الدبابة يدور بسرعة باحثاً أيضاً، ثم ارتعشت الماسورة الطويلة وتجمدت ثانية واحدة واتجهت عين فوهة المدفع المستديرة الفارغة السوداء بالضبط.

وكان يبدو أنها نظرت عبر جهاز التسديد البانورامي إلى حدقة نوفيكوف مباشرة. وفي تلك اللحظة ضغط نوفيكوف على الزناد، وهو يحسب الثواني. وامتد أثر القذيفة مثل سلك أزرق حار بين مدفعه، والفراغ المستدير المميت المتجه إليه. وفي نفس الوقت صمّ أذنيه دوي الانفجار، وخدش الحديد ماسورة المدفع وتناثرت الشظايا، وتكونت غيمة صغيرة من الدخان الأصفر الخانق من الـ «ت. ن. ت» المحروق فوق ترس المدفع. ولاحظ حفرة قنبلة على بعد أربعة أمتار من عجلة المدفع اليسرى.

وباندهاش من بقائه حياً أجال بصره في ما حوله ليرى ماذا جرى لطقم المدفع، أكان الجميع غير مصابين؟

كان الملقم بوغاتنكوف يقف منتصب القامة بين أظراف القنابل الفارغة، وفي يده قنبلة، وقد حنى رأسه قليلاً ينظر إلى الدبابات في عناد وتحديق، كما كان يجلس على السترة الأمامية من قبل في تحدٍّ للقدر.

– كيف تقف هكذا؟ ألقم المدفع على ركبتيك! – صرخ نوفيكوف واقترب من جهاز التسديد مرة أخرى كازاً على أسنانه:

كانت فوهة مدفع الدبابة ما زالت ظاهرة بوضوح خلال الدخان وما زالت متجهة إلى حدقته وفكر نوفيكوف: «أما أنا أو هو؟ أنا أو هو؟... لا يمكن أن يكون هو!... هو أو...».

وضغط نوفيكوف على الزناد وانفجرت في آن واحد مع ضربته قذيفتا الدبابة في قرقعة. وتصاعد عمودان من التراب أمام السترة الأمامية وهبّت فيه موجة «ت. ن. ت». إلا أنه لم يتحرك، ولم ينتزع عينيه من البانوراما، وكأن كل عصب فيه يضطرب من الانفعال. ولم يبق شيء في العالم إلا هذه الدبابة، وذلك الألماني في داخلها بحركاته السريعة المضبوطة، والذي كان يدور بعجلة إطارتي التسديد، ويوجه مدفعه إلى نوفيكوف: «أما هو أو أنا؟... أما هو أو أنا؟...».

بصقت الدبابة لسانين من اللهب مستعجلة، فأجابها نوفيكوف بقذيفتين، وانطلق أقر القذيفتين إلى الأسفل ولمعا بوهج بنفسجي في الدخان. ومرة أخرى أحس بأنه أصاب الهدف أكثر مما رآه. ومسح بأصابعه الخدرة من شدها على الإطارتين العرق الذي نزل قطرات حارة من جبهته وحاجبيه، ومثل سباح عاد إلى سطح الماء بعد الغوص

خرج نوفيكوف من تلك الحالة غير الطبيعية، في التوتر العصبي الذي ضاق فيه كل شيء وانحصر بما يراه في عين البانوراما.

– أيها الرفيق الكابتن! أيها الرفيق الكابتن! – صدمت هذه الصرخة أذنيه. – أيها الرفيق الكابتن!....

– استلق!

وكانت هذه الصرخة، التي تفصل نفسها عن جميع الأصوات الأخرى، قد اضطرت نوفيكوف أن يرفع رأسه. ورأى في السماء الكدرة أمامه ألسنة من النار مثل ذيول المذنبات. ثم الصرير العاوي الأجش للهاونات ذات المواسير الست الذي هز الهواء وتدهور على المرتفع، وضغط على المدفع المتذبذب شيء كبير خانق وستره.

بصق نوفيكوف التراب من فمه، وهو لا يميز الأصوات بسبب طنين حاد في أذنيه، ونظر إلى طقم المدفع بعينين قلقتين – كان الأفراد مستلقين في الدخان بين مسندي حاضن المدفع، ووجوههم إلى الأسفل. وفي الوهلة الأولى انصكت حنجرته وقد تخيّل أن موقع الرمي أصيب إصابة مباشرة. وكان بوغاتنكوف على بعد متر منه جالساً قائماً لا حراك له، وظهره يواجه السترة الأمامية وعيناه مغلقتان بشدة، وحاجباه مقطبان في دهشة، وعلى ركبتيه رقدت قنبلة منسية.

صاح نوفيكوف:

– بوغاتنكوف!

فتح بوغاتنكوف عينيه فكانتا صافيتين بشكل خاص قائمتين دهشتين، وكان بوغاتنكوف يصغي إلى شيء في داخله. ورفع يده ببطء عن القنبلة، وتحسس بها بطنه وظهره، ثم حدق في دهشة هادئة وتقطيب إلى كفه الملطخة بالدم وقال بهدوء وأسف وبساطة:

– فعلوا ذلك عبثاً...

وبذلك الوجه الدهش، وكأنما ما يزال يصغي إلى شيء ما لا يمكن أن يسمعه الآخرون، سقط على جنبه ضاغطاً خده على الأرض بقوة وهدوء متمتماً لها شيئاً بصوت غير مسموع.

وتدحرجت القنبلة من على ركبتيه حين تحرك حركاته الأخيرة، واصطدمت بجزمتي نوفيكوف. وكأنما جعلته يفيق إلى نفسه.

«كيف وقع هذا؟.... إنني لم ألحظ كيف جرح؟ هل هو الذي ناداني: «أيها الرفيق الكابتن»؟.... أكان ذلك صوته؟... كيف قتل هو و لم يقتل آخر غيره... من الذي حارب وفعل أقل منه... لماذا.؟....» والغريب في الأمر أنه ذهب إلى الأبد ذلك الكائن الحي المتردد الأنفاس. ذهب بوغاتنكوف بقوته الهادئة وجماله الأسمر..... و لم يعد اسم بوغاتنكوف يطلق عليه، بل على شيء غريب غير مفهوم مستلق بسكون قرب السترة الأمامية، ملتصق بالأرض، وكان يبدو أن هذا الشيء الغريب لم يخض الحرب كلها سوية معهم. بل هو شيء بدأ بها وانتهى اليوم إلا أن أحداً لم يثق بذلك. «لماذا وقف منتصب القامة وكان يعتقد بأنهم لن يقتلوه؟».

– أسرع بالضماد! – وهو يدرك أن لا فائدة للضماد بعد الآن... ثم أعطى من خلال أسنانه المصكوكة أمراً آخر: «إلى مدفعكم!» ولكن كلامه ضاع في قرقعة وصرير وضربات القذائف التي تغطي المرتفع. ومرة أخرى التصق الجنود الذين رفعوا رؤوسهم بالأرض وتبعثرت قنابل الهاون حول موقع الرمي ولكنهم الآن قفزوا ناهضين ملبّين أمر نوفيكوف الثاني – وكان واقفاً منتصب القامة في موقع الرمي لا يطاطىء هامته، وهو يدرك أن ذلك ما يجب أن يكون:

– إلى مدفعكم!... يا ستيبانوف، ألقم!

والآن فقط أدركوا جميعاً لَمِ أمر ستيبانوف بإلقام المدفع، وحدق المسدد ستيبانوف الشاب الطيب الريفي ذو الوجه العريض والمنمش المستعد دائماً لأن يتبسم بشكل غريب، حدق بجثة بوغاتنكوف الساكنة الجامدة في ضجعتها غير الاعتيادية، ولاح الأسى والاضطراب في نظرته. والتقط القنبلة ودفعها في خزنة ماسورة المدفع بقوة، وزفر زفرة من صدره وقال:

– قتلوه؟ إن هاونات «فانيوشا» تطلق نيرانها علينا أيها الرفيق الكابتن!

أيها الرفيق الكابتن!... نعم لقد كان ذلك صوت بوغاتنكوف.... ترى، ماذا كان يريد أن يقول لي؟– فكر نوفيكوف.

– آ...آ....! – همس كازاً على أسنانه باحثاً بواسطة البانوراما عن ذلك المكان الذي تتطاير منه أذناب النار الطويلة في مختلف الاتجاهات، وكأنما منبعثة من كتلة الطابور المنتفخة بقرقعة حديدية. فرأى في الطريق ذاته مدافع الهاون ذات المواسير الست تطلق النار على المرتفع، وعلى المكان حيث اختفى مدفعاً أوفتشينيكوف في الضباب الرمادي.

– بقذيفة مهداد! على الطابور!

وأطلق أكثر من خمسين قذيفة على الطابور. وثار الإعصار هناك – وتطايرت القطع الممزقة، وومضت مشاعل الانفجارات للحظة، واستدارت بعض اللوريات على حافة الطريق وسقوفها من المشمع ترسل دخاناً لتنجو من عاصفة اللهب والدمار. وخرج الجنود الألمان عن الطريق العام مهرولين زاحفين إلى الحقل مطلقين من رشيشاتهم.

واندلعت ألسنة خفيفة قرمزية من مؤخرات ثلاثة لوريات توقفت في الحال. وكانت القرقعة غير المنتظمة والضربات المبعثرة الصادرة من هناك تدل على انفجار ذخيرة.

- القنابل!.. القنابل! - صاح أحدهم في جنب ومن وراء ظهر نوفيكوف، ولكن نوفيكوف لم يعر انتباهاً لتلك الصيحة.

وفي الوقت الذي انفجرت فيه الذخيرة هزّ المرتفع كله انفجاران آخران قويان أضيفا إلى أصوات المعركة. وارتفعت فوق المكان، حيث يقع مدفعا أوفتشينيكوف، أعمدة من الدخان الأزرق حلقت عالية في السماء وهي تتموج فوق الضباب.

فكر نوفيكوف برهة من الزمان: «ماذا هناك؟ هل فعل هو ذلك؟».

وبحركة سريعة أدار البانوراما باتجاه الانفجارات. وحدق من خلال عينيه اللتين يحرقهما العرق، وحاول أن يرى مدفعي أوفتشينيكوف. وشعر نوفيكوف بقشعريرة باردة في ظهره العرق حين دار في ظنه أن الدبابات المخترقة قد حاصرت موقع أوفتشينيكوف ونسفت مدفعيه. «لا يمكن أن يسمح بذلك». ولكنه لم يكن يصدق بأن رجاله هناك قد هلكوا، وأن المدفعين قد دمرا. وفجأة رأى خلال نقاب من الدخان وقرب موقع أوفتشينيكوف شبح دبابة ظاهرة. وصاح:

- قنبلة! ألقم! - وتلفت كالسكران وهو مسود مرعب.

كان ستيبانوف يركع وسط أظراف القنابل الفارغة سميكاً ورخواً وردناه مرفوعان إلى مرفقيه، وفي وجهه العريض المرتبك شفتان غليظتان غطاهما البارود تحاولان أن تبتسما لنوفيكوف ولا تقدران، وتظل ابتسامة عوجاء على طرفيها.

وقال بصوت أجش:

–   أيها الرفيق الكابتن، لقد أبلغتك!.... لقد نفدت القنابل.

وقد أرسلت طقماً إلى عجلة صندوق الذخيرة لتوصيل قنابل الطوارئ، وقد أخذوا بوغاتنكوف معهم....

–   يا لك من شيطان!... لا يمكن أن تساعدنا عربة صندوق الذخيرة! ليس هناك غير عشرين قنبلة! – قال نوفيكوف لاعناً. – اذهب إلى فصيلة الذخيرة وأبلغهم أمري: هات جميع القنابل الموجودة هناك! أسرع! انتظر، هل عندك ماء؟

وجذب نوفيكوف بقوة ياقة قميصه المشبعة بالعرق، ولعق شفتيه الجاسيتين اللتين أذبلتهما نار العطش.

وفك ستيبانوف زمزمية الماء من نطاقه بسرعة، ومسح فمها وقدمها إلى نوفيكوف في أريحية وارتباك قائلاً:

–   ولكنه دافئ! – ثم طلب في حذر: – أتسمح لي بأن أدخن السيكارة قبل أن أذهب؟

–   ممكن!

كان ستيبانوف مثقل الجسم بالتعب – فقد كان طوال الوقت يلقم المدفع بالقنابل – وكانت عيناه حمراوين من الجهد الذي بذله قبل وقت غير قليل. وحين سمع ذلك جلس بين مسندي حاضن المدفع على ككومة من أظراف القنابل. وبدأ يلف سيكارة بأصابع مرتجفة، ولكن أصابعه لم تطاوعه فلم يفلح في لف السيكارة.

ولاح خجل غريب على محياه حين رأى كيف عب نوفيكوف الماء في عطش.

وهكذا لم يلف سيكارته. ورفعت قذائف لمدافع الدبابات أعمدة من تراب السترة الأمامية وتناثر التبغ.

وصاح في أسف:

– أنا ذاهب! – ونهض ونظر إلى البحيرة نظرة استفسار.

كانت نافورات المياه التي تنشأ من قذائف الهاون المتفجرة تملأ سطحها. وقال ستيبانوف: – آخ!... لقد أهلكوا كثيراً من السمك... مريع! – وتناول قربينته، ومشى على المرتفع منحنياً وفي خطوات غير سريعة خلال دخان انفجارات القنابل.

شرب نوفيكوف من الزمزمية من دون أن يحس بمذاق الماء الدافئ، وانحدر الماء على رقبته من دون أن يبرده ومن دون أن يبلّ ظمأه.

«كانت الانفجارات!... أنسف أوفتشينيكوف مدفعيه! – فكر نوفيكوف بقلق موجع، محاولاً أن يزن وضع البطارية. – ولكن الأفراد هناك... ماذا جرى لهم؟... لا أصدق، بأنهم قد هلكوا جميعاً. أين غورباتشوف؟ أين ريميشكوف؟».

– متى سيتم الاتصال؟... لم هذا التأخير؟ – صاح نوفيكوف بجندي الإرسال الذي نظر إليه من حفرة التخندق.

– الرفيق الكابتن، مطلوب على التلفون!

– الاتصال مع أوفتشينيكوف؟

وبحركة سريعة طفر السترة الأمامية قافزاً إلى حفرة التخندق، وانتزع سماعة التلفون من جندي الإرسال.

– أوفتشينيكوف؟ – سأل في عجالة ناسياً أن عليه أن ينادي الضابط بالرقم المصطلح عليه بالتلفون – كان يريد أن ينطق باسمه الحي. ولكنه سمع خلال خرخشة الخط التلفوني صوت الميجور غولكو يسأل عن الخسائر التي لحقت بالبطارية.

فقال نوفيكوف بصوت هادئ بصورة غير طبيعية، وجاف:

– أعطنا خياراً. أخذ آخر الخيارات لمطبخنا، أيها الرفيق رقم واحد. أرسل خياراً لنا.... هذا كل ما أطلبه.

– سأرسل لك ما عندي.... سأعطيك الخيار – أجاب غولكو وهو يمطط كلماته، وكأنما صارت له مع نوفيكوف صلة رحم. ثم أضاف بصورة غير عادية:

– انتبه إلى أوفتشينيكوف، وإلى المعبر يا فتاي!... انتبه.

ومرة أخرى آذت كلماته العذبة غير الضرورية..... كلمات المثقف نفس نوفيكوف.

تم الحديث.

وأطال نوفيكوف النظر أمام المرتفع إلى طبقات الغبش التي تحجب مدفعي أوفتشينيكوف. وفي هذا الغبش المضطرب المملوء بوميضات الطلقات كانت الدبابات، مثل الأشباح، تتحرك نحو البحيرة، وكانت صلصلة سلاسلها وهديرها الخافت وطنين محركات اللوريات المتقطع تولد في نفس نوفيكوف انطباعاً بأن قوة الطابور الضاربة تمركزت هناك. وكان الجزء الآخر من الطابور الذي لم يصل البحيرة – لوريات متفرقة ومدافع تجرها الخيول ومدافع الهاون مقطورة ومفارز من المشاة – يشق طريقه حول حطام السيارات الملتهبة والدبابات المحترقة في الطريق العام، ويخب عائداً نحو المضيق في الغابة حيث توقف الشطر الأيمن من الطابور عن الانصباب بحسب أمر مفاجئ في الظاهر (وإلى اليمين كان نوفيكوف يرى دباباتنا المحفورة في الأرض تحترق)، والشطر الأيسر من الطابور وحده مستمراً في تقدمه نحو البحيرة ومدفعي أوفتشينيكوف الصامتين.

«إذاً، فقد شقوا طريقهم إلى البحيرة؟ وأسكتوا مدفعي أوفتشينيكوف؟» - فكر في ذلك نوفيكوف. وتحول إلى المدفع وهو يحسّ بشعور مضطرم من نفاد الصبر:

- أين القنابل؟ متى ستأتي؟

وفجأة هز المرتفع من جديد انفجار لثلاث مرات، وارتفعت أعمدة من الدخان الأسود من خليط النار قرب موقع أوفتشينيكوف تبعته لمعة الضرب النارية الأفقية، ثم أخرى. وأدرك نوفيكوف الوضع: لقد دخلت دبابات الألمان المتقدمة نحو البحيرة حقل الألغام ونسفتها الألغام. وكان مدفعا أوفتشينيكوف ما يزالان يطلقان النار عليها - لقد كان مدفعاه لا يزالان حيين!

«يا لك من فتى رائع، يا أوفتشينيكوف!» - أراد نوفيكوف أن يصيح هذه الكلمات شاعراً بعطف جريء مفاجئ نحوه.

وفي تلك اللحظة بالذات ومن خلال الدخان المتراكم المنتشر فوق الشاطئ، والماء المتلألئ من خلال الفرجات رأى نوفيكوف في دهشة بأن خطوط الأطواف القائمة تمتد من كلا جنبتي البحيرة وتغطي نصفها.

وعلى ضفة البحيرة كان الألمان يسرعون في تفريغ الطواف البيضوية من اللوريات، والآن وضح الموقف: إن الألمان التفوا حول موقع أوفتشينيكوف واخترقوا البحيرة.

- اتصل بالمدفع الثاني، باليشين! - قال نوفيكوف، وعيناه هما الآمرتان. وإذ اتصل جندي الإشارة كولوكولتشيكوف بالمدفع الثاني وأصغى نوفيكوف إلى صوت أليشين المضطرب:

- أيها الرفيق الكابتن! دمرت أربع دبابات! - قاطعه نوفيكوف لبيرودة: كم عندك من القنابل؟

– إحدى عشرة! وسيجلبون لنا الآن أكثر!

– انظر إلى البحيرة بانتباه. هل ترى المعبر؟

– أراه أيها الرفيق الكابتن! – أجاب أليشين وسأل في عجالة:
– كيف الحال مع أوفتشينيكوف؟

– سدّد على نحو أدق... ارم كل القنابل الإحدى عشرة على المعبّر، هيا!

وأرسلت قنابل أليشين نوافير الماء حول الأطواف. وارتفع شيء غائم طويل مائل في الهواء، وسقط في الدخان. ولكن اللوريين الواطئين لم يتراجعا، و لم ينصرفا عن شاطئ البحيرة بل بقيا ساكنين في مكانيهما. وظل الألمان قربهما منشغلين بإصرار في إنزال وجرّ جسم الطوف الكبير.

فكر نوفيكوف: «هناك مخرج واحد لهم هو أن يخترقوا حتى آخر جندي... نعم، هو كذلك» وصاح بجندي الإرسال:

– أستقضي وقتاً طويلاً في إصلاح خط الاتصال؟... متى ستعطيني أوفتشينيكوف؟

ونفخ جندي الإرسال كولوكولتشينيكوف بسماعة التلفون. كان رجلاً رخواً أبيض الشعر تتعلق قطرات من العرق على طرف أنفه الأفطس، ودفع القضيب الموصل بالأرض بحنق واهن – فعل كل ما يمكن أن يفعله جندي الإرسال أمام رئيسه حين ينقطع الاتصال.

– اصغ إلي! افعل ما يعنّ لك حتى إن علّقت الخط في الهواء، ولكنك إذا لم تنجح في الاتصال بأوفتشينيكوف خلال خمس دقائق فلن تكون جندي الإرسال بعد الآن! – قال نوفيكوف ذلك بصرامة.

– سأجعلك سائقاً! فما نفعك إذا كان الناس هناك يموتون وأنت هنا تتلمس قضيب التلفون؟

وكانت حياة الإنسان عنده أثناء الحرب أكثر ثمناً ما دامت هذه الحياة لا تبحث عن نجاتها على حساب الآخرين، ولا تمكر ولا تفر هاربة. وبالرغم من أن كولوكولتشينيكوف الفتي ليس مكاراً، ولكنه انتظر فقط على أمل أن يتصل به جنود أوفتشينيكوف للإرسال ومن هنا فقدت حياته قيمتها الحقيقية عند نوفيكوف، وفهم كولوكولتشيكوف ذلك. فلم ينطق بكلمة، ونهض من آلته ومسح بيده أنفه العرق. وكانت عيناه متسائلتين خضراوين بصفاء، وكأنهما امتصتا إلى الأبد كل الخضرة الناعمة للغابات الشمالية، وزرقة البحيرات والسماء الربيعية الصارخة.

وفجأة فتحت الدبابات نيرانها على المرتفع من جهات عديدة وتبعت ذلك سلسلة من ألسنة النار القصيرة الباهرة التي ارتفعت عمودية إلى السماء من نقطة ما وراء الغابة إلى يمين المضيق.

واندلعت القذائف من مدافع الهاون ذات المواسير الست بهدير صريري.

وكان كل شيء يبدو قد ذاب في تلك القرقعة والهدير. وكان يظهر أن المرتفع تصدّع واهتز وانحنى مثل جسم حيّ، وزحف الخندق من مكانه، وهبط السواد المزمجر عليه.

وسقط نوفيكوف وجندي الإرسال جنباً إلى جنب في قعر الخندق وغاصَ القعر بهما. وكأنما انحشر في آذانهما قطن حار، وصبّت في رأسيهما نار كالحديد المسبوك. وهب عليهما هواء سخنته الشظايا، ودارت في الذهن بإلحاح فكرة عدم متانة الحياة الإنسانية: «الآن، الآن بالذات....».

- أهذه هي النهاية حقاً، أيها الرفيق الكابتن؟ أحقاً؟ - و لم يسمع نوفيكوف كلمات كولوكولتشيكوف بل فهمها من شفتيه الجافتين الرماديتين، ورأى أمامه عيني فتى مدورتين مفعمتين بالألم والرعب، وكأن هذا الرعب يلمع، حين كانت تطرف رموشه المغبرة.

- وتذكر نوفيكوف في غبش الذاكرة، وأذناه موقرتان، الليلة التي قضوها في الفيلا المترفة والميجور غولكو، والجنود النيام، وبوغاتنكوف يخيط كبشة وهذا الفتى كولوكولتشيكوف يحتضن آلة التلفون برقة خرقاء، ويتمتم بنومه عن آبار ما. إنه كان يحلم بالآبار في نهاية الحرب.... أية آبار؟

- وكبح نوفيكوف شعوره بالأسى نحو تلك الليلة، وأمسك جندي الإرسال من كتفه، وهزّه بقوة، وصاح في إذنه خلال الدوي الذي يجتاح حفرة التخندق:

- عليّ أن أتصل بأوفتشيكنيكوف! هل تفهم؟ اتصل به ولا شيء غير ذلك... هل تفهم؟. عليّ أن أفهم الوضع!

- الآن.... الآن... ولكن عيني دخل فيهما التراب....- أخذت شفتا جندي الإرسال تتحركان. وكان وجهه الطفولي الرمادي من الغبار يبدو بلا حماية. فرك عينيه بظاهر كفه بسرعة ونهض على ركبتيه واهناً نحيلاً، وجفناه لا يفتآن يطرفان. وأزاح الغبار عن آلة التلفون الاحتياطية بكمه، ووضع زمامها فوق كتفه، وتأوه وكأنه ينشج مثل صبي وقع في خطأ. وقال:

- إذا وقع لي حادث، أيها الرفيق الكابتن، فليس لي أم... بل أخت فقط.... والعنوان في جيبي هنا....

ونهض نحفياً وبسرعة غير متوقعة من دون أن يتلفت. وخرج

من الخندق، واختفى وزال. تاركاً وراءه انطباعاً بأن شيئاً قريباً أخضر خضرة الربيع (عينان أم ماذا؟) يسيراً وبلا وزن فقد سار على الأرض.

وبعد دقيقة واحدة من خروجه واختفائه في ضباب الانفجارات الحارة التي تجتاح المرتفع سمع نوفيكوف زعقة ضعيفة شبيهة بزعقة حشرة، وكأنها صادرة من خلال الهدير عبر فلع – إنها صوت التلفون المنادي. وتناول نوفيكوف السماعة المعفرة بالتراب، ورنّ في أذنه صوت سريع محموم:

– أنا من الثالث... أنا من الرابع، – وفي الحال فهم نوفيكوف بأن النداء من المدفعين الثالث والرابع، إذن لقد تم الاتصال باوفتشيكوف. ومن دون أن يضع السماعة رفع قامته وأراد أن يوقف كولوكولتشيكوف مندفعاً إلى حائط الخندق:

– ارجع، يا كولوكولتشيكوف! ارجع!

غير أن أمره ضاع في ضجيج الشظايا المتطايرة الحاد والكريه، والانفجارات المبعثرة لقذائف الهاون: و لم يكن يرى شيئاً أمام المرتفع، و لم يكن صوته قادراً على إرجاع جندي الإرسال. وكان يتخيّل كتفي كولوكولتشيكوف النحيلتين منتصبتين أمام ناظريه، وحطّ بكل ثقله بالقرب من التلفون وصاح:

– أوفتشينيكوف؟... أوفتشينيكوف؟ لماذا أنتم صامتون هناك يا للشيطان! لماذا أنتم صامتون؟ ردوا عليّ!

– أوفتشينيكوف غير موجود، أيها الرفيق، الرقم الثاني، – طن في أذنيه صوت لا يعرفه لقد دمر المدفع الرابع، أفراده قد قتلوا جميعاً. ونحن محاصرون، وقد جرح من بيننا سابريكين.

وأنا جندي الإرسال غوسيف جريح أيضاً. كما جرح لياغالوف

أيضاً، والممرضة معنا هنا. أنا جندي الإرسال غوسيف....

- وأين أوفتشينيكوف؟ - صاح نوفيكوف، وهو يصغي إلى صوت جندي الإرسال الخافت بعسر. - أوفتشينيكوف إلي! هل تسمعونني؟

- أوفتشينيكوف غير موجود. يشقون طريقهم إليكم. وعندنا جرحى ثلاثة: جندي الإرسال غوسيف والرقيب سابريكين، وجندي ترباس المدفع لياغالوف. ومعنا الممرضة كذلك، - تردد صوت جندي الإرسال ضعيفاً هاذياً، - ويقولون: ليس هناك قنبلة واحدة، مدفع رشاش فقط... انتهى الكلام.... أنا جندي الإرسال غوسيف....

وفكر نوفيكوف: «أوفتشينيكوف غير موجود. يشقون طريقهم إليكم!».. أهو يشق طريقه إليّ؟ ولماذا؟ من الذي أمره بذلك؟ فهل ترك المدفعين؟ أزال مدفعا أوفتشينيكوف من الوجود أيضاً؟».

- انظر، أيها الرفيق الكابتن، انظر.... ما الذي يحدث هناك، أمام خنادق المشاة.... أهؤلاء جنودنا يتراكضون أم ماذا؟

«من هذا الذي تكلم؟... أهو الكشاف الذي كان في الخدمة عند الرشاشة الخفيفة؟... نعم، إنه هو - يقف في نهاية حفرة التخندق يضع مرفقيه على السترة الأمامية وينظر مطأطأ الرأس...».

- أترى، أيها الرفيق الكابتن؟ أهي جماعتنا؟...

- الرفيق الكابتن!

ولم يكن نوفيكوف قادراً على التصديق، لم يكن يصدق بأن أوفتشينيكوف قد انسحب.

- أيها الرفيق الكابتن، قنابل! توجد قنابل! لقد جلبوا لنا قنابل!

-    قنابل، قنابل! - هتف ستيبانوف، مندفعاً داخل الخندق ماسحاً وجهه العرق المغبر. - لقد جئنا بالقنابل... لقد أطلقوا علينا وابلاً شديداً. أوه، يا للسخف، لقد دمروا النظارة المزدوجة، - قال كلماته الأخيرة بلهجة ربة بيت مدبرة. وتناول النظارة المزدوجة المنخرقة بالشظايا، ثم وضعها برفق في قاع الخندق وسأل: - وكيف الحال معهم هناك؟... ما زالوا أحياء؟

وهتف نوفيكوف آمراً:

-    إلى مدفعكم!

الفصل السابع

– هـذا أوفـتـشـيـنـيـكـوف! أيـهـا الـرفـيـق الـكـابـتـن! إنـه أوفتشينيكوف!... علت صيحة مندهشة وراء ظهر نوفيكوف.

وفي تلك اللحظة ذاتها كان ثلاثة أشخاص يقبلون من أمام المدفع ليس عليهم معاطف ولا طاقيات، ويحملون رشيشات في هيئة استعداد. وكانوا على بعد خمسة عشر متراً من المدفع لا يهرولون ولا يزحفون على المنحدر بل كانوا يندفعون وكأنهم عميان صاعدين المرتفع – وكان يبدو أن قواهم قد خارت، ولم يبق لهم منها شيء.

ورأى نوفيكوف أوفتشينيكوف يسير وبدلته المبطنة المحروقة ترفرف في الهواء... وكان وجهه كالحاً قاتماً كالأرض، وكان شعره ملتصقاً على جبينه ولوح أوفتشينيكوف بمسدسه في هياج وصاح بصوت مكتوم:

– إلى المدفع! عدواً! ورائي!

إن هذا الأمر غير الضروري على بعد أمتار من المدفع وصوت أوفتشينيكوف الآمر جعلاً نوفيكوف يحتدم غيظاً – وتحشرج شيء في حلقومه مراً كطعم المعدن.

وقفز الثلاثة؛ الليتنانت أوفتشينيكوف وبوروخونكو وريميشكوف عبر السترة الأمامية لاهثي الأنفاس غير قادرين على أن يتفوهوا بكلمة، وكانت عيونهم تنتقل كدرة. واستلقى بوروخونكو على الأرض يعضّ

شفتيه الجافتين بالسخام وتمتم:

– عطشان! يا إخوان... جرعة ماء! وأجالَ بصره باحثاً عن من دون أن يلقي من يده رشيشته الحامية وكأنها ملتصقة بكفيه. وجلس ريميشكوف على مسند حاضن المدفع. وكان لا يحمل حقيبته الظهرية، وكتفاه ترتفعان وتهبطان، وهو يختلس النظر إلى أوفتشينيكوف، ويضم شيئاً يجنون تحت قميصه العسكري المشبع بالعرق والقذارة، وعلى وجنته الناتئة، القوية جرح مدمى عميق ناشئ، كما يبدو، من ضربة شيء حديدي.

وتمتم لاهث الأنفاس:

– وغورباتشوف؟ أين غورباتشوف؟... لقد كان يسير وراءنا ويسترنا.... أين هو؟

ولم يسقط الملازم أوفتشينيكوف أو يجلس على الأرض بل وقف منتصب القامة مترنحاً، وساقاه ترتجفان في وهن. كان خداه غير الحلقين غائرين خلال عدة ساعات.

وكان كتفاه وكل هيكله العضلي محدودباً، إلا عينيه الظامئتين الملتهبتين بشرر وحشي.

– أجهزة التسديد! – تمتم أوفتشينيكوف بصوت أجش مشيراً إلى صدر ريميشكوف بمسدسه الذي يبدو وكأنه قد جمد في راحة يده. ثم خارت ركبتاه فجأة، وجلس على مسند حاضن المدفع واضعاً رأسه بين يديه.

– أُبيد مدفع لاديا بكل طاقمه. الدبابات.... – قال أوفتشينيكوف بصوت خفيض مثبتاً في الأرض عينيه المشعتين بوهج محموم. – حشد من الدبابات وحاملات الجنود المدرعة.... تقدمت

كالفيضان... وحاصرونا. وصمد أفراد مدفع سابريكين إلى الآخر... مات أربعة وجرح ثلاثة.... هناك.... هناك هم!....- كرّر ذلك وأغمض عينيه بقوة حتى إن جفنيه الأزرقين اختلجها. ثم صاح وكأنه قد تذكر شيئاً:

- أجهزة التسديد! هنا.... أعطها، يا ريميشكوف!

وخطا نوفيكوف نحو أوفتشينيكوف، ووضع يده تحت ذقنه ورفع رأسه وقال ببطء:

أجهزة التسديد ليست ضرورية لي، - ثم سأل من دون أن يبدو عليه أثر للرثاء: - هل أنت مصدوم فقال أوفتشينيكوف وعيناه مغمضتان:

- هنا! - وفرك الطرف الأيسر من صدره تحت بدلته المبطنة بالقطن التي مزقها الرصاص. - هنا يقضم الفأر، ويخدش بمخالبه..... من رؤية الدم..... فعلت كل شيء..... هل تفهم، يا ديما!

ناداه هكذا باسمه المجرد.

فأجاب نوفيكوف متجاهلاً النداء:

- لا! - ثم سأل: - أين أفرادك؟ أين هم يا ملازم أوفتشينيكوف؟

وكان لا يحسّ بالرثاء نحو أوفتشينيكوف تماماً كما لا يرثى لنفسه هو: إن ما هو مسموح للجندي أحياناً غير مسموح للضابط. وكان حتى اللحظة الأخيرة غير قادر على أن يصدق أن أوفتشينيكوف حتى في حالة الهزيمة التامة يهجر مدفعيه تاركاً هناك رجاله الذين ظلوا أحياء بعده....

- هكذا إذن! - قال أوفتشينيكوف بصوت مرتجف وقد فهم كل شيء، وفتح عينيه فالتقتا بعيني نوفيكوف المحدقتين الخاليتين من

كل شفقة، وكل غفران. – هكذا إذن؟ تعتقلني؟ تقدمني إلى محكمة عسكرية؟.... خذني!.... حسناً. هيا، أنا على استعداد! أنا مستعد لكل شيء! لقد أحرقت عشر دبابات.... وهذه غير محسوبة.... غير محسوبة!

وألقى مسدسه لنوفيكوف، ووجهه يتلوى، وسحب حزام الضباط محاولاً فكه. ومد يده تحت بدلته المبطنة إلى كتافيته.

– قدمني إلى محكمة عسكرية!... قدمني!

– كف عن الهستيريا! انهض!– أمر نوفيكوف بهدوء.

وإذ هدأ أوفتشينيكوف في الحال، ونهض غير مصدق، متحاشياً النظر إلى نوفيكوف. أمر نوفيكوف مرة أخرى:– تناول مسدسك.... هناك، وراء حفرة التخندق – الملجأ. أمهلك ساعة واحدة لتنام، وتعود إلى رشدك..... سِر!

أيها الرفيق الكابتن..... انظر ماذا يعملون هناك ما–؟ – تردد صوت ستيبانوف من وراء نوفيكوف.

ماذا هناك؟

كانت شمس الخريف الفاترة ترتفع في السماء المدلهمة فوق سلسلة جبال الكاربات. وكانت أشعتها الخافتة المنحدرة تنصبّ في المنخفض الذي ترعد فيه المعركة، وكان المنخفض يتنور بآثار رصاصات الرشيشات، وتوهجات الطلقات، واللهب المتصاعد من الدبابات المحترقة. وما كانت أعمدة الانفجارات تتصاعد كالجدران في المكان الذي كان يحتله موقع أوفتشينيكوف فحسب، بل وهناك، عند البحيرة اللامعة حيث يقيم الألمان معبراً: كانت مدفعيتنا تطلق النار من المدينة. وكانت مربعات الدبابات القائمة قد انسحبت متحاشية حقل الألغام ومتراجعة إلى الغابة والمضيق.

نعم، لقد كانت تتراجع، ذلك واضح لنوفيكوف. فلعل الصباح كان يحجزها. وفجأة ومضت وميضتان أفقيتان خارجتان من موقع مدفعي أوفتشينيكوف باتجاه الدبابات. وخفق قلب نوفيكوف وهو لا يصدق بوجود مدفع واحد ما زال قادراً على إطلاق النار، ونظر سريعاً إلى أوفتشينيكوف - كان وجه الملازم المرتعش غريباً ممتقعاً انتقاعاً ترابياً.

وبربر أوفتشينكيوف في عسر:

- غوربا.... تشوف؟.... ألعله عاد؟

وحدقت عيناه الوحشيتان بنوفيكوف. وفجأة، كما كان يبدو، فهم كل شيء واندفع ليّن المفاصل، وقفز فوق السترة الأمامية كالقطة، وهرول بوثبات كبيرة غير إنسانية هابطاً المنحدر باتجاه المدفعين وأطراف بدلته المحروقة غير المزررة تخفق في الريح مثل جناحي طائر سريع.

- ارجع! ارجع!- صاح نوفيكوف بصوت مرعب وهو يندفع إلى السترة الأمامية. - ارجع! يا أوفتشينيكوف!

كان أوفتشينيكوف يجري في الحقل منتصب القامة فتخطّى خنادق المشاة، وعثر واقعاً، ثم نهض مهرولاً إلى المدفعين بوثبات واسعة.

وحين أطلق عليه رشق الرشيشة مثل رشقة نارية من جانبه ثم من الأمام ومن اليسار، لم يغير اتجاهه، ولم يزحف على الأرض أو يطأطئ رأسه. شوهد يمسك بالأحراش متسلقاً منحدر المنخفض إلى المرتفع حيث كانت أشباح الدبابات تتحرّك في الضباب الأسمر.

وهرول إلى المرتفع فلاح لحظة فيه منظوراً بوضوح على الأرض

المكشوفة، وفي الحال انطلق نحوه لسان اللهب خارجاً من اليمين من الدخان حيث كانت الدبابات تتحرك أمام حقل الألغام. ووقع لسان آخر من اللهب تحت قدميه.

وخطى خطوتين أخريين. ثم ركع على ركبتيه في غموض، وبحركة بطيئة مرر كفه على رأسه وكأنه يمسد شعره، وانكب منبطحاً على صدره في البقعة نفسها التي تأججت فيها نار تحت قدميه، فبسط ذراعيه أمامه. وفجأة رأى نوفيكوف، الذي كزّ على أسنانه حتى الألم، جسم أوفتشينيكوف المنبطح يتحرك ويزحف ببطء على المرتفع إلى الدغل، إلى المدفع غير المرئي الذي أطلق النيران منذ برهة.

وخرج رجلان في ثياب كاكية من الدغل ومن اليمين، ونظرا حولهما، ثم سارا في انحناء نحو أوفتشينيكوف. ولمعت النقطة النارية القصيرة – إطلاقة من مسدسه. ويقط الرجلان في الثياب الكاكية في وقت واحد، وأطلق أحدهما بسرعة ومن دون تسديد رشقاً من رشيشته فوق رأس أوفتشينيكوف. وأطلق أوفتشينيكوف ثلاث طلقات أخرى.

– عند الرشاشة!– صاح نوفيكوف واجتاز حفرة التخندق بوثبة جنونية واندفع إلى الرشاشة الخفيفة التي وقف قربها كشاف تقوس ظهره في غيظ ولصق حنكه على أخمص الرشاشة.

وسقط نوفيكوف على السترة الأمامية بجنب الكشاف وصاح:

– أترى الألمانيين؟ أقطعهما! في رشقات قصيرة! هيا!

فقال الكشاف من خلال أسنانه المصكوكة:

– إنهما يريدان أن يأخذاه حياً... هذا واضح.... – واهتز كتفه من رجة الرشاشة.

وتطايرت نافورات صغيرة من التراب إلى اليمين فوق الألمانيين، ثم تنقلت ورقصت على الفرجة الضيقة التي فصلت اوفتشينيكوف عن الألمانيين. وظهرت قطرات العرق الكبيرة على وجه الكشاف المتوتر النحاسي، وكأنما عصرت عصراً. وانتهت الخراطيش في المخزن المستدير. فضغط الكشاف سقاطة المخزن، وأخرجه وتناول مخزناً جديداً بسرعة وبدأ يعالجه، ولكنه لم يستطع إدخاله في الرشاشة - كانت يداه ترتجفان. وقال وهو يتنفس نفساً مسموعاً:

- وإذا أصاب الرصاص الملازم؟..... أيها الرفيق الكابتن!....

- تنح عن الرشاشة، - قال نوفيكوف بصوت هادئ لا يكاد يسمع، وأدخل المخزن في موضعه بضربة، وضغط حنكه على أخمص الرشاشة الحار الرطب من كفي الكشاف، وأطلق رشقتين قصيرتين على الألمانيين اللذين كانا يزحفان عائدين إلى الدغل. ولم يصدق ما رأت عيناه.

لقد وقف أوفتشينيكوف بحركة بطيئة، وفي تشبث، مستنداً إلى الأرض بيديه. وقف مترنحاً، بدلته المبطنة غير المزررة تخفق. أطرق رأسه ومسدسه بيده المتراخية، سار بارتجاج يسلي، سارا إلى الدغل حيث يقع المدفع. وخرج الألمانيان من الدغل ليعترضا طريقه، وحجب أوفتشينيكوف خيالهما بجسمه. ولم يطلق الألمانيان عليه ناراً.

«ما هذا؟ لماذا؟ ماذا يجري هناك؟» - فكر نوفيكوف بذلك في ألم ملتهب، وسحب إصبعه من الزناد، وفي تلبك اللحظة فهم لماذا لم يطلقا النار على أوفتشينيكوف («نعم... إنهما يريدان أسره حياً..... إنهما يريدان «لساناً يتكلّم!»») وكان ما يزال متردداً في ما يفعل («لماذا؟ ليس لي حق في ذلك! ليس!....») وضغط على الزناد حتى أطلق المخزن

كله. فطار في سيل واحد طويل.

وحين عاد إلى نفسه، وكان كل شيء كان يراه من خلال ثقاب أصفر في عينيه، دفع الرشاشة عنه – لم يكن قرب الدغل لا الألمانيان، ولا أوفتشينيكوف، لم يكن أحد....

ولسبب ما، نظر في ساعته اليدوية، وحين كان ينظر فيها هبط على قعر الخندق إلى جانب جندي الإرسال الذي كان يحدق به في صمت، ثم وقع بصره على حشرة طويلة، على نحو منفر، بيضاء تدب على ردن جندي الإرسال. ولكن لم يستطع إلا أن يخرج صوتاً غريباً... صوت غصة في حلقومه.

ونهض، وخطا نحو الخندق – الملجأ المحفور قرب حفرة التخندق والتفت في المدخل من دون حاجة وبلا حماية، وقال بصوت خرج في صعوبة:

– في حلقي شيء... أريد ماءً.... اتصل بالمدفع.

ودخل الخندق – الملجأ.

وبعد دقيقتين خرج نوفيكوف منه.... وبدا هادئاً إلا أن وجهه كان بادي الشحوب وكأنه نحل. وجلس إلى آلة التلفون مرة أخرى وتناول السماعة التي قدمها له جندي الإرسال في شيء من الخوف. وقال بصوت أجش:

– غوسيف؟ أخبرني عن الموقف....

– شيء من الخطأ، أنا المتكلم بالتلفون، يا رفيق الرقم الثاني....

لم يجب غوسيف، بل أجاب المساعد غورباتشوف. وقد عرفه نوفيكوف من صوته الواثق دائماً، وذي الميزة المتغافلة قليلاً،

والساخرة. نعم، كان غورباتشوف هو وحده بكله وكليله، سالماً، بيديه ورجليه،.... والممرضة الجميلة أيضاً.. أما الآخرون فقاب قوسين أو أدنى من الله... والناس بصورة عامة.... قليلون جداً، والدبابات أصيبت إصابات فادحة، والقنابل قليلة، خمس قنابل فقط ولكن يمكن للمرء أن يصوب المدفع من خلال جوف الماسورة، ويرمي الألمان... فقل لأوفتشينيكوف أن ذلك ممكن.....

وإن أبلغ غورباتشوف الكابتن بالموقف، وكأنه ضحك من شيء لا يجوز الضحك منه لم يعبه نوفيكوف في تلك اللحظة، بل بالعكس، فلأن غورباتشوف بقي هناك بالقرب من المدفع حياً، ضاحك السن، فقد شعر منوفيكوف بموجة من العطف نحوه. وكان يعرف أن غورباتشوف مر بظرف يمكن التسامح فيه بأشياء كثيرة مثلما يستحق المحتضر جرعة ماء قبل أن يموت.

– اصمدوا حتى المساء!– قال نوفيكوف بصوت خفيض. و لم يقل شيئاً عن أوفتشينيكوف.

– تحملوا!

.... وفي المساء سنأتي.

وفكر نوفيكوف من جديد في عذاب ضمير: «هل قتلته أم لا؟ وإذا كنت قد فعلت ذلك، قل لي الحق في التصرف بحياته؟ ومن الذي أعطاني الحق في ذلك؟ ولكن إذا كنت في موقفه فهل سأعطي شخصاً آخر حق قتلي؟» وأجابه هاجس في نفسه بهدوء ويُسر:

«نعم!... أعطيه... ولكن أيمكن أن تقيس الآخرين بمقياسك أنت؟».

ونظر الجنود إليه صامتين. وكان الكشاف يعبئ مخازن الرشاشة.

وشعر نوفيكوف بان ما قام به الآن فصله عن الآخرين جميعاً، بالرغم من أنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الجنود يفهمون بأنه يتصرف بحياتهم ومصائرهم باسم شيء عظيم على نحو لا يقاس، شيء يعرفه ويحس به نوفيكوف وجميع الذين معه.

وسار نوفيكوف صامتاً إلى المدفع.

وتبسم له ستيبانوف في شعور بالذنب. ولاحت الابتسامة على وجهه المدور الطيب. وكان يلف سيكارة فتناثر بعض تبغها على ركبتيه، فأخذ ينفض التبغ بكوعه لسبب ما.

كان بوروخونكو مستلقياً في موقع الرمي باسطاً جسمه الطويل، وكان العرق يبدو في بقع جافة ملحية على قميصه العسكري فوق كتفيه النحيلتين. وكان ينظر في محفظة الخارطة المهلهلة التي نساها أوفتشينيكوف هنا، مدققاً فيها النظر، وشعرات حاجبيه الحادة التي حاولتها الشمس تتحرك صاعدة هابطة وكأنما عيناه تحكانه.

وتمتم:

- إذن هكذا.... ذهب حتى الكاربات....

كان ريميشكوف جالساً على صندوق ذخيرة حيث تلمع آلتا التسديد البانوراميتان اللتان جلبهما معه من المدفعين. وكان يمرر منديلاً قذراً على جرح مدمى كبير على حنكه ويقول في أسى وارتباك:

- وركضت ورأيت أمام المرتفع جندي الإرسال كولوكولتشيكوف متمدداً، وركبتاه مطويتان في حلقة، وكأنه نائم وهذا كل ما في الأمر. ومسسته. لا.... لقد فارق الحياة.

وكان يمسك في يديه سلكاً.... كالطفل... وكانت عيناه

خضراوين بعمق.... آخ! لا بد من أن أحداً كان واقعاً في غرامه.... آه.... عيناه...... أنا لا أفهم – لقد قُتل أناس..... ونحن على قيد الحياة....

فهمس بوروخونكو:

– وعينا لياغالوف خضروان أيضاً.

– انهض من الأرض،– قال نوفيكوف في هدوء مخاطباً بوروخونكو: – ستصاب بالزكام، وتذهب إلى المستشفى.

الفصل الثامن

قاداه عبر الحقل الذي حفرته القنابل مجتازين الدبابات المحترقة نحو الغابة. وحين حطّ ثقله على ساقه التي هشمتها شظية تعثر واجتاحه ألم حاد وألهبه ودبّ من ساعده إلى أصابعه الخدرة. وأسند يده اليمنى، وفي كل خطوة كان يحس بأن فمه قد امتلأ بسائل مالح. وبصق الدم ولم يفهم أين هم ذاهبون به ولماذا ولأي سبب يستعجلونه.

كان يفهم شيئاً واحداً: أن شيئاً لا يرد قد حصل، وأن الحياة التي كان لها من قبل ألف منفذ، أغلقت جميعها بشدة، ولم يبق أمامه إلا طريق واحد – الموت....

وكان لا يصدق بذلك حين عدلا إلى المدفعين وحين استلقى أمام الدبابات، وحين خرج الرجلان من الدغل يحملان رشيشتين، وحين أطلق الرصاص عليهما. ولم يصدق بهذا الأمر الصارم الذي لا مخرج منه حتى حين نفذت طلقات مسدسه. فإذ ذاك كانت أمامه وخلفه وعلى يساره أرضه ورجاله ومدافعه. وكان لا يعي جيداً كيف وقع في الأسر. وكان يحسّ بالألم في رأسه وصدره، وفي جسمه كله. وكان يبصق دمه، دم مهجته، ويراه رأي العيان.

– Halt!.... إيفان روسي Ha-alt!.

تدفعه ماسورة الرشيشة بقوة وقسوة من لوح كتفه اليسرى، واجتاحه نوبة جديدة من الألم. وفكر في ارتياب مهلك: «إنه يصوب على كتفي الجريحة، الأحسن أن يصوب على الكتف السليمة. أنا

أسير إذن....». وإذ ذاك فهم أنه الآن ليس سيد حياته، ولا حتى عذاباته. ففكر بطريقة أخرى: «هل أريد شفقة أحد؟ رقة أحد؟... شفقة من؟».

– Ha- alt!

ومرة أخرى وخزت فوهة ماسورة الرشيشة كتفه اليسرى، وكان مخرزاً قد نفذ إلى عظمه. ضغط أوفتشينيكوف بيده اليمنى على كف يده اليسرى ووقف مترنحاً.

ولاحت ابتسامة ملتوية على شفتيه المتورمتين الملطختين بالدم، والتفت إلى حارسه.

كان شاباً ألمانياً طويل القامة أشقر الشعر في نحو العشرين من العمر، له وجه نحيل شاحب. وقد نظر إلى أسيره بتحديق، ولحمتا خديه المشدودين تتحركان. وكان يرتدي فوق بدلته رداءً أخضر مبقعاً للتمويه. وكان بنطلونه محشوراً في حذائه الطويل العنق حيث دست مخازن لرشيشته وقد علق على ظهره حقيبة أوفتشينيكوف.

وتشوه وجه الألماني: حمل رشيشته في يده اليمنى، ورفع يده اليسرى، وقام بها بإشارة قصيرة سريعة في الهواء وكأنه يريد أن ينتزع الابتسامة الجامدة من فم أوفتشينيكوف.

ثم دار على جنبه قليلاً، وأفرج ساقيه، وراقب أوفتشينيكوف من طرف عينيه، وطفق يفك أزرار ردائه. وفهم أوفتشينيكوف فأدار له ظهره، وتناثر الرشاش على حذائه. وتقدم أوفتشينيكوف إلى الأمام خطوة اضطرارية ضاغطاً على ساقه الجريحة. وإذ ذاك فكر في نفسه: «ولكن لماذا؟ سواء عندي!».

– Halt! – وسمع ضحكة عالية خارجة من حنجرة. و لم يفهم

في بادئ الأمر ضحك الألماني.

وزرر الألماني رداه وتقدم نحوه، وزال الغيظ من وجهه، ونظر إلى حذاء أوفتشينيكوف المبلل، وضحك ثانية، ولوح بيده، ومرر إصبعه على رقبته المعافاة:

– Kaput!..... يا لليتنانت Kaput!.

ولأن الألمـاني قال كلمته في غير موجدة ظاهرة، بل بصوت إنساني لا اكتراث فيه، ولأن الألماني تصرف في يسر من دون خجل من أوفتشينيكوف وكأنه ميت، وتبسم من خجل أوفتشينكيوف، كل ذلك أكد لأوفتشينيكوف ما فكر به وما عرفه.

وفكر أوفتشينيكوف في قنوط: «أيمكن أن يسوى على حياتي في ساعة أو ساعتين؟ أن أمحى من الوجود كلياً؟ أبهذه البساطة؟ بهذه البساطة؟». ومرة أخرى أحسّ بوجع في ساقه. وفجأة شعر في وضوح باهر بأن هذه الخطوات هي آخر خطوات له على الأرض، وآخر أفكاره، وآخر ألم يحس به، وآخر دم يفعم فمه.

وفكّر لسبب لا يعرفه بأنه الآن في السادسة والعشرين من العمر وأنه لن يخطو إلى السابعة والعشرين قط، وأنه لن يكون بعد الآن ذلك الشخص المسمّى سيرجي أوفتشينيكوف بينما سيعيش الآخرون من بعده ويضحكون، ويعانقون النساء ويتنفسون....

ثم كونه لن يقتل كما يقتل الآخرون في الحرب، ولن يكون معروفاً للناس كيف استشهد وفي أية ظروف، فقد تولد في نفسه شعور بالأسى الأسود لذعه كالنار.

إن مصيره قد انفصل فجأة على حين غرة عن مصائر آلاف الآخرين الذين بقيوا هناك خلف هذا الدخان، انفصل بقانون مجهول عنه.

أحقاً ينبغي أن يموت هذا المسمى أوفتشينيكوف؟ أينبغي أن يموت؟

وارتفعت صرخة غريب من وراء ظهره:

– Schneller! – ومرة أخرى وخزت ماسورة الرشيشة كتفه الجريحة، وحملته الصرخة والألم على أن يقف.

وفهم أن هذه «Schneller» تقصر من طريقه إلى الموت. وقاوم نفسه وإذعانه وصوت الألماني، وكأنما قد صبت نار الغيظ فيه فجأة، والتفت بقوة وضراوة، وكأنما يريد أن يلقي نفسه، ويلقي الرشيشة من يد الشاب.... «من الذي أسرني؟ جرو! عمره عشرون سنة أو يكاد». إلا أنه هدأ وكز على أسنانه، ولهث وحبس دموعه، وبصق دماً. وكان غير قادر على أن يلقي بثقله كله على رجله الجريحة، ولا أن يرفع ذراعه. لقد فقد جسمه ثقله المرن العضلي، وكأنما أصبح شيئاً لا زون له.

«أحقا إنني غير قادر؟ – أحقاً – سأل أوفتشينيكوف نفسه كالهاذي وحتى طفق يئن من خلال أسنانه – ماذا؟ ماذا؟ إذن هذه النهاية؟»».

ونظر إلى الألماني بعينين يفيض منهما شرر جاف محموم. ومرة أخرى بصق الدم اللزج من بين شفتين خدرتين. وكان يريد أن يجلس من تعبه المميت، أن يقع على الأرض ليسترد أنفاسه.

ودفعته ماسورة الرشيشة وارتفعت الصيحة مرة أخرى:

– Schneller، Schneller!

ومشوا خلال دخان كثيف مازوتي يتصاعد من الدبابات المحترقة، ومروا بلوريات مدمرة في الطريق، ودخلوا الغابة.

وهسهس العشب الجاف الذي كان يفوح برائحة صمغ البطم

ممزوجاً بالبنزين. ورفع أوفتشينيكوف رأسه، ورأى الغابة مكتظة بالأفراد والسيارات والعربات – وليس كمثل الغابة التي كان يراها في طفولته في الأورال – الغابة المشمسة النظيفة النقية الهواء التي ينتشر فيها شذى طازج رطب لأشجار الشوح المشبوكة بنسيج العنكبوت، ورائحة البلوط الجافة، بل كانت غابة أخرى – غابة ميتة خريفية صفراء مكتظة بـالأوراق الذابلة، وبأشجار صنوبر جردتها شظايا القنابل، وبحفرات القنابل في حاشيتها.

إنه لا يحمل لهذه الغابة أية ذكرى، بالرغم من أنه رآها مئات من المرات، غير أنه لا يعرف لم تستقر في ذاكرته.

وكان هناك ألمان بقمصان غير مزررة يتخندقون في حاشية الغابة بعجالة، وكان التراب الملقى من الخنادق يشكل أقواساً في الهواء. وكانت أصوات الأوامر الغريبة تتناهى إلى سمعه وتزحف الدبابات إلى الأدغال، في ظل الشجار، متراجعة وسلاسلها الثقيلة تصلصل ومحركاتها تهدر. ثم تفتح أبراجها، ويبدأ جنودها يتحدثون في وناء وينزلون منها نازعين الخوذ. ومرت به بمحاذاة الحاشية حاملة الجنود المدرعة الفطساء غارزة الأوراق في آثار عجلاتها. وكان الجنود في خوذهم الفولاذية، وكانت وجوههم مهزولة وغير حليقة وبلون الشمع. وقد نظروا إلى أوفتشينيكوف بحقد بعيون ملاحقة. وكان أحدهم في كمال السن، ذقنه ممتلئ، ووجه منتفخ بالدم، يدخن سيكارته بنهم. ومال فجأة بجسمه السميك، ونزع السيكارة من فمه، وألقاها على أوفتشينيكوف وصاح بلغة مهمشة:

– روس.... إيفان.... لا يستسلم أسيراً! – وأصدر من لسانه صوتاً مثل انكسار العظم.

وسقط عقب السيكارة اللعابي على خد أوفتشينيكوف ولكنه لم يكوه، بل نثر الرماد عليه. ارتج ومسح خده، وطفق يرتجف من الوهن والغيظ، ورفع رأسه. ونظر حوله مثل حيوان وقع في شرك. وحياته التي كان لها ثمن قبل ساعة من الزمن لا غير أصبحت الآن زهيدة مثل روثة مغروزة في الأرض. وكان يرى الألمان ينسحبون إلى الغابة. إن المعركة قد هدأت. وهو في هذه الدقائق الأسير الوحيد هنا..... لا الجندي بل الضابط - أوفتشينيكوف الذي كانوا يرتعبون منه عندما كان وراء المدافع.

والآن هو هنا يسير في غابة غريبة عنه فاقداً قوته وقيمته في عيون الذين يكرههم....

- إلى أين نذهب؟

وتوقف، والتفت مطأطئاً نحو الألماني مميلاً عنقه في عناد. وإذ رأى الألماني عينيه رفع حاجبيه المبيضين، وتمتم في دهشة واقتضاب: «أوه!» وانقلب وجهه الصبوي النحيل الشاحب الدقيق الحنك صارماً قاسياً مستعداً لكل شيء. وكان أطول قامة من أوفتشينيكوف، فوق رأسه، فتوجه نحوه، ووضع ماسورة الرشيشة على خده بقوة شديدة. وأدار رأسه بهذه الضربة.

وصاح بضراوة:

- Vorwarts!

ووقف أوفتشينيكوف مرتجفاً من الوهن، ولكنه لم يتحرك.

ولم يبصق الدم الذي غصّ به حلقه فكان يبتلعه بصعوبة فقال بصوت مخنوق:

– لو لم تكن يدي جريحة.... لحطمتك، أيها الألماني الزنيم، بضربة واحدة. لولا يدي....– وصبّ عليه جام لعناته المخيفة الوحشية.

وصاح الألماني بلغة مختلطة:

– ما هذا السباب لأمك؟ – وحدق بعينين فتيتين لهما أهداب كأهداب البقر. وتصلب شريان الدم على رقبته الشاحبة البارزة الحنجرة ومرة أخرى هتف في وجهه أمراً:

– Virwarts! – وكشر، ورفع رشيشته مهدداً.

– حسناً، هيا، يا رنيم! – قال أوفتشينيكوف واضحاً، وأحنى رأسه. ومشى بخطواته السريعة، في أرض تتناثر فيها أوراق الخريف، إلى حتفه.

جاؤوا به إلى بقعة لا شجر فيها في قلب الغابة. كانت حاملات الجنود المدرعة وسيارات القيادة المسقوفة والمطلية بلون التمويه واقفة تحت أشجار الصنوبر في الظل المبقع. وكان الناس يتحركون هنا في ثياب سوداء من دون أن يحدثوا ضجة. وفي وسط البقعة كانت تشع سيارة واطئة مصقولة وأبوابها مفتوحة وزجاجها مغبر.

وحولها كانت قطع الشمس النافذة من خلال الأغصان تتناثر على العشب. وكان النهار الدافئ يبدو على كل شيء: على العشب، والسيارات وأشجار الصنوبر. ولكن أوفتشينيكوف بسبب هذا الدفء الوادع على نحو غير اعتيادي، والهدوء كان يحس بالرعشة العصبية تتملكه أكثر فأكثر.

وكانت ثمة رجل ضئيل الجسم جاف العود في مشمع أسود وعمرة عالية، تنعكس الشمس على حافتها الوطئة اللامعة، وتلقى الظل على وجهه، جالساً على مقعد مطوي إلى طاولة واطئة تطوى، بالقرب من سيارة الركوب، وقد ألقى يده البيضاء على المائدة، وحط ساقاً على ساق وهو يستمع من دون اهتمام كبير إلى شخص جميل جمالاً أنثوياً كان ينحني قليلاً نحوه، ووجهه الجميل الرقيق في هيئة احترام.

وأوقف الرجال ذوو الثياب السود الألماني الكشاف، كما تصوّره أوفتشينيكوف، عند حافة البقعة. ووقف الألماني في هيئة استعداد ضاغطاً راحتي كفيه على ردفيه ناشراً كوعيه، ناطقاً بكلمات سريعة لم يفهم منها أوفتشينيكوف غير كلمة واحدة هي «ليتنانت». ونظر أحد الرجال ذووي الثياب السود، وكان الرجل جميل الوجه، إلى أوفتشينيكوف مقلصاً عينيه، وتناول حقيبته من الكشاف في اشمئزاز.

وأمر في هدوء بتلك الكلمة المعروفة: «فورفيرتس!» مشيراً بيده. وفرقع الألماني الكشاف بكعبيه من دون أن يبدو عليه تعبير واضح. وأدار، وعاد في الطريق الذي جاؤوا منه. فهم أوفتشينيكوف أنهم نقلوه إلى أيد أخرى – إلى أيدي الرجال ذوي الثياب السود.

سار به ألمانيان نحو السيارة. والآن فهم السبب في نقله إلى هنا و لمَ لم يقتله الكشاف من قبل.

ووقف فارجاً ساقيه مبتسماً ابتسامة ملتوية. و لم يعد يمسك يده الجريحة، ولا يبصق الدم الذي يملأ فمه.

وهيّأ نفسه لأن يتلقى الإهانة، ويتحمل الألم والعذاب، وسلاحه الوحيد في الدفاع هي هذه الابتسامة الجامدة. وفرغ الألماني ذو

الخصر الأنثوي من كلامه مشيراً إلى اوفتشينيكوف بهزة من رأسه. وأدار الألماني الجاف العود في مشمعه الأسود رأسه ببطء، ورأى أوفتشينيكوف تحت حافة عمرته الواطئة وجهة الجاف ذا الغضون العميقة الصارمة والعينين العجوزتين اللتين فقدتا لونهما.

وحدق الألماني طويلاً وفي تعب، حدق بالذات في شفتي أوفتشينيكوف المبتسمتين ببرود دون أن يرد عينيه عنهما، وشعر أوفتشينيكوف وكأن رعشة باردة تجتاح جسمه كله.

ثم قال هذا الرجل الجاف العود، في تعب وصوت زاعق شيئاً للألماني الجميل الممشوق الذي كان يمسك حقيبة أوفتشينيكوف في يده. وبعد أن أجاب ذلك بصوت خفيض فك الحقيبة في احتقار وكأنه يمس شيئاً من مخلفات رجل ميت. وطفق يخرج محتوياتها.

وأحس أوفتشينيكوف في تلك اللحظة وكأنهم يعرفونه.

وخاطب نفسه: «في الحقيبة خارطة لمواقع الرمي!».

وسحب الألماني الجميل الخارطة بحاشيتها المهلهلة. وأزاح الزجاجة بالسداد الخزفي الصيني والقدح المعدني على المائدة بأدب وحذر، ونشر الخارطة على الطاولة. نبش الألماني في الحقيبة. ثم وضع في تقطيبه أيضاً طاقية أوفتشينيكوف الصيفية العرقة التي أحالت الشمس لونها («لقد غرزت فيها إبرة وخيط»، – تذكر أوفتشينيكوف ذلك من دون أن يعرف سبباً للذكرى).

وإذ ذاك رماها الألماني على الأرض في ازدراء. ثم فك بأطراف أصابعه صرة ملفوفة بمنديل جيبي غير نظيف. وكان في الصرة كتافتا الملازم الاستعراضيتان المصنوعتان من الورق المعدني والدبابير اللامعة الاحتياطية (وكان أوفتشينيكوف قد طلاها بالنيكل في محل لتصليح

الساعات أثناء مقامه في المستشفى).

وقد رمى الألماني هذه أيضاً على الأرض ثم نبش الألماني في الحقيبة وأخرج بطاقة الضباط ورسائل مثلثة الشكل (رسائل من أمه من سفيردلوفسك) ووضعها على الطاولة. ثم أخرج قداحة ألمانية تالفة على شكل مسدس (لَمَ أخذها؟ لمَ؟) ونظر الضابط إليها في اندهاش، وكأنه يفتش عن ماركتها التجارية، وقال للأماني الجاف العود ذي المشمع الأسود شيئاً في ابتسامة ساخرة.

وظل الألماني هذا يثبت عينيه على خارطة أوفتشينيكوف المنشورة ويده المعروفة المقلمة الأظافر ما زالت مستقرة على المائدة.

وشعر أوفتشينيكوف بأنه ربما سينهار في أية لحظة - لأن ضربات في قلبه المريض، ورأسه الموجع كانت تصمّه، وكان لا يستطيع أن يتذكر: لَمَ وضع الخارطة في حقيبته لا في المحفظة المخصصة.

« لم أكن أريد هذا، لم أكن أريد! ماذا أفعل الآن؟ أن أسرع وأخطف الخارطة وأمزقها وابتلع الأماكن المؤشرة عليها؟..... اهدأ، اهدأ، اقترب قليلاً من الطاولة! في هدوء....».

وتقدّم خطوة نحو الطاولة وحركة الدم في صدغيه تطن، ولكن يدين دفعتاه من كتفيه إلى الوراء في نفس اللحظة. ومرة أخرى حدق الألماني الجاف العود ذو المشمع الأسود بشفتيه اللتين تفوران دماً.

واقترب من طرف السيارة رجل قصير القامة ركين البنيان يرتدي بدلة خضراء، يعدل من وضع مسدسه المتدلي من جانبه الأيسر، وتقدم نحو الطاولة ورفع يده بالتحية، وتكلّم بالألمانية.

وخلع الألماني الجاف العود ذو المشمع الأسود عمرته كاشفاً عن شعره الأشيب الخفيف، ونظر ببرود إلى خارطة أوفتشينيكوف وقال

شيئاً باقتضاب وتعب.

وتناول القادم الجديد بطاقة أوفتشينيكوف الشخصية، وقلب صفحاتها. وكان له شارب رقيق مستقيم في وجه كابٍ، وسالفان منحدران قرب أذنيه المضغوطتين مثل أذني الملاكم.

وعلى صدره البارز المشدود على بدلته وسام ألماني غير معروف لأوفتشينيكوف يشع ميناؤه في ضوء الشمس.

ونظر الرجل إلى أوفتشينيكوف متلمساً بعينيه المتحركتين السوداوين اللتين لمعتا في احتراس لا كراهية فيه، ووضع البطاقة على الطاولة وتكلّم ببطء وقد لاحت ابتسامة متعبة تحت شاربه النحيل:

- الملازم سيرجي ميخائيلوفيتش قائد الفصيلة النارية من البطارية الأولى من الكتيبة الأولى من فوج المدفعية ٢٩٥؟

واهتزّ رأس أوفتشينيكوف وكأنه قد تلقى رجة وهو يصغي إلى لغة روسية لا شائبة فيها، على نحو لا يستطيع الألماني أن يتكلّم بها. ونظر في دهشة إلى وجه الرجل الكابي الحليق بصورة جيدة وفهم من هو هذا المترجم.

ومن خلال شفتيه المبتسمتين ابتسامة معوجة جامدة، والدم يتحشرج في حنجرته سأل أوفتشينيكوف:

- روسي؟ أنت روسي؟

- أيها الملازم أوفتشينيكوف، أودّ أن أوجه إليك بعض الأسئلة، والأمر هو أن كلمات قليلة تستطيع أن تنقذ حياتك، وأحسب أنك قد فهمت ذلك؟.....

وسُمع صوت يتردد فوق رؤوس أشجار الصنوبر - خشخشة ثقيلة

متذبذبة تقترب من بعيد، – طارت قنبلة بعيدة المدى وكأنها نفخت وتنفست وشقت الهواء.

وبعد أن انفجرت القنبلة جاء هدير مصمّ للآذان من الغابة خلف البقعة.

ونظر أوفتشينيكوف باتجاه الهدير، وتملكته رعشة فرح وحشي، وفكر في أمل محموم: «هنا، أيها الأخوان الأعزاء، هنا يجب عليكم أن تقللوا الارتفاع شرطتين! يا إخوان، هنا!».

وتوجه الجميع برؤوسهم إلى الألماني ذي المشمع الأسود.

وكان وجهه الكابي الجاف لا ينم عن أي قلق. بل راح يمسّد شعره النحيف الأشيب بكف بيضاء، وقال للمترجم بصوت عالٍ وغليظ: «Schneller»، – وهزّ رأسه في برود للألماني الأنثوي الجمال – وهو في الظاهر مرافقه.

وفي الحال فكّ المترجم السداد الخزفي من عنق الزجاجة وصب في القدح المعدني شيئاً من ماء الصودا، وشرب الألماني الأشيب جرعات منه ببطء ووجه نظرة غاضبة إلى المترجم.

وتحركت عينا المترجم بكرم مفرط وطفق يتحدث بسرعة ثانية إلا أن أوفتشينيكوف لم يصغ إليه. وثبّت عينيه بالزجاجة ذات السداد الخزفي.

وتذكر فجأة بوضوح شاذ كيف حرروا معسكر اعتقال في بولندا فرؤوا جثثاً قد أحرقت نصف إحراق، ووضعت واحدة فوق الأخرى أكداساً مكدسة، وفي مؤخرة كل رأس ثقب رصاصة.

وقد عزلت جثث الرجال عن جثث النساء. وقد قال الذين بقوا

أحياء أن الألمان قد أطلقوا عليهم النار قبل انسحابهم آمرين إياهم بأن يستلقوا ووجوههم إلى الأسفل.

وقد استلقى الناس في إذعان، الأحياء على الأموات، والنساء في مكان والرجال في مكان آخر.

إن الخلق الألماني لم يسمح بأن يستلقي النساء والرجال في مكان واحد، فذلك يعد عدم احتشام. وكان الألمان، بعد كل ساعة دراسية، خمس وأربعين دقيقة – يتوقفون عن إطلاق النار وهم تعبون من الرمي وعرقون فيجلسون على العشب في الوقت المحدد بالضبط، ويشربون ماء الصودا.

وكانت هناك سلال من القش مملوءة بالزجاجات الفارغة موضوعة قرب أكداس الجثث أيضاً.

وقد رآها أوفتشينيكوف بعينيه. وأدهشه آنذاك لَمَ يذعن الناس فيستلقون منتظرين الرصاص، أتعبوا من التعذيب فرجوا أن يضعوا له حداً؟ وكان الناس ينتظرون وهم يشربون ماء الصودا....

وقف أوفتشينيكوف ينظر في إبهام إلى وجه المترجم الأسمر بشاربه الرقيق، وأسنانه البيضاء من تحته، ولم يعد يتبسم، إذ لم تكن له قوة على الابتسام. وعضّ شفتيه حتى دميتا – إن شيئاً ضخماً ثقيلاً قاتماً كان ينمو ويأخذ بخناقه، يكزّ على حلقومه، وكأنّ صرخة كراهية غير إنسانية وحنق وموجدة لا تنطفأ لها جذوة تريد أن تخرج من حنجرته، أما هو فقد ابتلعها كما يبتلع الدم.

«ماذا يسألني؟ ماذا يسألونني جميعاً؟ عمَّ؟ عن حقول الألغام؟ عن المدافع؟.... الخارطة على الطاولة. فلماذا لم أضعها في محفظتها؟ ولماذا صمتت المدفعية البعيدة المدى؟ يعني تلك النهاية.... النهاية؟

أمن الممكن أن يشقوا طريقهم إلى تشيكوسلوفاكيا؟ الخارطة على الطاولة..... في كل وقت كنت أفتقر إلى شيء في حياتي.... فماذا كان ينقصني في الحياة؟.... ماذا كان ينقصني؟....

– سأقول لكم كل شيء..... كل شيء.... فلا تقتلوني..... سأقول لكم كل شيء....

ولم يسمع هو صوته، فقد خرجت حشرجة من حنجرته لا غير. وخطا نحو الطاولة ورأى المترجم يشير بإشارة ما بسرعة وقد لاحت ابتسامة لامعة تحت شاربه.

ووضع الألماني الجاف العود ساقاً على ساق ورفع حاجبيه. وفي هذه المرة لم تمسك أوفتشينيكوف يدان من خلف كما حدث من قبل، ولم يوقفه أحد، ولم ير غير شيء واحد – مربع الخارطة الأخضر على الطاولة وهو يقترب منه، وتردد:

– سأقول لكم كل شيء.... سأقول لكم كل شيء....

واندفع نحو الطاولة وبسط يده وتحسس ورقة الخارطة الصقيلة تحت أصابعه بسرور خاطف. وفي تلك اللحظة قلبته على الأرض ضربة حادة على صدغه وصفرت في أذنيه، وشيء ثقيل قد هبط عليه، ومسك بحنجرته وأصوات كأنها وميضات في ظلال مظلمة "فيلي! فيلي!". وشعر وكأن سائلاً بارداً ينصب على رأسه. وقلبوه على ظهره. فأنّ ورأى الظلال المظلمة قد اختفت. ورأى السماء – محيطاً أزرق كئيباً، ووسط الزرقة وجه المرافق الأنثوي الحاد مائلاً يقارب بين رموشه. وصب على وجهه ماء من زجاجة ماء الصودا، وهو يدعو في عجالة شخصاً ما: "فيلي! فيلي!".

وبرقت في ذهن أوفتشينيكوف فكرة مثل خفقة ريح: "أنا ما أزال

حياً؟... أنا ما أزال حياً؟".

إن شخصاً ما جذبه من الأرض بقوة، وأنهضه على قدميه ضارباً إياه على يده الجريحة. والآن أعاده الألم المبرح إلى الوعي الصافي ولعق أوفتشينيكوف شفتيه وابتسم ابتسامة تشنجية.

ووقف على قدميه مترنحاً..... وقد أبقته قوة التشبث في الحياة حياً حتى الآن. وكانت أمام وجهه تماماً عينا المترجم القاتمتان العميقتان اللتان لا تطرفان ذواتا الحدقتين الوخازتين، وكان منخارا أنفه المستقيم متباعدين.

- أسألك للمرّة الأخيرة يا ليتنانت أوفتشينيكوف، للمرة الأخيرة.... أتسمع؟

وإلى جانب وجه المترجم ظهر وجه آخر عريض لحمي أرجواني متخم، وكأنه فرغ من طعامه من توه. وكان يترجم مقطب الحاجبين في تعاطف وجداني. وكانت طيات اللحم السميكة في الرقبة القصيرة الحمراء تتدلى على الياقة وحوافها السوداء.

وفجأة غمز هذا الوجه لأوفتشينيكوف بصورة غريبة. وانفرجت شفتاه الرخوتان عن ابتسامة، فظهرت أسنان ذهبية كامدة من الطعام. وكان الرجل يرمي مسدسه في كفه اللدنة الكبيرة ويلعب به. وفكر أوفتشينيكوف: "هذا القادم الجديد هو الذي سيقتلني". هذا الذي يسمونه "فيلي".

- للمرّة الأخيرة أقدّم لك سؤالاً.... أتسمعني؟

ففكر أوفتشينيكوف: "ها قد جاء...." وضحك ضحكة وحشية جائشة.

- زنيم.... ابن زنى! بعت وطنك بثلاث سكائر! - صاح أوفتشينيكوف، وكفّ عن الضحك، وصفع المترجم على ذقنه بيده اليمنى - يا مأبون!... لو سلختم جلدي لن أفوه بكلمة..... بأية كلمة! أفهمتم؟ - ثم ضحك ثانية ضحكة جشاء مرعبة وتوجه نحو الألمان. - أتظنون أنكم ستشقون طريقكم إلى تشيكوسلوفاكيا؟ لا! هذه نهايتكم! نهايتكم النهائية! فلن ينقذ زنيم واحد! أبداً.... أنتم كالفئران يجب أن نخنقكم.... كالفئران! لقد أحرقت لكم بنفسي عشر دبابات! هي هناك في الوادي تحترق!.... ولو.....

وغصّ، وخانه نفَسه. ورأى المترجم يمسح خده بمنديله بسرعة، ويتحدث بخنوع إلى الألماني الأشيب الذي بدا عبوساً يسوّغ ويبرر نفسه ويطلب شيئاً. وفي الوقت ذاته سحب مسدساً من قرابه.

والتفت ذو الوجه السمين الممتلئ وراح ينظر، وتقدم المترجم نحو أوفتشينيكوف وهو يسحب الأمان من مسدسه، ونظر بعينيه الضيقتين اللامعتين. ثم فاه بكلمات سريعة غاضبة للألمانيين الواقفين وراء أوفتشينيكوف فقاداه.

وصاح أوفتشينيكوف:

- تركض وراء ترقية، يا رذل؟... سترى بنفسك، يا مأبون، كيف يموت الليتنانت أوفتشينيكوف!

وسمع وراءه هتافاً مقتضباً باللغة الألمانية. وبدا كل شيء سهلاً عليه على نحو غريب. لم يضغط أحد على يده الجريحة. وفهم كل شيء، وأراد أن يلتفت ليرى ماذا يخبأ له من ورائه. وصاح بصوت مبحوح:

- أطلق عليّ في وجهي، أيها الخائن الحقير!

و لم يتح له الوقت ليستدير فقد سقط شيء في قرقعة ضارباً إياه على

جنبه وعلى صدره، وأحس بانضغاط خده على الأرض.

وإذ ذاك أراد أن يتذكر شيئاً واضحاً نقياً أزرق، شيئاً كان في حياته أو كان ينبغي أن يكون، ولكنه لم يستطع أن يتذكر....

و لم يعرف، و لم يكن قادراً على أن يرى ويحس ويعرف أن الشخص المدعو "فيلي" جاء إليه يتهادى في تلك اللحظة مبتسماً ابتسامة ذهبية، وخفض رأسه، ثم نظر إلى المترجم مقطباً بازدراء وأطلق بهدوء ومن دون استعجال، ثلاث رصاصات في وجه أوفتشينيكوف الذي كان في تلك اللحظة ما يزال حياً.....

الفصل التاسع

كانت المعركة في الشمال الشرقي لبلدة كاسنو تخمد ببطء.

ومثلما افترض نوفيكوف فإن القوة الضاربة من المجموعة الألمانية المحاصرة في ريفني التي أفلحت في كسر الحصار عنها لم تقدر أن تفتح ثغرة في تقدمها إلى الحدود التشيكوسلوفاكية، فاقدة قوة صدامها تحت نار المدفعية المركزة، مرتبكة في حقل الألغام. وتقهقرت، حفاظاً على ما لديها إلى الغابة على يسار المضيق وتخندقت في حاشية الغابة وظلت الدبابات المحترقة أمام المرتفع، وحاملات الجنود المدرعة، والسيارات المحطمة على الطريق العام تحترق ببطء وترسل دخانها حتى منتصف النهار. وما إن بدأت المعركة تهدأ هنا حتى أصبح في وسع المرء أن يسمع بوضوح قصف المدفعية الثقيلة القادم من كاسنو.

وارتفعت فوق البلدة غمامة سوداء مائلة محتلّة نصف السماء. وفي كل نصف ساعة وصلت من الشرق في هذه الضبابة جماعات كبيرة من طائرات الهجوم الصديقة، دائرة، منقضة على الشوارع، وقذفت قنابلها وأطلقت النار طويلاً على مركز البلدة كما يبدو.

وحاول نوفيكوف مرتين أن يتصل بنقطة قيادة كتيبة الميجور غولكو، فلم ينجح. وكان الجنود الذين أنهكتهم المعركة مستلقين في صمت قرب المدافع وقد شلّ النعاس حركتهم. وكانت الشمس دافئة، والجنود عطاشى حتى في نومهم. وكانت المرارة اللاذعة في أفواههم.

وعند انتصاف النهار جُلب لهم فطورهم في ترموسات.

وتململ الجنود وتثاءبوا في عصبية، وقرقعوا بقصاعهم، وحكوا التراب منها بحيوية. ولكنهم أكلوا عصيدة الدخن بتعب ومن دون نهم، وشربوا عليها الخمرة المزّة المغنومة. ونظروا خَلسَاً إلى البلدة المحترقة، وبعضهم نظر في ارتياب إلى رقعة السماء الصافية على نحو مدهش، والمشمسة الزرقاء فوق جبال الكاربات.

وفي الارتفاع الخريفي البارد الصافي للهواء الجبلي كانت تذوب الغيوم الرقيقة الصيفية البيضاء. وتحتها في الأسفل كانت أشجار الصنوبر مصفرة في نعاس وسكينة، وكانت البحيرة زرقاء لامعة فيها دفء شمس غير خريفي. وكانت حلقتها الضبابية متطامنة فوق رؤوس الغابات وفوق قمم جبال الكاربات الحادة.

ونظر الجنود إلى حاشية الغابة الوادعة الهادئة، هناك حيث تراجع الألمان، غير مصدقين هذا الهدوء الذي لا تعكر صفوه إطلاقة واحدة بهذا الألق المشمس، والدفء الحادب أمام المرتفع.

وأهدى لهم هدير المعركة الموصول في البلدة، وظهور الطائرات، شعوراً بالقلق مثل ضربة مسددة إلى ظهورهم بعناد.

وشاركهم نوفيكوف بهذا الشعور. لقد فقدت البطارية في خمس ساعات اثني عشر شخصاً ومدفعين. وفضلاً عن ذلك أدرك أن الألمان بمقتضى نجاحهم في الجنوب الغربي سيكررون ضربتهم من الشمال ضربة حاسمة لهم ولنا. كان يعرف ذلك، ولكن ترقب المعركة لم يكن سبب القلق الذي يستشعره نوفيكوف. لقد كان ينتظر القنابل التي وعد بها الميجور غولكو. غير أنه لم يتلق قنابل، و لم يفلح في الاتصال بمقر الكتيبة. وراود خياله فرض مفزع هو أن الألمان نجحوا في التغلغل إلى مركز البلدة فاصلين البطارية قاطعين خط الاتصال.

– حسناً... أفطروا جميعاً. وبحسب الأصول. لا تلحسوا... بل التهموا التهاماً حقيقياً! – قال نوفيكوف في مرح ظاهري كاذب. – وكلوا العصيدة، وتصوروا أنكم ستقضون ثلاث سنوات أخرى في موقف دفاعي!

وضع ريميشكوف، وعيناه مطرقتان، قصعة مملوءة أمام نوفيكوف، وقطع خبز الجودار ذا الرائحة على شكل شرائح خفيفة، ومسح الملعقة بعناية ولوقت طويل بقطعة نظيفة من الكتان.

وجلس نوفيكوف على مسند حاضن المدفع وتناول الملعقة، وغرف من القصعة ورفع الملعقة إلى فمه وقال في هزء:

– أصبحت مثالاً للجندي يا ريميشكوف. ولا ينقصنا غير غطاء المائدة. تمام؟ ثم أي... تقطيع أرستقراطي للخبز هذا؟ لك القطع الكبيرة، ولي الصغيرة – ماذا تحسبني؟... صبية جميلة؟ وكيف شهيتك، أيها الملازم الثاني؟

وتبسّم ومدّ يده إلى قطع الخبز الكبيرة التي وضعها ريميشكوف لنفسه على المشمع المنشور.

وأكل الملازم الثاني أليشين في شهية. وفجأة نظر بعينيه الصافيتين الزرقاوين متبسماً إلى وجه ريميشكوف المشدود، ودفع عمرته بمقبض ملعقته إلى قفا رأسه وأراد أن يسأل: "وأين حقيبتك؟" إلا أنه غصّ وسعل، ولتغطية اضطرابه سأل مخاطباً نوفيكوف:

– ما رأيك في شراب، أيها الرفيق الكابتن؟ أخذت معي شيئاً من الروم، – وفكّ الزمزمية من نطاقه بهيئة الرجل المحب للشراب الطلق الفكر.

وأجاب نوفيكوف:

- أفضّل أن أمتنع.... لا نشرب حتى صباح الغد.

- عبثاً إذن، - وتحسر أليشين في أسف مصطنع وأمعن النظر في زمزميته.... - نستحق ذلك بعد معركة كهذه. ومن دونها لا تدخل العصيدة إلى الحلقوم. لا! ولكنني سأشرب أنا قليلاً! ممكن؟ نخب الدبابات المدمرة، أيها الرفيق الكابتن! - وألقى رأسه إلى الوراء، وتجرع وقدّم الزمزمية إلى الجنود في مودة، وعيناه تشعان عاطفة: - من يريد منكم أيها الرفاق؟ هيا يا فتيان، لماذا كأنكم أموات؟ نخب الدبابات المدمرة! كل واحد جرعة!

و لم يأخذ الزمزمية أحد، ومضوا يمضغون الطعام بتعب، وعيونهم مثبتة في القصاع.

- أيها الغرباء الأطوار نخب الدبابات فقط! ماذا؟ أنبكي أم ماذا؟ - قال أليشين وقد احمرّ وطفق يحك القصعة بملعقته بقوة جعلت نوفيكوف يبتسم.

كان الملازم الثاني أليشين أكثرهم اضطراباً في المعركة التي وقعت حديثاً مع الدبابات فكان لا يفتأ يتحدث عنها، ويتذكر، ويعجب بالحوادث المفعمة بالإحساس التي مر بها أخيراً. إلا أن الجنود كانوا صامتين في غموض.

و لم يأكل بوروخونكو، بل حتى لم يمس قصعته. وكان مستلقياً على ظهره، ويداه تحت رأسه، يطوّف في السماء عينيه المصفرتين المتأججتين، وذقنه غير حليق موحل، وبنطلونه العسكري الملفوف على رجليه الطويلتين ممزق عند الركبتين. ولوى شفتيه وقال في همس:

- أحسّ حتى من لوحتي كتفي بأن الأرض تهتزّ، الدبابات هناك في البلدة. وقد شقت طريقها... - ورفع جسمه على كوع واحد

ونظر إلى نوفيكوف في حزن. - أن يموت المرء هنا لا في روسيا... حماقة.... حماقة كبيرة. وإن هجموا فستكون نهاية الفتيان. ولو نستطيع أن نسير إلى هناك، إلى المدفعين زحفاً، ونحمل الجرحى على ظهورنا إلى هنا. ها، أيها الرفيق الكابتن؟

ولاذَ نوفيكوف بالصمت، واستلقى بوروخونكو ثانية، وتابع السحب المتحركة في السماء مسترجعاً الذكرى وشفتاه مطبقتان.

ثم قال في أسى:

- لو كنت أعرف، أين سترقد جثتي لوضعت قشاً هناك.... نعم لحملت مع كومة قش، مثل ما يحمل ريميشكوف حقيبته.... نعم، حتى حقيبته اخترقت من جنبها برشق الرصاصات المتفجرة وخرجت كل محتوياتها كالمصارين.

وحك صدره بجهامة ورمق نوفيكوف الصامت بنظرة شزراء.

وجلس ريميشكوف قرب قصعة فارغة مقطعاً الخبز ملقياً إياه في فمه، وماضغاً على مهل.

وبالرغم من أن أوفتشينيكوف هو الذي أصدر أمراً بترك المدفعين، و لم يستطيعوا أن يخالفوا أمره، فتركوا الجرحى هناك، إلا أن هؤلاء الأفراد كانوا يفهمون ويشعرون بأنهم قد فقدوا قيمتهم الإنسانية بالنسبة إلى نوفيكوف وإلى الجنود أيضاً. فكانوا يستشعرون عدم اكتراث الجميع.

لقد قضى المسدد بوروخونكو عاماً بكامله يحارب مع البطارية، آتياً مع الإمدادات من مقاطعة جيتومير المحررة. وكان من قبل معلماً للحساب في مدرسة القرية. كان رجلاً طويلاً على نحو غير مألوف، ذا يدين وساقين طويلتين، و لم يكن كالآخرين من المناطق المحتلة طائعاً

على نحو مفرط وهادئاً. بل كان يتصرف باستقلال ذاتي واعتزاز بالنفس، وكان الناس يتحاشون النقاش معه. وكان هناك شيء في حياته أثناء الاحتلال جعله لا يخجل من شيء. كان بوروخونكو يطلق النيران بتسديد دقيق. وكان على الدوام يحتفظ في قادمة المدفع بعلبة من الصفيح فيها صبغ أبيض. وكلما أصاب دبابة يرسم حلقة بيضاء متقنة على ماسورة المدفع، ثم يقف منفرج الساقين، ويبدي إعجابه طويلاً بهذه العلامة في رضى ويقول للقاصي والداني: "– هكذا! عمل رائع. هنا الحاجة لعلم الحساب! وحدة لبيترو الصبي الغجري وميداليته!".

ومن هو بيترو الغجري؟ – لا أحد يعرف في البطارية.

وبالرغم من أنه قد منح وسامين، لم يعلقهما على صدره قط، بل كان يلفهما بقطعة قماش نظيفة ويضعهما في جيب الصدر من قميصه العسكري مثل أعلى كنز.

– لا يمكنني أن أنتظر، – كرر بوروخونكو ذلك وحك صدره الضيق ثانية داقاً عليه بأطراف أصابعه. – لا يمكنني أن أنتظر، أيها الرفيق الكابتن. لا اصطبار لي على ذلك، لياغالوف هناك. في وسعي أن أزحف إلى هناك وآخذ معي ريميشكوف.

فقال نوفيكوف بحدة:

– اسكت، يا بوروخونكو! فما أحراك أن تأكل عصيدتك، أنا لا أصدقك.

وشحب وجه بوروخونكو، وبدا الشعر القصير على خديه وذقنه أقتم من ذي قبل وسأل بصوت متوجس:

– لا تصدق؟ حسناً! والوسامان؟ هل أعطوهما لي جزافاً؟ أنا من المنطقة المحتلة! أليس كذلك؟

وأخرج عقدة صغيرة من جيب قميصه بازدراء، ووزنها في كفه، ولاح وجهه الطويل منطوياً في نفس الوقت:

- خذها إذن، أيها الرفيق الكابتن!

وقال نوفيكوف في هدوء باسطاً له يده:

- هات الوسامين، يعني أنني قد أخطأت....

- وكان قد رأى كثيراً من اليأس في الحرب، كما كان يعرف أن الرثاء للناس شيء ينبغي الامتناع عنه حين يطلبونه في لحظات الضعف. وبالرغم من أنه كان يرى في عيني الملازم الثاني أليشين في هذه اللحظة ارتباكاً ولوماً فقد كرر في جفاف:

- أعطني الوسامين. ولما كنت قد وقعت في خطأ، وقد أدركت أنت ذلك، فلا مكان لكلينا في بطارية واحدة. وبعد المعركة سأنقلك إلى بطارية أخرى. وأنت، يا ريميشكوف، ماذا تريد أن تقول؟

كان ريميشكوف يجمع القصاع في صمت ليغسلها فالتفت إلى نوفيكوف وعلى وجهه ذي الحاجبين الأبيضين تعبير عن ارتباك يائس، وقال بهدوء:

- عندما كنت أركض مع الملازم أوفتشينيكوف أوعز إلي قائلاً: "إذا قتلوني فقل للكابتن نوفيكوف بأننا دمرنا عشر دبابات. وأصاب بوروخونكو أربعاً. - وبلع ريقه وأشار باتجاه بوروخونكو. - وأعط أجهزة التسديد للكابتن".

- لم تكن هذه دباباتي، بل كانت لبيترو الصبي الغجري والوسامان له أيضاً، - همس بوروخونكو مخاطباً نوفيكوف أو نفسه، قابضاً على العقدة الموضوع فيها الوسامان براحة يده رامشاً بأهدابه المحروقة بالبارود. - ماذا أفعل إذن، أيها الرفيق الكابتن؟

- خبئ الوسامين قبل أن أغيّر رأيي، - قال نوفيكوف في برود.
- إن البطارية فقدت اثني عشر شخصاً في ساعات قليلة، وأنا لا أريد أن يصل الرقم إلى عشرين..... أيها الملازم الثاني أليشين، تعال معي إلى الخندق - الملجأ.

- ودخلا الخندق - الملجأ البارد الذي يفوح برائحة تراب رطب والتفت نوفيكوف إلى أليشين، ونظر في عينيه المزرقتين المضطربتين وسأل رأساً:

- يلوح من وجهك أنك تحاول أن تُفضي إليّ بشيء طوال الوقت. أنا مصغٍ إليك.

- لماذا أنت هكذا، أيها الرفيق الكابتن؟ لقد آذيته بالفعل. ولماذا؟ إنه مسدد رائع! - قال أليشين بحرارة، - أنا أضمنه! أيها الرفيق الكابتن، إنني واثق بك!... ولكنه كان على حق. أيمكن أن ننتظر؟ نصطبر؟ ما هذا، كيف تركنا الجرحى، أيها الرفيق الكابتن؟

قال نوفيكوف: ليكن في بالك، يا فيتيا، أنني إذا قُتلت.... وخلفتني أنت فانتبه إلى حالة كحالة بوروخونكو. إنها حالة عصبية. وقد بدأتُ مع أوفتشينيكوف. إذ لم يستطع أن يضبط نفسه حين كان يجب ضبط النفس.... هل فهمت يا فيتيا؟

- أنت الذي قتلته؟ - قال أليشين بشكل سؤال فيه نصف إثبات
- لقد رأيت ذلك.

فأجاب نوفيكوف ببطء:

- هذا لم أره أنا. لقد شعرت بأنهم كانوا يريدون أن يأخذوه حياً. فإذا كان قد وقع بين أيديهم وددت لو أني لم أخطئ الهدف.

– ألا تثق به؟

– ليست هذه هي المسألة.

– لقد أخذت أنت تطلق النار بدلاً من المسدد..... ألم تكن تثق به أيضاً؟

– مرة أخرى ليست هذه هي المسألة. هناك في الحرب لحظات ينبغي أن تؤدي فيها العمل بنفسك يا فيتيا.

وصمت أليشين وانعقد حاجباه قليلاً. وكان شعره الكستنائي مسترخياً في براءة على جبينه الناصع المكشوف الذي لا تظلله حافة عمرته الزاحفة إلى الوراء. إلا أنه لم يكن في مظهره الكلي مندفعاً في غير اكتراث، كما كان من قبل، حين عاد بعد المعركة من المدفع مفعماً بالفرح والخيلاء الصبيانية لأن طقمه أصاب أربع دبابات. وفكر نوفيكوف في نفسه: لقد كان أحدهما قريباً إلى الآخر لأعوام. ومع ذلك كان ثمة شيء يفصلهما بشدة. والأمر أنه كان يشعر بأنه أكبر سناً بكثير من أليشين، وثارت في نفسه رقة غريبة نحوه. وفكر نوفيكوف: "إنه احتفظ بما ضيعته أنا – أن يعيش بالانطباع الأول. وهذه إمارة على الصبا. فكيف أحتفظ بذلك؟ ربما لأنه قضى عاماً إلى جانبي واستطاع أن يحتفظ بما ضيعته؟ أهو كذلك؟".

وقال أليشين مرة أخرى: إنهم يفتقرون إلى قنابل، أيها الرفيق الكابتن. خمس قنابل شيء لا قيمة له تقريباً. ولينا هناك.... مع الجرحى أيضاً. ولو ضغط الألمان علينا من المضيق ثانية فلن يتسع لنا الوقت لإنقاذهم!.... ويرعبني أن أفكر بماذا سيفعلون بلينا.... لقد رأيت ذات مرة ممرضة أخرى.... – ثم سأل بحمية: – لماذا أنت تتأنى، أيها الرفيق الكابتن؟ لماذا لم تصدر أمراً بنقل الجرحى؟

وكان نوفيكوف يدخن وينظر من خلال دخان السيكارة إلى أليشين، وظل صامتاً.

ثم فكر ثانية متذكراً حديثه مع غولكو مؤخراً: "هو، خلافاً عني، لا يفهم غير الطيبة في المظهر النقي. وهو لا يقدر على أن يخفي ما ينبغي أن يخفيه في نفسه في بعض الأحيان. و لم يتعلم الانتظار والصبر. دخل الحرب في وقت متأخر جداً فليس في وسعه أن يفهم أن إبداء الرقة في بعض الأحيان، ومحاولة وقف آلام قليل من الناس على الفور يمكن أن يؤدي إلى خسائر لا مسوّغ لها. وقبل عامين كنت أنا نفسي أرى غير ذلك".

– ينبغي أن تفهم أنه لا يجوز أن نظهر للألمان بأن مدفعي أوفتشينيكوف قد دمرا. وسنفعل ذلك إذا ما بدأنا بنقل الجرحى في النهار، أي الآن. هناك أناس وهذا يعني أن المدفعين موجودان. خمس قنابل ليست قنبلة واحدة، إنها تعني خمس إطلاقات على المعبر، على الدبابات. وإنني لأشعر، يا فيتيا، ونحن في هذه البلدة البولونية بأننا سنضع لهذه الحرب أوزارها، كما يبدو لي. ألا تشعر بمثل هذا الشعور؟ ولو قدّر للألمان أن ينفذوا إلى تشيكوسلوفاكيا فإن هذا يعني أن الحرب ستستمرّ ساعتين أو ثلاث ساعات، أو أربعاً وعشرين ساعة أخرى. فهل هذا واضح لك؟ وفي المساء سنتخذ قرارنا بشأن المدفعين. والآن سر إلى موقع الرمي. أريد أن أستريح قليلاً.

وفك الزر الأعلى من قميصه العسكري، وحل النطاق واستلقى على القش، وهو يسمع خطوات أليشين يخرج في ارتباك. والآن فقط أحس بالتعب الشديد يثقل على كل جسمه. وكانت عيناه تؤذيانه بعد ساعات التوتر، وعضلاته توجعه، وقدماه تلتهبان في حذائه الطويل من الجلد الرقيق. ولكن لم تكن له رغبة في أن يتحرك، في أن يتمتع بخلع

حذائه المشدود. وأغمض عينيه – وومضت إيماضات نار، واندفعت في صدره دفقات من الهواء الحار، وبلغ سمعه صوت خافت غير واضح: "هناك قرب المدفعين جرحى.... أين أوفتشينيكوف؟ قتل؟ وبوغاتنكوفقتل، وكولوكولتشيكوف قتل.... قتل؟ ولينا؟ قتلت؟ لا يمكن....".

ومن خلال الفوضى من الايماضات، والصوت غير المعروف له، وفي صراع مؤلم للتغلب على النعاس حاول أن يتذكر ويرسم وجهها في مخيلته كيف كان وهي حية. "ولكن ماذا؟ لماذا هي هنا؟" لقد كان واقفاً قرب سياج تحت مصباح الشارع، والسكون مسيطر، والثلج يتساقط. وتقدمت هي نحوه بخطى قصيرة في جرأة وصراحة، مستعدة لكل شيء، وتكاد أن تترنح، ومعطفها يتموج مع مشيتها. ولكن متى كان ذلك؟ في الطفولة؟ وأي هذيان هذا! هذه رسالتها الأخيرة التي يحملها معه على الدوام. "أنت بالنسبة إليّ قد خرجت من عالم الأحياء، لقد مت. وقد جالسته أنا إلى طاولة واحدة، ثلاث سنوات، في قاعة المحاضرات رقم ٥.

أتتذكر ذلك؟ وكنا نستعد سوية للامتحانات وقد ألفته. وكان عليّ أن أخبرك بذلك رأساً، يا ديما، أتصدق...".

"يا للروعة!..... لأول مرة تقول رأساً. فالصراحة أحسن الأشياء... شكراً لك، يا عزيزتي لينا.... هل قتلت؟ لا يمكن! من الذي قال ذلك؟ الملازم الثاني أليشين؟ ولكنه لم يعرف قط لينا تلك وذلك المصباح، والثلج... أنا لم أتحدث عن ذلك قط. فمن أين عرف؟".

واختفت الايماضات. وخنقه شيء ثقيل لزج، وهبط إلى صدره.

وأحس في نومه وهو يختنق بقلق قاتم وبفزع كئيب لا يحول. وطفق يئن وقد غطاه العرق وكأنما دسّ في زكيبة ألهبتها الشمس. وانقلب إلى جنبه وهو يحس بعدم ارتياح جسماني. وفي اللحظة التي أفاق فيها من سلطان النعاس فهم بشكل مبهم سبب عدم ارتياحه الجسماني – كان حذاؤه الضيق والشائك يلهب قدميه. وحاول أن يعيد إلى ذاكرته حلمه الغامض المشوش، وثبت كعب حذائه على بوْر الآخر يريد خلعه، ويشعر بالراحة مرة أخرى. إلا أن صور الحلم المضطربة ظلت في مخيلته و لم تبرحه.

وأعادته الأصوات العالية والحركات قرب الخندق – الملجأ إلى اليقظة نافضة عنه بقايا النوم.

وقعد، ومد يده بحكم العادة إلى نطاقه الذي يشد عليه مسدسه. وهزت الخندق – الملجأ سلسلة من الضربات البعيدة.

وصاح:

– ماذا هناك؟ – وتمنطق بحزامه بحركة آلية وعدّل من وضع قراب مسدسه. وخطا إلى الباب ساحباً السترة المشمعة التي تدلت على الباب. وخامرته الهواجس بأن شيئاً ما حدث للمدفعين وللينا.....

كان الملازم الثاني أليشين واقفاً عند المدخل، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة. والظاهر أنه جاء راكضاً من موقع إطلاق النار.

– ما الذي حصل؟ المدفعان؟ لينا؟ – سأل نوفيكوف بسرعة وقد ارتبطت هذه الأسئلة في داخله فكانت كلاً واحداً لسبب ما.

وكبح أليشين تأثره البالغ، وأبلغه بسرعة:

– هو بيتين، أيها الرفيق الكابتن، جاء من غولكو....

هناك، جهنم بعينها.... الدبابات اخترقت المركز. أطلقت على سياراتنا، وحرقت واحدة.

– أي سيارات؟

– بيتين هناك في موقع الرمي، أيها الرفيق الكابتن.... جاء بسيارة. وهو في انتظارك. يجب الحذر فقد ظهر هناك رماة الرشيشات والقناصون. هم يضربون المدفع – لا نعرف من أين. هؤلاء الأراذل!

– هيا بنا!

خرج نوفيكوف من الخندق – الملجأ نصف المظلم إلى الهواء الخريفي الطلق، إلى خندق المواصلات الفياض بضوء الشمس، وأوقفه أليشين في نفس اللحظة محذراً:

– انحنِ، أيها الرفيق الكابتن. هنا أحكموا رميهم.... لقد أطلقوا عليّ حتى كادوا يصيبون عمرتي. انظر هناك!

وأراه نقطاً بيضاء – آثار الرصاصات على أطراف الأخشاب المدورة البارزة من الأرض.

– من أين يطلقون النار؟

– انحنِ، أرجوك، أيها الرفيق الكابتن!

إلا أن نوفيكوف قبل أن ينحني طوّف ببصره في البحيرة الهادئة المشمسة، وحقل الألغام أمام المرتفع. في المنخفض العميق كان دخان يتصاعد من الدبابات السوداء المحترقة، وكانت غابة الصنوبر الوادعة وآكام مواقع أوفتشينيكوف مصرة في الشمس الخريفية. وكان الهدوء هنا مرهفاً دافئاً غريباً ومنذراً، إلا على يمينه وخلفه في المكان الذي تقع فيه المدينة فأصوات المعركة تزداد وتتمازج. وكانت جماعة طائرات

الهجوم الصديقة تخرق الجدار الدخاني القاتم فوق المدينة بهدير محركاتها منقضّة على الشوارع، باصقة الشرر من مدافعها. وكانت القنابل التي تنفجر في تشنّج وصوت صارخ يغطي على كل شيء، تهزّ الأرض هزّاً.

– انحنِ، أيها الرفيق الكابتن!. أرجوك، أنت..... – وقبل أن يتمّ أليشين كلامه انخلعت قطعة جافة من طرف الخشبة المدورة فوق رأس نوفيكوف. والتفت – وقعت الرصاصة على الرصاصة بإحكام – ونظر بالاتجاه الذي جاء منه صوت الطلقة وكأنه ينفقع، هناك في السكون الشمسي الأزرق أمام المرتفع.

وتلاشى صوت الطلقة من دون أن يترك أثراً، إلا أنّه لاح لنوفيكوف أن محل الإطلاق غير بعيد.

ينبغي أن نكتشف موقع ذلك السافل.... – قال نوفيكوف ذلك، وأحنى رأسه قليلاً، وسار عبر خندق المواصلات.– خذ على عاتقك ذلك، يا فيتيا، وإلا فسيلتقط الأفراد واحداً بعد واحد. هل تسمعني؟

فأجاب أليشين بحنق:

– ليس هذا واحداً.... إنهم انتشروا كالصراصير، وهم يطلقون النار من كل الجهات!

كان بيتين مرافق غولكو يجلس في موقع الرمي محاطاً بالجنود، وهو يسند ظهره العريض إلى السترة الأمامية في وهن. وكان كبير الحجم، وكانت قدماه الكبيرتان في حذائه العريض المغبر ممددتين أمامه، كان يمسك قصعة بكلتا يديه ويشرب بجرعان صاخبة ويتنفس من منخريه. ونزلت قطرات الماء على قميصه الممزق، وعلى شرائط الميداليات القذرة. وحين رأى نوفيكوف وضع القصعة على الأرض

مطرطشاً الماء منها، وحاول أن ينهض محركاً قدميه فأوقفه نوفيكوف:

اجلس! ماذا في المدينة؟ قل لنا بتفاصيل أكثر. ثم ماذا جرى لعينك؟

كان الجانب الأيمن من وجه بيتين الكبير وارماً بشكل قبيح لا يعرف به، والدم يخرج من تمزقات صغيرة. وكانت إحدى عينيه حمراء وكأنها قد أصيبت بكدمة، وكانت دامعة ومنتفخة. مسح بيتين الدمع ووضع عليها أصابعه العريضة، ونظر بالعين السليمة الهادئة والصافية بشكل غريب إلى الجنود بتردد. وفهم نوفيكوف ذلك فحثّه قائلاً:

– تكلّم أمامهم. ينبغي أن يعرفوا كل شيء. ماذا؟ هل دخلت الدبابات المدينة؟

– اخترقت.... إلى المركز،– قال بيتين بصوت أجش ومرة أخرى جرع عدة جرعات من القصعة. وقطعوا خط التلفون... وأرسلني الميجور غولكو إلى نقطة الذخيرة لأقود اللوريات إليكم – وشحنا اللوريات بالقنابل، وقد خرجنا من شارع جانبي في المركز إلى الساحة، ورأينا قرب الكنيسة دبابات. فظننت أنها دباباتنا.

ففتحوا علينا فجأة نيران مدافعها. وكنت جالساً إلى جانب السائق. فتناثرت الشظايا على الزجاجة الأمامية، وطار شيء إلى عيني. وهي لا تؤلمني الآن، إلا أنها دامعة ومحمرة....

وصمت بيتين، وحكّ عينيه على نحو مرتبك، وأشار في أسى إلى مزقة في قميصه العسكري.

– وخدش هذا بمقبض باب السيارة. عطلوا سيارة واحدة، جلست على إطارين في الحال. وهرعنا نحن إلى زقاق جانبي وانطلقنا نحوكم. وها هي رسالة لكم من الميجور، أيها الرفيق الكابتن. اكتب الجواب عنها.

– وأخرج بيتين من جيبه كيس تبغ، تناول منه رسالة صغيرة مطوية بإتقان، ونفخ ذرات التبغ عنها، وقدمها إلى نوفيكوف.

ففضها نوفيكوف ورأى فيها بضع جمل كتبها الميجور غولكو بخطه الواضح الدقيق: "أرسل مع بيتين الذخيرة التي وعدتك بها. ليس لنا اتصال تلفوني بك. تهيأ للدفاع من كل الجهات. وحافظ على حياة أفرادك. واصمد، يا فتاي الصغير، وأعدك بأن الوضع سيكون أسهل. ميجور غولكو".

ففكر نوفيكوف: "ما نفع هذه العواطف الآن؟" وقطب حاجبيه، ودس الرسالة في جيبه. وقال:

– ليس عندي الوقت لأكتب رسالة له. فأخبره بأن البطارية قد فقدت اثني عشر رجلاً ومدفعين. وأوفتشسينيكوف مفقود. وسنهتم بالدفاع من كل الجهات. وشكراً على القنابل. أين اللوري؟

– هناك، في الأسفل، عند سفح المرتفع، – ورمشت عينه الحمراء المنتفخة في شيء من الألم. وسأل في اضطراب وقلق هذه المرة: – وماذا عن الجواب، أيها الرفيق الكابتن؟ اكتبه. عندي قلم.

ولم ينظر إليه نوفيكوف.

– الجميع إلى اللوري، اخرجوا من موقع الرمي زحفاً، واجتازوا الأماكن المكشوفة بوثبات. اجلبوا القنابل إلى المدفعين! – أمر نوفيكوف بصوت خفيض، وهو ينظر إلى الجنود الذين أخذوا يتحركون. – أما أنت، يا بيتين، فمن الضروري أن تذهب إلى المستشفى. ولا تحك عينك. ليست هذه مجرد ذرة صغيرة وقعت في عينك. ومن المؤسف أن ممرضتنا ليست معنا الآن. ومن الأحسن لو تضمد....

وبينما كان يقول ذلك تذكر فجأة حدقتي لينا القريبتين الدافئتين

في عينيها الداكنتين الجذابتين العميقتين اللتين ترتجف أهدابهما عند الضحك، ولمسات أصابعها الخفيفة الباردة لجبينه:

"لا تنظر إلى شفتي، فلا شيء فيهما.... بل انظر إلى عيني! هيه؟".

وذات مرة تطايرت إلى عينه ذرة خلال الرمي، وقد أخرجتها لينا. كانت تجيد ذلك، ولكنها حينذاك أيضاً كانت تثير نوفيكوف بتحديها المزدري.

– هل عندك حزمة الضماد الفردي؟ أعطينها. اخلع طاقيتك، – أوعز نويكوف لبيتين.

وبعد أن انتظر في نفاد صبر، وبيتين يفتش بيده في جيوبه من دون رضى، ويخرج حزمة موحلة مغطاة بقطع التبغ، فضّ نوفيكوف الحزمة واقترب من بيتين وراح يشد الضمادة بغير إتقان ولكن بسرعة. فبدت نظيفة بيضاء باهرة على وجه بيتين الكبير الذي لوحته الريح كثيراً. وأحنى بيتين رأسه عرقاناً فحا من فمه. كانت عينه الوحيدة تطرف في وجه نوفيكوف بارتباك:

– حسناً، وما الحاجة إلى المستشفى، أيها الرفيق الكابتن؟

قذاة دخلت فيها. ستشفى. فلمَ كل ذلك؟ ينبغي عليَّ أن أعود إلى الميجور غولكو.... شكراً لك، أيها الرفيق الكابتن! لا يليق ذلك والمكان....

– الموت والإصابة لا تليقان دائماً.– قال نوفيكوف ذلك وهو يعقد طرفي الضمادة، ودفع بيتين بلطف وأضاف: الآن اجرِ إلى الميجور. عليك أن تحني هامتك وتهرول. – وتبسم ابتسامة خفيفة من زاويتي فمه: – أنت بالنسبة إلى القناصة هدف كبير.

– هيا! اجرِ!

– ليسعدكم الحظ....

ونهض بيتين ثقيلاً يعدل من وضع قميصه العسكري بعناية، وزرر السترة الأمامية، ثم طأطأ فجأة هامته في وضع غير مريح، وأمسك بأصابعه المتباعدة المداليات على صدره، وهرول ثقيلاً على المرتفع باتجاه المنحدر الذي اختفى وراءه الجنود المرسلون لجلب القنابل.

وصاح نوفيكوف: زحفاً! أتخاف على قميصك؟ استلق!

وفي الخلاء المشمس أمام المرتفع، حيث الدبابات ما زالت تدخن، ارتفع صوت إطلاقة، وومض وميض أزرق من الرصاصة المتفجرة تحت قدمي بيتين. رفع هذا جسمه الضخم وكأنه متعجب جداً، والضمادة النظيفة تلوح ساطعة على رأسه، ونظر بالاتجاه الذي جاءت منه الإطلاقة. ثم لوح بيده تلويحاً أخرق وركض متدحرجاً على المنحدر.

وفكر نوفيكوف: "هل أصابوه؟ لا، غير ممكن، لم يصيبوه!" متتابعتين. فإنه في المرة الثانية يقتل.

وهنا ألزمه صوت الملازم الثاني أليشين القوي الواضح على الالتفات.

– أيها الرفيق الكابتن، يبدو أنهم يطلقون النار من تحت تلك الدبابة المصابة! ألا تراها؟

وكان أليشين الحاسر الرأس، وشعره الكستنائي يشع في ضوء الشمس، مستلقياً قرب السترة الأمامية محدقاً بنقطة أمام المرتفع في الدخان الأبيض الذي يطوف في المنخفض.

وأمر نوفيكوف:

– هيّا إلى الرشاشة.... ثم أرني مكانه!

وفي خندق نقطة المراقبة تخطى نوفيكوف جنود الإشارة النائمين، وسأل الكشاف الذي كان في نوبته قرب الرشاشة:

– هل لاحظت من أين يطلق القناصة؟ – ولم يصغ إلى صوته الناعس: "الشمس تنعكس في عيني تماماً"، بل حمل الرشاشة الخفيفة من السترة الأمامية مغيّراً موضعها إلى الطرف البعيد لخندق المواصلات وثبتها على الحافة.

واستلقى أليشين وصدره على جدار الخندق، وهمس:

– على يمين مدفع أوفتشينيكوف، على حقل الألغام – دبابة مصابة، مدفعها مصوب نحونا تماماً، هل تراها؟ يطلقون من هناك.

وكان ذلك في نفس المكان الذي جرح فيه أوفتشينيكوف.

وقال نوفيكوف:

– دعنا نجس نبضهم.

وأطلق رشقتين قصيرتين من رشاشته أثارتا غباراً بالقرب من سلسلة الدبابة المصابة. وإذ ذلك صدر صوت طلقتين خفيضتين من تحت قعر الدبابة. ونظر سريعاً إلى المرتفع يميناً وإلى الخلف في المكان الذي أطلقوا النار فيه على بيتين. ورأى شخصاً واطئاً ممتلئاً قصير الساقين. وقد هرول نحو موقع الرمي هرولة متراخية، من دون أن يحاول إخفاء نفسه، بالرغم من أنه كان مكشوفاً.

وأطلقوا النار عليه. وصاح نوفيكوف ملتفتاً إلى أليشين وإصبعه ما تزال على الزناد:

– أبناء الـ..... لماذا يتسكعون هناك؟ من هو؟ رتب نظاماً! لعله شخص قادم من غولكو مرة أخرى!

وأسند كوعه على نحو مريح أكثر، وضغط كتفه على أخمص الرشاشة وأطلق ثانية رشقتين قصيرتين تحت قعر الدبابة وسمع صيحة خافتة صدرت من أليشين: "استلق.... ازحف! من أين أنت؟" وإذ ذاك صفرت رصاصات عدة في أذن نوفيكوف برقة وانتقام، وأدرك الموقف: إنهم يطلقون النار عليه الآن. واضطرم في نفسه شعور الانفعال المعتاد وأمسك على الأخمص بقوة أشدّ، وصوب مستعجلاً.

وأطلق مخزناً بكامله على المكان الذي يطلق منه القناص الألماني النار. وحينذاك فقط نزع الرشاشة من مكانها ووضعها في مكان آخر، وصاح على الكشاف:

– مخزن آخر!....! أسرع!

كان هناك شخص ممتلئ وسميك حتى عند خصره، منحني الرأس في هيئة نطاح يسير بصحبة الملازم الثاني أليشين من المدافع في خندق المواصلات، وكان له وجه مربع قرمزي وحاجبان مقطبان بعناد، ومن هذين الحاجبين والسمنة واللون القرمزي عرف نوفيكوف باندهاش كابتن خدمة التموين الذي اصطدم معه في الفيلا.

وهتف نوفيكوف:

– آه، المعتمد! ما الذي جاء بك إلى موقع الرمي؟ تجرب حظك؟ أم ضجرت من القناصة؟– وتبسم لأليشين الجدي المقطب.– أسمعت يا فيتيا؟

واقترب ضابط التموين متعثراً من عجالته.

- أيها الرفيق الكابتن، لقد جئت لاستلام سلاحي. أرجوك أن ترد إليّ سلاحي، إنه مسجل بحسب رقمه....- ردد الضابط ذلك وهو ينظر إلى صدر نوفيكوف.

فنصحه نوفيكوف:

- اجلس!

وجلس المعتمد، ونفخ، ومسح بمنديله رقبته السمينة ووجهه الملتهب وذقنه. فعل ذلك وهو يرفع يده ويخفضها فلاحت بدلته ضيقة عليه وتشده تحت إبطيه. وقال نوفيكوف بلهجة نصف مازحة:

- حسناً.... إذا أردت فأنا أقدم اعتذاراً. فالذي فات فات. - وخذ من الفيلا كل ما هو ضروري للكتيبة الطبية:

- أغطية، بياضات، نبيذاً، أرزاقاً - وعلى الطائر الميمون!

وأنصحك بأن تبتعد عن المدافع زحفاً وإذا لم تفعل ذلك أوصلناك نحن إلى الكتيبة الطبية لا العكس. هذا كما يبدو لي كل ما في الأمر.

وجاهد المعتمد ليسترد أنفاسه، وتصبب العرق من وجهه.

وكانت ياقته الداخلية متعمقة في رقبته وقائمة من العرق. وكان جفناه منتفختين.

وقال بصوت خفيض:

- عندك مسدسي من طراز "ناغان"، أرجوك أعده إليَّ.... فلا يجوز أن يظل الضابط بلا مسدس.... إنه مسجل بحسب رقمه، في وثيقة خاصة بذلك.....

قال نوفيكوف:

- أيها الملازم الثاني أليشين، أعد إليه سلاحه! من طراز "ناغان"! لماذا لا تغنم مسدساً من ماركة أحسن، ولو من طراز "بارابللوم" آخر الأمر.... أليشين لماذا تتوانى؟ أعد إليه المسدس.....

وحول أليشين بصره إلى ضابط التموين في كراهية وأخرج من حقيبته، على مضض، مسدساً ضخماً من طراز "ناغان" وأرجحه بيده ثم قال فجأة في ازدراء وقد احمر وجهه:

- أيها الرفيق الكابتن.... إذا كان كل من في المؤخرة يبدأ....

فقاطعه نوفيكوف:

- أعده إليه!

قال الضابط في لهاث:

- شكراً. لقد احتددت أنا الآخر... أنا سعيد بمعرفتك، أيها الكابتن.... إذا احتجت إلى شيء ما....

فأجاب نوفيكوف بلطف: أنا لا أجيد كلام المجاملة.

- حسناً.... ليكن كذلك. ممكن أن نلتقي....

ودفع الضابط المسدس إلى قرابه، وأدار ظهره السمين، وسار بمحاذاة الخندق مطأطئاً رأسه، رامقاً بنظره الحقل حيث يرتفع الدخان فوق الدبابات.

وصاح أليشين خلفه بصوت مغيظ:

- أما على المرتفع فزحفاً! زحفاً! أسرع!... - ثم قال لنوفيكوف في سخط: - لقد لاطفت دلدولاً، أيها الرفيق الكابتن! إنه دولاب المؤخرة، ليس إلا!

وفي تلك اللحظة دفع نوفيكوف بقوة مخزناً جديداً في قمطة الرشاشة. ثم نظر في إمعان باتجاه البلدة. كانت كتلة الدخان الكثيف السوداء التي كانت تدوي وتتعاظم وتغلي ملبدة وجه السماء تقترب منهم، وتتدلى فوق المرتفع. وما شعره نوفيكوف وأدركه هو أن ما حدث منذ دقائق يبدو شيئاً صغيراً هزيلاً عديم الأهمية بالنسبة إلى ما هو مقبل نحوهم.

– أيها الرفيق الكابتن، جرح رجل من التشيك. وكان ذاهباً إلى المشاة يحمل ترموساً! هناك، انظر، وقد أصابه القناص في صدره.

– أين هو؟

– في موقع الرمي.

– هيا نذهب إليه!

كان يجلس بالقرب من المدفع تشيكي شاب في بدلة جديدة ما زالت لجدتها تحفّ حفيفاً. حاولت عيناه النديتان الخائفتان أن تبتسما لنوفيكوف. وكان زغب أبيض يغطي شفته العليا المنتفخة وقد تناثرت قطرات العرق عليها. وقد وضع أصابعه الفتية النحيلة على صدره وكأنما يمسك بشيء ما لا يريد أن يفكه. وكان الترموس قرب قدميه. وكان ريميشكوف يقرفص على مقربة منه يفضّ حزم الضماد الفردي وينظر في إشفاق إلى وجه التشيكي الصبوي متأوهاً آهة امرأة ريفية وبلهجة سريعة:

– آوه.... بأي شيء أصبت، بأي شيء أيها الرجل العزيز؟ لعلك لم تكن على حذر في أمرك، إنهم أحكموا النيران على كل شيء هنا، أكنت ذاهباً إلى زملائك في المشاة، يا ابن بلدتي؟ أتفهم، أتفهم الروسية؟

– صباح الخير....– همس التشيكي بلغته الأم وهو ينُود برأسه بسرعة. ورفع يديه عن صدره لحظة ثم أعادهما ثانية وكأنه يصلي.

– سرية.... غـذاء.... أنا تر – ر– ملف سلك التلفون، جندي الإشارة.... سرية سادسة....

ونظر إلى وجه ريميشكوف بصفاء وكأنما يتوسل إليه أن يفهمه. وكانت لطخة قاتمة تنتشر في قميصه وتلطخ أصابع التشيكي صامتاً.

– انقل الترموس إلى السرية التشيكية السادسة، وأخبرهم بأن جندي الإشارة مجروح.

– ماريتسي، ماريتسي، متمردون، – همس التشيكي بذلك من شفتين رماديتين حين أخذ نوفيكوف يضمده بمعونة ريميشكوف.

وكان ينظر إلى هناك خلف البحيرة حيث تمتد تشيكوسلوفاكيا.

الفصل العاشر

ووضح عند المساء أن الألمان قد استولوا على مركز المدينة وعزّزوا هناك مواقعهم. و لم يخبر أحد من الكتيبة نوفيكوف بأن المعركة دائرة في الشوارع، ذلك لأن الاتصال قد قطع. وحاول جنود الإرسال ثماني مرات إصلاح الخط، ولكنهم عادوا من البلدة عند الغسق ووجوههم ملتهبة وعيونهم فارغة. وأعلنوا بأنهم اصطدموا بدبابات ألمانية وأن البلدة تحترق، وأن لا شيء واضح، وليس هناك إمكانية لإعادة الخط لأنه مقطوع. وبعد ساعتين جاء راكضاً سائق من فصيلة التموين في منتزه الفيلا.

وقد أعلن، وهو يرتجف من شدة الانفعال، بأن الفيلا والمنتزه قد أطلقت عليهما النيران من رشيشات مجهولة المواقع وقد قتل حصان وجرح سائق عربة. وبعد أن أخبر ذلك سأل في ارتياب:

"ربما يمكن تبديل موقعها والتراجع قليلاً؟" وكان نوفيكوف يعرف بأن ليس هناك الآن مكان لا خطر فيه تنقل إليه المؤخرة فأمر بأن تتخندق فصيلة التموين – الجميع من سواق العربات حتى الطباخ – في الجنوب الغربي لطرف المنتزه.

وقطع وهج مهلهل ثغرة في السماء، امتدت نحو كيلومترين وتحرك فوق البلدة. وكانت سلاسل رشقات الرشيشات تنفذ هناك، خلال الدخان المتوهج. وكانت قنابل الدبابات تطلق على الضاحية بهدير طويل. وفي لحظات كانت انفجارات القنابل الكثيرة الخافتة تغطي

جميع هذه الأصوات - كان يسمع هدير قاذفات القنابل الثقيلة الصديقة المحلقة على ارتفاع عالٍ، وكانت صواريخ التنوير الكاشفة غير الضرورية التي تلقيها تلك الطائرات تهبط مثل قناديل البحر، بهدوء وبطء فوق البلدة المحترقة.

وكان انعكاس الوهج يرتمي، كما كان في الليلة الماضية، على المرتفع حيث كانت مواقع المدافع، وعلى يسار البحيرة، وعلى خطوط الأدغال عند الشاطئ، وعلى هياكل الدبابات المتفحمة المحترقة في المنخفض. وكانت صواريخ التنوير تنطلق باستمرار من خنادق المشاة التشيكوسلوفاكيين وتضيء حقل الألغام خلف المنخفض الذي كان الألمان في الغابة وراءه صامتين في الخفاء.

وكان ضوء الصواريخ المتناثر يضعف ويظلم في انعكاس الوهج.

وكان اللمعان البعيد الصادر عن القمر الأحمر الملتهب وهو يرتفع فوق قمم جبال "الكاربات المشجرة" ينطفئ في الدخان. وكانت الريح تحمل من البلدة رائحة الرماد المرّ والهواء الحار. وكان يبدو لنوفيكوف أنه يشعر على شفتيه بطعم حديد محترق.

بعد الساعة الثامنة مساء جمع أفراده في موقع إطلاق النار، وجلس على مسند حاضن المدفع وهو يمسك بين أصابعه سيكارة لم تشعل. كان التدخين محظوراً، فقد كان القناصة الألمان يطلقون النار حتى حين تومض ومضة نار، أو يرتفع صوت عالٍ.

سرح نوفيكوف البصر في وجوه الجنود الحذرة التي لونها الوهج بلون نحاسي. كان الجنود يجلسون صامتين وبلا حراك، ناظرين إلى نوفيكوف منتظرين أمره. قال نوفيكوف:

- لا يجوز لنا أن ننتظر. وقد حان الوقت للذهاب إلى مدفعي

أوفتشينيكوف.- وصمت مفكراً ثم أعاد القول:- الذهاب إلى مدفعي أوفتشينيكوف وجلب الجرحى. هناك ثلاثة: واحد يستطيع المشي هو الرقيب سابريكين والآخـران ينبغي حملهما.- ومصّ سيكارته غير المشتعلة، وبصق التبغ العالق على شفتيه:- إن الألمان ينتظرون وبالتأكيد أنهم يشنون هجومهم الأخير في هذه الليلة. هذا واضح. هل واضح ذلك للجميع؟- ثم رفع صوته قليلاً، ونظر إلى وجوه الجنود الساكنة من جديد:- ولهذا السبب ينبغي أن تتم العملية في ساعة واحدة. خذوا شيئاً أكثر من المخازن الاحتياطية من الذين سيبقون هنا. وسيذهب معي بوروخونكو وريميشكوف، وسنذهب إلى المدفعين في الممر المؤشر خلال حقل الألغام، على شاطئ البحيرة. وقد يكون هناك ألمان حول موقع أوفتشينيكوف. وإذا حدث أن تبادلنا إطلاق النار فلا تطلقوا النار من مدفع أو رشاش! وقد حذرت المشاة التشيكوسلوفاكيين من ذلك. هذا كل ما في الأمر.- ورمى نوفيكوف السيكارة التي لم تشعل بعد تحت قدميه، وتحول إلى ستيبانوف وقال:

- أعطني، أيها الرقيب، رشيشتك!

وهز ستيبانوف الصموت وجهه المفكر الطيب المدور كالكعكة، بعجالة مفرطة ثم وضع الرشيشة على ركبتيه في تقطيب، وتفحص حركات مغلاقها بعناية، ومرر كفه الكبيرة على ماسورتها وكأنه يمسح الغبار عنها، ومدها إلى نوفيكوف من دون أن ينطق بكلمة.

كان الجميع يصمتون وهم يلتفتون إلى الوهج، وإلى حقل الألغام الودري.

ونهض نوفيكوف، وعلق الرشيشة على صدره، وبدت هذه الحركة كالتي فصلته وبوروخونكو وريميشكوف عن الجنود الذين بقوا هنا، وحملت الجميع على أن يقفوا على أقدامهم إجباراً مضوضئين قليلاً.

وتقدم بوروخونكو نحو نوفيكوف وهو يشد مخازن الرشيشة المستديرة بغلافاتها في حزامه، وفي حدقتيه تضطرم نار حمراء مسكرة. ونطق فجأة في سخرية جريئة:

- حسناً، سندخن للطريق حتى لا يحزن أهلنا. من يعطيني، يا رفاق، شيئاً من التبغ لسيكارة واحدة سأعطيه، فيما بعد، حفنة من التبغ!- ثم سأل نوفيكوف في صوت خفيض جدي:- هل تسمح لي أيها الرفيق الكابتن؟

هزّ نوفيكوف رأسه. دس أحد الكشافين إلى يد بوروخونكو عقباً للسيكارة دخنوه في كم المعطف. وقرفص بوروخونكو وتأوه وسحب عدة أنفاس عميقة في استمتاع سريع. ثم سحق عقب السيكارة بكعبه وفركه وانتصب وقال:

-أوه، سهّل عليّ ونظّف صدري،- وبعد أن فرغ من هذه اللذة الاعتيادية البسيطة ألقى نظرة على قامة ريميشكوف:- وأنت لماذا تتململ مثل الجد العجوز بين نبتات عباد الشمس؟ ألا تدخن؟

- أنا لا..... لا أدخن أنا غير مدخن،- تمتم ريميشكوف بصوت متلعثم.

وكان يسرع في إدخال مخزن إلى رشيشته، ويداه ترتجفان، ورقبته المتوترة محنية، والظل ساقط على وجهه. وتذكر نوفيكوف حقيبته الظهرية التي كانت تبدو مثل سنام على ظهره، والرعب الحديث العهد في عينيه، وشكاواه المتذللة عن قدمه، وفكر أنه في خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية جعل هذا الشاب يمر بالخطر من دون أن يرأف به، ويداني الموت، ودربه بغلظة ومن دون إمهال على الإحساس بثبات الحياة الإنسانية في الحرب- وهي الصفة التي أقلع عنها ريميشكوف في

الأشهر الستة التي قضاها في المؤخرة، والتي قد يتخلى عنها نوفيكوف أيضاً في نفس الظروف. والآن سأله نوفيكوف وهو يكتم في نفسه شعور الإشفاق، مستعداً، لإبداء ليونة:

– هل توجعك قدمك؟

صمت ريميشكوف وعلق رشيشته على كتفه. وفي صمت أيضاً زرر معطفه بأصابع متواثبة ناظراً باتجاه البلدة، وأصوات قنابل الدبابات الثاقبة القريبة الشاخرة. وعرف معرفة اليقين أن مرضاً كمرض القدم في مثل هذا الوضع لم يعنه في شيء، كما لم يعنه من قبل، فراح يستعجل لاقتحام كل شيء مخيف، كل ما في انتظاره، كل ما رآه في الأربع والعشرين ساعة الماضية، ومر به مرات عديدة.

وأوعز نوفيكوف بصوت خفيض:

– كل في مكانه! بوروخونكو وريميشكوف ورائي!– وسار في خندق المواصلات.

– أيها الرفيق الكابتن!....

أوقفه نداء أليشين المتردد، فترك الجنديين يتقدمانه. والتفت فرأى في الظلمة وجه الملازم الثاني الأبيض في غير وضوح، وسمع صوته غير المكترث اكتراثاً مبالغاً:

– إنهم جائعون هناك، فخذ هذا، أرجوك، للينا وللجرحى.

هذا ما بقي عندي من غنائم الفيلا. ها هو وليس هو مني بالطبع، بل من الجميع.... انقله...

وقدم نوفيكوف ثلاث قطع من الشيكولاتة دافئة ولينة من بقائها طويلاً في جيبه، وأضاف بصوت مكتوم جداً:

– مع السلامة والتوفيق.– وجمد مستنداً إلى سترة الخندق الأمامية.

– شكراً لك! إنك فتى ممتاز للغاية يا فيتيا،– وتبسّم له.

فكر نوفيكوف وهو يسير بمحاذاة خندق المواصلات "هذه هي المرة الثانية التي يرسل فيها معي شيكولاتة إلى لينا".– وشعر والمضاضة تملؤه بأن هناك علاقة سرية بينهما غابت عن ملاحظته:– "طيب ذلك شيء طبيعي. ولكن لماذا لم أعرف هذا؟ أتراني أحسب أن أية سعادة إنسانية اعتيادية لا يمكن أن تنشأ في الحرب؟".

وانحدروا هابطين من المرتفع باتجاه البحيرة. وهناك، أمام خط الأدغال المظلمة، أمرهما نوفيكوف بأن يقفا.

وأمر في همس:

– أنا ذاهب إلى خندق المشاة التشيكوسلوفاكيين.... انتظراني هنا.– واختفى في الظلمة.

وفي طريق انحدارهم كان العشب الخريفي يهتز في جفاف والحجارة تدوي فجأة متدحرجة من تحت أقدامهم، وثيابهم ترسل حفيفاً عالياً. كان كل هذا يرن في آذانهم مثل الرعد.... والآن بعد أن قرفص بوروخونكو وريميشكوف واضعين رشيشتهما على ركبهم، أخذا يسمعان نبضات الدم في صدغيهما. ونظرا إلى البحيرة في آن واحد، ثم إلى المرتفع. كانت البحيرة كلها – حتى الشاطئ الواطئ القصبيّ – تعكس ضوءاً بنفسجياً دافئاً. وكان المرتفع خلفهما مظلماً مدوراً وسط وهج أحمر، ومحدد لمعالم بوضوح، حتى إن أنصال العشب الحادة تلوح بوضوح فوق سترة موقع الرمي. وكان ضرب المدافع يسمع من البلدة بصورة خفيفة.

وعلى يمينهما في جهة خنادق المشاة صمّت آذانهما طلقة مقرقعة، وارتفع صاروخ التنوير بصفير مرتجف وتعلق في الهواء، ثم تفجر في ضوء أخضر يجرد كل شيء من الظلام. وجفل ريميشكوف وانكمش على نفسه، وتكلم بهمس مرتج، وهو يصك ليكتم اصطكاك أسنانه:

– هنا.... قريباً.... خلف الدغل.... جثة كولوكولتشيكوف جندي الإشارة. لقد عثرت عليه مؤخراً. ملقى....

– لماذا تصطك أسنانك؟ أنت خائف؟– سأل بوروخونكو وهو ينظر إلى ريميشكوف في ارتياب وحذر: – إذن، فلماذا جئت؟ لتكون قطعة أثاث. ها... أغلق فمك! أحدهم يقترب....

وتلظت حدقتاه حنقاً. ومد ريميشكوف عنقه صامتاً في إذعان، ماداً بصره عبر منحدر المرتفع. وسمع همسة عشب خافتة، وأحس بشخص يدنو منهما فلم يتمالك نفسه من أن يصيح:

– أيها الرفيق الكابتن،– وإذ لم يسمع جواباً همس في ضيق:– انظر.... إني عثرت على جندي الإشارة....

– هس!... يالك من كابتن!... اسكت! – همس بوروخونكو ماسكاً ركبة ريميشكوف المرتجفة.

.... وحين قفز نوفيكوف إلى خندق مواصلات المشاة التشيكوسلوفاكيين أوقفه صوت صادر من الظلام:

– من هناك؟ كابتن روسي..... أهذه هي السرية السادسة؟

كان القمر يرتفع فوق جبال "الكاربات المشجرة"، وفي الجانب الظليل من الخندق كان هناك تشيكيان، مناوبان جالسان على صندوقين للذخيرة وراء رشاشة ظهراً إلى ظهر. وكانا يدخنان وينحنيان

إلى قعر الخندق في كل نفس يستنشقانه، وعند أقدامهما كانت أكداس من الخراطيش الفارغة تلمع لمعاناً معدنياً. وحين رأيا نوفيكوف نهض أحدهما مؤدياً التحية بيده اليمنى الماسكة بالسيكارة وتبسم ابتسامة عريضة وكأنه يرحب بصديق قديم، ثم نهض الرامي الثاني وحياه أيضاً. وقد عرفاه لأن نوفيكوف قد جاء إلى هنا قبل نصف ساعة. نظر الاثنان إليه في إعجاب متبسمين له فرحين به قائلين له بلكنة ظاهرة:

- أيها الرفيق الكابيتانو.... أوه، روس حسناً! تفهم؟

- أفهم،- قال نوفيكوف.- هل قائد الكتيبة هنا؟

- نعم، نعم.... رفيق.... رفيق كابيتانو..... نرجو..... تفضل.

وقاداه إلى الخندق - الملجأ وفتحا له الباب في أدب. فدخل نوفيكوف.

كان قائد الكتيبة رجلاً تشيكياً طويل القامة منتصباً جالساً إلى طاولة، وقد وضع بدلته على كتفيه، يتفحص خارطة مبسوطة على ضوء فانوس، وكان يؤشر الخارطة بالقلم الحاد وقد اكتسى وجهه مسحة تفكير. وكان هناك ضابطان آخران نائمان على سرير من الألواح الخشبية. وقد غطيا سيقانهما في معطفيهما، وكان وجهاهما غير مرئيين في غبش الظلمة. وعلى صناديق الذخيرة الفارغة وضعت عمرات، ومحافظ ميدان، ومصابيح يدوية، وأحزمة جديدة بأغمدة.

- كابيتانو؟- نادى قائد الكتيبة بصوت خفيض، ونهض بهندام ضابط محارب، وارتدى بدلته مسرعاً وزررها على صدره:- كابيتانو وجار؟ هل هذا صحيح بالروسية؟ جار....

وأمسك بيد نوفيكوف، وضغط على أصابعه بقوة وهزها مرتين،

ولم يتركها وجذبها إلى الأسفل بلطف داعياً إياه بهذه الحركة إلى الجلوس إلى الطاولة. كان وجه الضابط وجه رجل تخطى الشباب ومع ذلك فلا يبدو عجوزاً. وكان يلوح مثل رجل له سن غير محددة: كانت التجاعيد تحرث وجهه المحلوق وتجعل جبينه العالي شائخاً. ولكن عينيه البنيتي اللون الساطعتين من تحت جبينه القمحيين تنظران نظرات حية فتيّة. وقد أجلس نوفيكوف على الصندوق بشيء من القوة، ثم جلس أمام نوفيكوف، وقدّم إليه علبة السكائر، وتكلم بالصوت الخفيض المعتاد، لئلا يوقظ الضابطين النائمين في الظاهر:

– تفضل، دخن...... أريد..... أن أقول.... كم مدفعاً بقي سالماً..... هل عندك الاتصال؟ تفضل، دخن.....

أجاب نوفيكوف وهو يتناول سيكارة:

– شكراً.... إنني أريد أن أحذّرك مرة أخرى من أننا خارجون إلى المنطقة المحايدة، إلى المدفعين. وسنظل هناك زهاء ساعة. هل لك أن تريني خارطتك؟

قال التشيكي وهو ينود برأسه:

– نعم، نعم،.... تفضل جداً.

– سنذهب إلى هناك. لنجلب الجرحى.... وأنت تعرف هذا الموقع. ومهما يحدث هناك فأرجو أن تمتنعوا عن إطلاق النار.

وخلال هذه الساعة بالذات، لا تنيروا حقل الألغام بالصواريخ.

قال التشيكي وهو ينود ثانية:

– هل تفطن؟.... فاهم جداً.... نحن نستطيع المساعدة.... هل هناك جرحى كثيرون؟..... أقدم لك تشيكيين لمساعدتك.....

قال نوفيكوف:

- لا حاجة إلى ذلك الآن.

وإذ قال ذلك رأى في الخارطة سلسلة جبال الكاربات، والبحيرة، والحدود التشيكوسلوفاكية المتعرجة وخلفها في الوادي، على خيط الطريق العام الداكن من ريفني إلى كاسنو بلدة ماريتسي التي رسمت حولها دائرة واضحة بالقلم الأحمر، وبالقرب منها، حلقات مدن أخرى مؤشرة بالقلم الأحمر أيضاً، هناك، حيث بدأ الأنصار انتفاضتهم منتظرين التقدم من الشرق. ولاحظ التشيكي نظرة نوفيكوف المتطلعة إلى الخارطة فاقترب وحرك إصبعه من المضيق على طول الطريق العام رفني - كاسنو - ماريتسي. وقال:

- ماريتسي! حرب هائلة، أيها الكابيتانو! إن الأنصار السلوفاكيين ينتظرون الروس... نحارب معكم من أجل الحرية!

قال نوفيكوف وهو ينحي الخارطة:

- لن يصل الألمان إلى ماريتسي. نحن سنصل إلى ماريتسي، إلى الأنصار.- ثم قال مازحاً:- ذلك كما تقول نحن الروس: ليس المدى بعيداً! إلى اللقاء!

ورمى السيكارة في علبة صفيح صغيرة استعملت كمنفضة ونهض وصافح قائد الكتيبة.

وقال التشيكي: أرجو لك التوفيق. كلمة واحدة منك، وسنهرع لإغاثتك... سنراقب الأمر.

- شكراً... إذن اتفقنا على إيقاف إطلاق النار والصواريخ ساعة واحدة.

- كل شيء سيكون كذلك.

وأوصله قائد الكتيبة إلى آخر الخندق.

وبعد هذا الحديث مع التشيك عاد نوفيكوف، وما إن خطا زهاء عشرين خطوة حتى عثر على جثة رجل.

كان مستلقياً على جنبه في وضع غير مريح كما باغته الموت.

وكانت يده النحيلة البيضاء الرقيقة البارزة من كم قميصه مرتدة باتجاه المرتفع. وكان رأسه موضوعاً تحت هذه اليد في براءة وتعب مثل ما يفعل طائر نائم. وكانت طاقيته الحائلة اللون إلى جانبه حيث أسقطها الموت من رأسه، وبللتها قطرات الندى الليلي. وكانت قدما الميت منطويتين عليه وكأن برد الموت الذي استشعره اضطره إلى أن ينكمش ويستلقي في هذا الوضع ليحتفي بآخر الدفء. وفجأة عرف نوفيكوف جندي الإرسال في وحدته، لا بوجهه، بل بيده النحيلة، والوضع الذي استلقى فيه (تماماً كما نام في الفيلا واضعاً رأسه هكذا). وأدار نوفيكوف وجه كولوكولتشيكوف إلى فوق، وأمعن النظر فيه. كان الوجه ساكن الصفحة أبيض كالطباشير في دهشة الأطفال ("لماذا؟ من أين أطلقوا النار عليّ؟") وكان رأسه ملقى إلى الوراء على رقبته الواهنة النحيلة. وكان ضوء القمر الأزرق الكامد في برود يثلج عينيه نصف المغمضتين اللتين كانتا تدهشان نوفيكوف دائماً بخضرتهما الصافية.

وانحنى نوفيكوف، ومس صدر كولوكولتشيكوف المندى، وأخرج كيس تبغ مبتذلاً مجدولاً بحبل رقيق يحتوي على أوراقه الشخصية ويفوح برائحة تبغ ما زالت حية. ثم حل ميداليتي "الشجاعة" اللتين منحهما بتقديم نوفيكوف في العام الماضي.....

وأحسّ في راحته ثقلهما وبرودتهما ونعومتهما وفكر في نفسه أن كولوكولتشيكوف ليس الآن بحاجة إلى أوراق أو شجاعة.

تذكر كلمات هذا الجندي: "إذا وقع لي حادث، أيها الرفيق الكابتن، فليس لي أم، بل أخت فقط، والعنوان في جيبي".

وطرأت عليه فكرة لاذعة: لو أنه لم يرسل كولوكولتشيكوف ليصلح الخط التلفوني لما مات. وكم من مرة اضطرته الظروف القاسية إلى أن يرسل رجاله إلى هناك من حيث لا عودة لهم! وكم مرة تعذب في ليالي سهاده بعد أن يعرف بموت الذين أرسلهم.

ولكن أين هذه الطيبة بشكلها النقي؟ أين؟ إنها ليست في الحرب.

.... وسمع ريميشكوف يناديه همساً. فرفع رأسه فرأى الجنديين جالسين من دون حراك والمرتفع المائل نصف المستدير المحمر بالوهج. وكأنما أعاده ذلك إلى الواقع. قطّب جبينه وتقدم نحو الجنديين، وأوعز:

- إلى الأمام!

نهض بوروخونكو في الأول ماسكاً برشيشته على صدره، ونهض بعده ريميشكوف ربع القامة يرتجف متوتر الأعصاب، ونظر في وجه نوفيكوف مرتعباً نافخاً بمنخريه. وعرف نوفيكوف أنه كان جالساً طوال الوقت هنا آملاً بأن يتغير شيء في الموقف في المشاة فلا تكون ثمة ضرورة للذهاب إلى هناك إلى الأمام، إلى المصير المجهول، وإذ عرف نوفيكوف ذلك سأله بلهجة ودية:

- هل ما تزال تضور نفسك وكأنك ما تزال في المؤخرة، يا ريميشكوف؟

- ولكن أيمكن أن يتعود الإنسان على الموت حقاً، أيها الرفيق الكابتن؟- أجاب ريميشكوف بصيحة ضعيفة: - أحقاً إنني لا أفهم؟../ ولكن لا أستطيع السيطرة على نفسي.

قال نوفيكوف:

- هذا ما أصاب أفتشينيكوف ونوفيكوف أيضاً. اضبط نفسك. امش على مقربة مني... وجر بوروخونكو ريميشكوف بقوة وغيظ وقال:

- هيا اسكت، أيها الجرو الأحمق! تهذي عن الموت! احفظ ذلك لنفسك، أيها الجرو!

وسرعان ما دخلوا خط الدغل. وابتلعتهم الشجيرات بظلامها الرطب الثقيل. وكان القمر الذي يظهر داخناً يضيء لوناً أزرق ميتاً على الأوراق الذابلة. إن حركة القمر الساكنة ولمعان الأوراق الباهت هذا كانا يخلقان في نفوسهم شعوراً لاذعاً بالضياع والوحدة اللانهائية. و لم تطلق صواريخ أخرى فوق خنادق المشاة. ورانَ سكون مكتوم أمام المرتفع إلا دويّ المعركة الناشبة في المدينة، فقد كان يبلغهم ضعيفاً خافتاً.

وتقدمهما نوفيكوف، دافعاً عنه الأغصان الباردة الزلقة وكانت الأوراق ترسل حفيفاً فوق رؤوسهم ثم تهدأ. وكانت قطرات الندى تتساقط على وجوههم من الأغصان، وتعمي عيونهم، وترطب أكمام معاطفهم. ومواسير رشيشاتهم تمسك بالأغصان. وكان نوفيكوف لا يعرف هل نظف الدغل بعناية من الألغام. ولا يعرف على وجه التأكيد إلا أن حقول الألغام التي وضعناها نحن والتي أقامها الألمان ابتدأت وراء الأدغال مباشرة. ولكنه سار من دون أن يتوقّف أو يغير

اتجاهه، شاقاً طريقه بعناد وصمت خلال أجمة الشجيرات الرطبة. و لم يكن يعتقد بنفسه، بل بالأحرى، تدرّب على أن لا يبالغ ولا يفرط في الحذر. غير أن الموت العرضي الآتي من انفجار لغم محفور يمكن العثور به لمجرد أن الإنسان سار على الأرض لأنه فطر على ذلك. إن هذا الموت كان يبدو له ضِعة وحماقة لا غاية لها. وقد أجّج توقع انفجار لغم تحت قدميه حفيظة نفسه.

وفكر: "أين تبدأ الألغام الألمانية العرضية وأين تنتهي؟ أين؟".

وساروا هنا تحت ستار الأدغال في الأرض المحايدة مرفوعي القامة. وأجهد نوفيكوف عينيه ليرى في الغبش البارد قطرات الندى المترقبة المتألقة كالمعدن المتربص على الأعشاب، وعلى الأوراق، مستشعراً في قدميه وفي جسمه كله الحذر المألوف لديه، مستعداً لأن يصوب الرشيشة في اللحظة الخاطفة التي تقرر كل شيء؛ من الذي يطلق النار أولاً. وحثّ خطاه ناظراً إلى ساعته بين لحظة وأخرى وكان القمر ينعكس إلى زجاجتها فيلوح مثل عين القط.

وكان يعذبه من دون هوادة التفكير بأن الألمان سيعيدون هجومهم هذه الليلة؛ بعد ساعتين، أو ساعة، أو نصف ساعة، ولكن مهما يحدث الآن ينبغي عليهم أن ينجزوا مهمتهم ويعودوا إلى المدفعين قبل بدء الهجوم الجديد. يجب عليهم أن يصلوا في حينه.....

وأمر نوفيكوف في همس ومن دون أن يلتفت:

– أسرعا. لا تتأخرا عني! سيرا ورائي تماماً. لا جانباً على مسافة ولو متراً.....

ولكنه توقف فجأةً بعد أن أعطى أمره ورفع رأسه. وأطلق الأغصان المحنية من يديه في حذر، وفي الحال أخذ السائران وراءه يسمعان

تساقط الندى على الأرض المغطاة بالأوراق. ثم السكون. وضربات قطرات الندى الطنانة.

وكان بوروخونكو يستنشق الهواء من فمه ويكاد يصطدم بظهر نوفيكوف. وفي تلك اللحظة التفت إلى ريميشكوف الذي كان يسير وراءه مطرق.

- قف!- همس من خلال أسنانه.

ورفع ريميشكوف وجهه الشاحب المخضر بسرعة وتوقف ساكن الحركة مبهوراً، ومط شفتيه، قاصداً أن يسأل عن شيء فامتنع، وظل محتبس الأنفاس.

وكان نوفيكوف وبوروخونكو يقفان من دون حراك.

وأمامهم كان القمر يسكب على الأرض الخالية نوراً أزرق، وكان السكون شاملاً إلا من نقيق ضعيف صادر في مكان من البحيرة إلى يسارهم. ومن ذلك عرف ريميشكوف أن الدغل قد انتهى، وأمامهم تمتد أرض عارية حتى المرتفع حيث يقع مدفعا أوفتشينيكوف ومن حيث فرّوا منذ وقت قصير.... وفي الصباح كان الألمان هنا.

وفي هلع متوتر وترقب نظر ريميشكوف إلى ظهري نوفيكوف وبوروخونكو اللذين بدآ يتحركان في الأدغال - كان الرجلان ينظران في صمت من خلال الأغصان إلى الحقل الأزرق الممتد إلى الأمام. ووقف ريميشكوف يرتعش في ألم منتظراً شيئاً واحداً - أمر نوفيكوف الصارم الذي لا رأفة فيه: "إلى الأمام!" ذلك لأنه كان يبدو لريميشكوف أن أنفاسه الصاخبة المتقطعة صمّت أذنيه عن سماع كل شيء، وذلك لأن رفيقيه قد صمتا في غموض. و لم ير هو و لم يحاول أن يرى ما رأياه. وفكر ريميشكوف في نفسه ("يا إلهي، أمن الممكن

أنه لا يهاب الموت؟") ها هو الآن، الآن سيأمر: "إلى الأمام!" وفي الحال تأتي قرقعة مصمّة رداً على رشقات الرشاشات والرصاصات الخطاطة مصوبة إلى صدره.....

لقد كانوا هنا، أولئك الألمان، وحاصروا المدافع بدباباتهم من جميع الجهات ولقد رآهم بأم عينيه حين تراجع مع أوفتشينيكوف....

"ماما! أغيثيني، ماما!.... ساعديني..... ربما لا أعود من هنا! ربما سأموت. أغيثيني، ماما!" وعلى الرغم من أن ريميشكوف لم يؤمن بالرب فقد تملكته رغبة عاطفية حارة جنونية في أن يصلي لأحد ما بيده حياة الناس، وحياته هو ومصيره. "إذا وجد هذا المصير فأنقذني. أنا لا أريد أن أموت، وما زلت في مقتبل العمر.... لقد قتل كولوكولتشيكوف، فأنقذني....".

– هدوءا– أمر نوفيكوف بهمس لا يكاد يسمع. – ماذا بك، يا ريميشكوف؟ اهدأ!.... تهيأ – سنخترق!

وتهاوى ريميشكوف على الأرض من دون أن يدري ما يفعله، وأمسك بالأغصان وتراخت ساقاه.

غير أن في هذه اللحظة لم يلاحظ نوفيكوف ولا بوروخونكو ذلك. فقد كانا يتابعان شيئاً من خلال الأغصان.

ألقى القمر نوراً أحمر ميتاً على ساحة الحقل المقفرة الهامدة المرتفعة بالتدريج باتجاه المرتفع. وإلى يساره في منخفض غير عميق يمتد إلى سطح البحيرة الصقيل الوردي الأزرق كانت تنجم قرقعة معدنية قصيرة غير واضحة ثم تتلاشى. وإلى اليمين من بين أشباح الدبابات المحترقة المتفحمة كان يأتي صياح طير مقلق رتيب يجاوبه نداء آخر مكتوم في مكان أبعد إلى اليمين، من حقل الألغام.

- ما هذا يا للشيطان!.... أتسمع؟.... أي طير.... لماذا هنا؟
- لعن نوفيكوف في همس وهو لا يفتأ يحدق بعينيه المزغللتين من إمعان النظر في المنخفض اللامع، و لم يفهم من أين أتت هذه القرقعة المعدنية القريبة، و لم ومن أين جاء تبادل أصوات الطيور الليلية هذا الشبيه بصوت الرهو.

- انظر! - همس بوروخونكو وهو يمسك بمرفق نوفيكوف بأصابع كالملقط، وزفر نفساً فيه رائحة تبغ:- هل ترى؟.... هناك اثنان يمشيان.... وهم؟..... لا؟....

كان ثمة شبحان قاتمان لرجلين يسيران في قاع المنخفض على بعد زهاء أربعين متراً من الدغل. وكان أحدهما يحمل شيئاً. ثم انحنى الاثنان واختفيا. وبعد ذلك رأى نوفيكوف ثلاثة آخرين وقد تملكه شعور يتوقع سوء الحظ وعلى وجه التدقيق سمع في البداية إلى يمين الدغل تلك القرقعة الخافتة غير الواضحة. وقد سار هؤلاء الثلاثة خارجين من الغبش الأزرق، هابطين المنخفض. وتوقفوا منتظرين. انضم إليهم شخص آخر وكأنما نهض من الأرض وكان يقوم بشيء ما عليها. ووقف لحظة ووجهه إلى القمر طويلاً من دون خوذة على رأسه الكبير، يضع رشيشته على كتفه. وكان نوفيكوف يراه بوضوح. وفي الحال انحنى الرجل إلى الأرض وغاب فيها.

وفكر نوفيكوف: "هل هم يرفعون الألغام؟ إذن فهم مهندسون، ألمان". وأدرك بالفعل أنه لم يكن على خطأ ولا يمكن أن يخطئ.- "ها هو السبب في أنهم كفوا عن هجومهم!"....

- ماذا سنفعل، أيها الرفيق الكابتن؟- همس بوروخونكو. ومرة أخرى لفح نوفيكوف نفس فيه رائحة تبغ:- هل ننتظر حتى يبتعدوا أم ماذا؟

قال نوفيكوف وهو يخطو إلى الوراء وعيناه ما زالتا تحدقان في المنخفض:

- لا يمكن أن ننتظر، سنخترق إلى المدافع! نندفع إلى الأمام بوثبة مع نار حامية.... سنخترق!

ونزع رشيشته من على صدره ونقل مسمار الأمان في وضع الرمي الأوتوماتيكي وحرّك المغلاق من دون أن يُحدِث صوتاً يسمع وحدق في ريميشكوف. وقفز ريميشكوف وكأن الأرض قد ألقته عنها. وسحب رشيشته فتعلّق حزام الرشيشة في أذنه ثم في ياقة معطفه، ووقف أمام نوفيكوف مرتجفاً وكأن ساقيه صارتا من قطن.

وفكر ريميشكوف: "هذا حتفي..... في نهاية الحرب، هذا هو مصيري! كيف يمكن؟" - ولكنه لم يمهل في أن يفكر أكثر.

فقد عاجلته قرقعة راعدة ومزقت الهواء، وكأنما ألقت الهدوء إلى عنان السماء وبثت نار وهاجة في عينيه ألماً وخازاً فأغمض عينيه ثم فتح جفنيه، ورأى نوفيكوف أمامه، وكأنما ذلك خلال زجاج أزرق. كان يطلق النار من رشيشته ناثراً حزم الرشقات مندفعاً إلى المنخفض بوثبات صارخاً بشيء من دون أن يلتفت. وعلى بعد بضعة أمتار منه كان ريميشكوف يرى ظهر بوروخونكو، ظهره فقط وقد بدا وكأنه ينط على الأرض بلا ذراعين ولا ساقين، ومن خلف هذا الظهر تنطلق نار حامية - وفي لمحة عين التفت الظهر نحو ريميشكوف ولاح فمه فاغراً عن صيحة.

وإذ ذاك مرت به حزمة آثار مائلة لرصاص الرشاشات. ثم اندلعت زوبعة ويمين شمال بدأ يفور ويضطرب ويخفق ويدور ويهتز في دوامة لافحة.

والآن فقط أدرك ريميشكوف أنه قد خرج من الدغل، وأنه يجري إلى الأسفل نحو المنخفض. وانزلقت قدمه على شيء طري حي.

وفجأة توهج في عينيه شيء، وضرب وجهه شيء صلب وتلمس العشب الشائك وأدرك أنه قد سقط على الأرض وأن قدمه قد عثرت على هذا الشيء الطري الحي. وسمع بالقرب منه شهيقاً وتنفساً صافراً، وبدا له وكأنه خرج من الظلمة وجه أبيض مدور له محجرا عينين سوداوين متسعتين، وفم محشرج بالحرارة.

واقترب الوجه، ونهض، وانزلقت يدان غريبتان عرقتان إلى ذقن ريميشكوف، وحاولتا الوصول إلى حنجرته ممزقتين الجلد بالأظافر. خلّص ريميشكوف نفسه، وصاح بصوت ناشز:

- آ....ي... سافل!- وصبت فيه دفقة الحياة التي لا تنطفئ قوة، وأنهضته على قدميه ("الرشيشة.... الرشيشة، هيا!").

وأسرع وضغط على الزناد بصورة محمومة، وأطلق رشقاً طويلاً في ذلك الوجه المتجنّب الصارخ كالأرنب.

وفكّر ريميشكوف بينه وبين نفسه في غموض: "قتلته، أيها الوغد.... مدّ يديه إلى خناقي! أيها الوغد الأجرب! إلى خناقي....".

واستشاط غيظاً على هذا الشخص الذي أراد أن يفتك به، والذي ليس لحياة ريميشكوف عنده أي معنى. وكان متأهباً لأن ينافح عنها، ويطلق النار. وقد تملكه ارتجاف جنوني لم يعرفه من قبل. وتلفت حوله ليبحث عن نوفيكوف: "أين الكابتن؟ أين الكابتن؟".

كانت دوامة النار تصفر، وتقرقع، وتدوم في الجانب الآخر من منحدر المنخفض. ولمّا لم ير ريميشكوف نوفيكوف رأساً، ولم يكتشف مكانه، اندفع إلى هناك إلى الأعلى ضاغطاً رشيشته على صدره في

جنون. ورأى أمامه لهباً متذبذباً. كان اللهب يتراقص ويتسع مطلقاً نقط الرصاصات على المنحدر. وتملكه مسّ من الحنق، وتصبب عرقاً من التفكير بتينك اليدين، والوجه المشوه الذي رآه منذ حين، فرفع الرشيشة في اضطراب، وأطلق رشقاً طويلاً من الرصاص. وضغط زناد الرشيشة في تمتع وفرح حانق، وتذكر كيف انقطعت الحشرجة هناك على العشب. وفكر:

"إنه أراد أن يخنقني.... أن يخنقني ذلك الوغد القذر!"

وحملته قدماه إلى هناك، إلى المنحدر، حيث يتحرك اللهب المنفلق، وتصطدم وتتصاعد خيوط آثار الرصاصات. ومن هناك خلال زوبعة النار الغاضبة، وقرقعة الرشيشات تناهت إلى سمع ريميشكوف نداءات عالية معروفة. إلا أنه لم يكن في وسعه أن يرد عليها في الحال، كما لم يكن قادراً على أن يرى من يناديه.

– ريميشكوف!.... إلى هنا، إليّ!

وفكر: "هذا هو الكابتن نوفيكوف.... هذا صوته.... هو يصيح! ولكن لماذا أنا صامت؟ هل جرح؟... ربما!" – وهمس:

– أنا هنا....

ولكن قبل أن يتم كلامه رأى في ضوء الرصاص شبح نوفيكوف في قامته العالية جداً – ولسبب ما لم يجر صاعداً المنحدر، بل كان ينزل إلى المنخفض متمايلاً كالسكران. والآن أخذ ريميشكوف يرى بوضوح توهج ماسورة رشيشته البنفسجي، ورأسه العاري، وآثار الرصاصات المتطايرة فوق رأسه، وتقاصرت قامته وهو يهبط المنخفض عدواً.

– ريميشكوف؟ أهذا أنت؟... أسرع! – صاح نوفيكوف بصوت نصف فرح ونصف مستفسر: هيا! ورائي.... هيا... ريميشكوف!

والتفت، وتوقف لحظة، ورفع رشيشته المتوهجة بسرعة، وأطلق الرشق إلى اليمين ساتراً ريميشكوف بنيرانه وهو يجري نحوه. ثم دار ثانية بشدة:

- لم تجرح؟

- لا!- هتف ريميشكوف بصوت أبح.

- إلى الأمام... إلى بوروخونكو، إلى الأعلى، إلى الأمام!....

ففكر ريميشكوف: "هل عاد من أجلي، من أجلي؟" وإذ رأى كيف رفع نوفيكوف ماسورة رشيشته اللامعة ثانية، انطلق نحو نوفيكوف متعثراً باتجاه أصوات رشقات الرصاص الجافة المتقطعة.

وهتف دامع العينين لاهث الأنفاس:

- أيها الرفيق الكابتن... اجرِ.... أنا هنا.... سأسترك، اجرِ، أيها الرفيق الكابتن....

وطارت آثار الرصاصات فوق رأس نوفيكوف وتوهجت في غلّ يسابق بعضها بعضاً.

- إلى الأمام!

- أيها الرفيق الكابتن!....

- إلى الأمام! - صاح نوفيكوف ولعن بشدة.

واندفع ريميشكوف على المنحدر غير فاهم شيئاً وهو يغالب دموعه.

الفصل الحادي عشر

صمت، صمت خانق قلق يمتد من المضيق والغابة إلى المرتفع حيث يقع مدفعا أليشين، ويحدق بمواقع أوفتشينيكوف كأنه خواء ميت. و لم يكن في الإمكان تسميتها مواقع. فما من نأمة ولا صوت، وما من قداحة ترف نارها الصغيرة المختفية تحت طرف المعطف. و لم يتردّد وقع قدم في خنادق المواصلات و لم يبدل الحراس. هناك، على بعد خمسين متراً من المخبأ، استلقى أناس ردوا على أسمائهم في الصباح فقط، وأشعلوا سكائرهم بقداحات، ومشوا خلال خندق المواصلات وملؤوا الموقع بأنفارهم الفائحة برائحة التبغ القوية، وملابس الجنود. إنهم تلقـوا ضربة الدبابات الأولى واستشهدوا.

أما في المخبأ فكان هناك أناس ما زالوا على قيد الحياة.

وفي الهواء الدافئ المثقل برائحة العرق والضمادات كانت فتائل المصابيح الألمانية ساكنة لا تخفق. كانت تتمدد عمودية، وتحترق من دون ضوضاء.

زحف الليل على موقع الرمي. وفي الملجأ كانوا جميعاً ينصتون وينظرون بعيون جامدة إلى ألسنة لهب المصابيح منتظرين ارتجاجها بسبب الانفجارات وعارفين أن هذا الارتجاج سيكون آخر ما يرونه.

وكانوا جميعاً يعرفون: أن واحداً فقط كان حياً يتنفس هو هناك في الأعلى على بعد أربع خطوات من المخبأ يحرس وراء الرشاشة هو الكشاف غورباتشوف. كان يدخن وكانوا يسمعون طقطقة قداحته

وصوت بصقاته القاصف، وسبابه ("أيها الأوغاد، ماذا تفكرون؟ إلى أين دببتم؟") وأحياناً كان يقضم بصوت عالٍ، ويمضغ بسكويتاً ويغمغم برقة ("خدعة حقيقية! قش مضغوط!") وبين حين وآخر كان يغني لنفسه بنصف صوته ضارباً بكعبه شيئاً، قانطاً نزقاً يثير في نفس لينا شعوراً بالفراغ والقضاء المحتوم.

لا تطل الوقوف،

على المنحدر الشديد

ولا تقبلني

أيها المشرد الضليل.

يا صياد السمك،

يا حبيبي،

تب، تب... تب، تيب....

وحين تنقطع هذه الأغنية القانطة، ويتوقف عن التدخين والسباب والبصق ويلوذ بالصمت ويخيم على خندق المواصلات فراغ ثقيل لافاً موقع الرمي والمخبأ، يتوقف غوسيف، جندي الإشارة الجريح في ردفه، عن الأنين لسبب ما، ويدير رأسه ويصغي باندهاش إلى نشيج لياغالوف القريب منه، وهذيانه:

— ماذا به، يا لينا؟

حاول الرقيب سابريكين المضمد من صدره إلى بطنه، وقد غار

الدم من وجهه فكان أبيض بشكل لا يعرف، أن يرفع جسمه قليلاً معتمداً على يديه محولاً بصره من لهب المصابيح إلى لينا الجالسة على صندوق للذخيرة سائلاً بهدوء:

- نائم؟ يبدو وكأنه قد توقف عن الغناء....

- إذا نام فسيقبضون علينا كما يقبضون على دجاج.... يا له من فتى في شرخ الشباب.... مسكين! - وأومأ برأسه باتجاه غوسيف في إشفاق.

- لا داعي لأن تقلق، يا عزيزي، استلق..... لا تفكر بأي شيء. قالت لينا وفي صوتها رقة وحنان - كل شيء سيكون طيباً، يا عزيزي.

غير أنها لم تكن مؤمنة بقولها. وكانت تعرف حقّ المعرفة أن المدفعين قد قطعا عن البطارية، وأنها وغوراتشوف لا يستطيعان الصمود طويلاً. وهذه النوبات من الصمت في المخبأ ترتبط في ذهنها بسبب من الأسباب بتوقع ظهور الألمان على السترة الأمامية من دون أن يحدثوا ضجة.... فإن غورباتشوف لن يتسنّى له أن يطلق الرشق أو يصرخ.

وعلى الطاولة بالقرب منها مسدس صغير لامع أخرجته من غمده إما ترك عن عمد، وإما نساه الملازم أوفتشينيكوف. وكل شيء له علاقة بالملازم أوفتشينيكوف، وما حصل له بعد ذهابه كان يتراءى لها خلال نقاب رمادي حار. و لم تكن لها القوة على استرجاع ذكرياتها لكل ما حصل: كانت انفجارات بارودية لا نهاية لها تصمّ أذنيها، وأظراف تفوح برائحة ثوم سامة، ورائحة عرق، ودم، وضمادات دافئة، وكانت ظمأى طوال الوقت، ثم أرمضها إحساس لجوج لزج وكأنما تريد أن تتذكر شيئاً، إحساس بلزاجة الصمت، بشيء غامض غير متكامل يضغط عليها في ألم.

- ماء! يا لينوتشكا.... جرعة ماء..... أنا ألتهب.... نهضت لينا واقتربت من سرير الألواح.

وكفّ لياغالوف عن النشيج والأنـين في هذيانه، وفتح عينيه البيضاوين تقريباً من فرط الألم. وكان وجهه القبيح وغير الحليق في الوقت نفسه أزرق شاحباً، وشفتاه المتقرحتان لمسهما الموت مسودتين بارزتين. وهمس متوسلاً:

- ماء، يا لينوتشكا....بارد.- وتجهم في شعور بالذنب والرثاء، - أو شيئاً من شراب الكفاس المبرد.... أو ماء الصودا.... أيضاً.....

- تحمل قليلاً....لا يجوز لك، لا يجوز. اصطبر قليلاً، بضع دقائق. فستنقل إلى الكتيبة الطبية بعد وقت قصير. فهناك أطباء وكل شيء ضروري، - همست بذلك لينا مقنعة إياه، وسوت معطفه المطوي الذي يفوح برائحة البارود، والموضوع تحت رأسه. ثم قالت:
- لا يجوز أن نعطيك ماءً...... لا يجوز....

لعق لياغالوف شفتيه وصمت، ومن دون فهم حدقت عيناه الغائرتان بوجهها المائل نحوه. وغالب نفسه وأصغى إلى صوتها بانتباه خاص، وإلى شيء آخر كان يسمعه هو وحده في هذا الصوت، كأنما كان ينبعث من ورائها. وفي إذعان وامتثال لا يمكن أن يفطن المرء سببهما حرّك رأسه على معطفه إلى اليمين وإلى اليسار، ثم حدق في سقف المخبأ، وهمس في إدراك:

- لن أصل.... إلى الكتيبة الطبية.

- ستعيش، سيجري الأطباء عملية لك. بكل تأكيد. ولكن ينبغي أن تصطبر.... تتحمل....

همست برقة وعاطفة بهذه الكلمات الخادعة بعذوبة، والتي تقال للمحتضرين على أمل أن يخطفوا من براثن الموت، ولأنها قالت هذه الكلمات أكثر من مرة للآخرين، فقد شعرت في غموض بأن هذه الكلمات الكاذبة تجلب للمشرفين على الموت آخر عذاباتهم ولكن، لم يكن لها أن تقول شيئاً آخر.

لقد جُرح جرحاً بليغاً في بطنه بشظايا القنابل من جانبه. وحين كانت تضمده رأت جرحاً مرعباً فعرفت أن التضميد لن يجدي شيئاً، كما لا تنفعه الكتيبة الطبية ولا أحسن مستشفى. وحتى لياغالوف نفسه كان يشعر، كما كان يبدو، بذلك المصير المحتوم بالرغم من أنه لم ير جراحه، كان يشعر، ولكن بصورة أعمق، وأكثر تعذيباً، وأشد فداحة مما تشعر به هي والآخرون الذين كان لهم ولو أمل ضعيف في امتداد الحياة.... أما هو فليس في قلبه أي أمل.

فهمت هي ذلك.

حاول لياغالوف أن يبتسم أو أن يوضح شيئاً ربما لا تستطيع هي وكل المحاصرين أن يعرفوه ويحسوا به ويفهموه، غير أنه لم يوضح شيئاً، واكتفى بأن حدق فيها وجفناه يرتجفان في مرارة. وفجأة تمتم مستعطفاً في همس:

– ماء!.... يا لينوتشكا..... ماء بارد..... عجّلي به..... أنا لا أتحمل حتى النهاية....

حركت لينا شفتيها من دون أن تصدر صوتاً قائلاً:

– حسناً. حسناً.

ومسته برقة ممررة كفها على جبينه اللزج الحار ثم تركته. وقفت ساكنة دقائق بالقرب من صندوق الذخيرة وعيناها مغمضتان وظهرها إلى لياغالوف وشعرت بأنه ينتظرها واعياً على نفسه.

فأخرجت ملعقة شاي من الحقيبة بحركة خرقاء. وليس ما كانت تفعله متغلبة على مقاومة نفسها، خداعاً قاسياً له، ولا لها، بل كان ذلك آخر ما تستطيع أن تفعله له.

وطرأت على بالها فكرة، وهي أن تفك سداد الزمزمية:

"يبدو لي أنه قال ذلك، إنه مستعد لأن يحارب مئتي مرة في سبيل ألا تخرج النساء إلى الحرب.... نعم.... لقد قال ذلك في تلك الليلة".

وقالت له برقة وبصوت غريب عليها وقد جلست بالقرب من رأسه:

- هدّئ من روعك، يا عزيزي.... لا تتحرك، اشرب - وراحت تصب الماء في ملعقتها الصغيرة. - لن تشعر بالحرقة.... ستزايلك.....

وشرب لياغالوف من الملعقة، وراح يجرع الماء ناشجاً مقترباً منها كالطفل. ونظرت هي إلى جبينه المغطى بقطرات العرق، وشعرت مرتعبة بأن هذه الملاعق تصب فيه جرع الموت. ولكنها ملأت ملعقة أخرى وهي تعرف أن جرح البطن يسبب ظمأً مفزعاً، وأن الذين يفكرون بالماء يموتون معذبين مدة طويلة.

أعطته أربع ملاعق ماء، وجلست واضعة كفها على جبينه الرطب. وشعرت بأن أصابعها تحمى وترتجف. فرفعت يدها عنه. وتحرك لياغالوف وعيناه مغمضتان، وكأن ظل أفكار غامضة قد طاف فوق وجهه الشفاف.

وهمس: عرفت.

- سألته لينا: ماذا؟ ماذا عرفت؟

- كأنني عرفت..

ورفع يده الميتة إلى صدره، وحرّك أصابعه بصعوبة. هنا... كان في القلب.

- ماذا كان في القلب؟ ماذا؟

- حلمت... يوم أمس...، قال لياغالوف وقد فتح عينيه المغرورقتين بالدمع، بأنّ الحرب قد انتهت، وقد عدت منها... وحولي صغاري... ولكن زوجتي صدّت عني ولم ترد... أن تقبّلني.. قد كنت متيماً بها... إنها جميلة، ولكنّها تزوّجت رجلاً قبيحاً مثلي... وأطفالي أربعة... فكيف يحدث ذلك لي؟.. أحقاً أنا مذنب إذا قتلوني. هل أنا مذنب؟

وفجأة تلوّى وجهه القبيح بنشيج صامت هزّ جسمه كلّه، وراح يئنّ، وحوّل وجهه إلى الحائط. وسكت في الحال وكأنما قد تقطّعت أنفاسه. ثم همس بصوت لا يكاد يُسمع:

- هكذا أنا... لا بأس... فلا تصغي إليّ يا لينوتشكا... لو كان بوسعي أن أرى بوروخونكو مرّة أخرى... إنني قد أحببته... إنني أحترمه..

وصمتت لينا.

وقال سابريكين بصوت هامس:

- لك الكونتيسة البولونية. يا للشيطان!

وكان ينصت إلى لياغالوف وهو مستند إلى كوعيه وقد سقط النور على صدغيه الأشيبين. وحين سمع أصواتاً مثل أنّات مكبوتة خفض عينيه، وأطال الصمت. ثم تكلم بصوت غير عالٍ:

- وبوروخونكو يحبك أيضاً يا لياغالوف... غير أن لساناً حاداً. ولكنّه إنسان طيّب. ثم تحوّل إلى جهة غوسيف مقطباً وقال: هذا غوسيف... أخذ يتحدث مع نفسه... هل حالته سيئة يا لينا؟ الصبي يدندن بشيء؟

وكان غوسيف مستلقياً مغطى بمعطفه حتى ذقنه. وكان وجهه الفتي الشبيه بوجه طفل نحيل متقلباً من جانب لآخر. وتمتم مبهور الأنفاس:

- أنا الهتاف غوسيف. والآخرون هنا... قتلى... وأفتشينيكوف غير موجود... والآخرون هلكوا... وعندنا خمس قنابل... افرشي لي على الأريكة يا ماما... شراشف في الدولاب... في الدولاب.

وضعت لينا الزمزمية والملعقة على الطاولة في حذر. وقلبت ياقة المعطف التي كانت تحك ذقن غوسيف. ووقفت برهة ناظرة في تفكير مرّة إلى غوسيف وأخرى إلى الكهل سابريكين الهادئ الذي يفهم كل شيء. ونظر سابريكين إليها بلطف وحنان. ورفّ عينيه التعبتين شيء فطن. وساد هدوء وران سكون ثقيل على المخبأ. ومن خلال هذا السكون انبعث من مدخل المخبأ همس عالٍ:

- لينا!... تعالي إلى هنا!

ولم تحفل لينا، بل التقطت المسدس الموضوع على الطاولة بحركة حازمة. وقالت: دعوني... راقب هنا.

وجلس سابريكين.

وقال ببطء: في بداية الأمر يا لينا أعطيني الرشيشة... ضعيها هنا تحت متناول يدي... والآن اصغي إليّ. وراح يقول وهو يحدّق

بلهب الفوانيس: لقد عشت أيامي، وقد دافعت في الحرب الأهلية عن السلطة السوفييتية. كما حاربت في هذه الحرب. وعندي ولدان في سن الرشد... عفريتان معافيان.

ثم تبسّم في رقّة: إذاً فلِمَ أعش عبثاً... هذا ما أريد أن أقوله لك... أوه هم ينادونك مرّة أخرى. وصمت ونظر إلى الباب وجاء صوت غورباتشوف مرّة أخرى من الصمت المخيّم من المدفع، ولكن بنبرة أعلى:

– لينا... تعالي إلى هنا!

وعلّقت لينا على حزامها القراب الصغير الورنيشي الذي يضم مسدساً وقفزت إلى ذاكرتها الكلمات التي قالها أوفتشينيكوف قبل وقت غير طويل: "لا يمكن أن يقتل بهذا المسدس... بل يمكن أن يجرح!" وشدّت حزامها سريعاً شاعرة بثقل قراب المسدس غير المريح على ردفها. وتحوّلت إلى سابريكين حاثّة إياه بنظرتها. "تكلّم!... أنا مصغية إليك".

كان جالساً على التخت الخشبي بصعوبة مستنداً إلى يديه. وكانت أنفاسه الخافتة تحرّك صدره المضمد بكامله والشيب الكثيف يتألّق في شعره.

– هكذا يا لينا!.. استذكري وارفعي عن ضميرك سواء بالنسبة لي أو الآخرين... قال بقوة وأشار باتجاه غوسيف ولياغالوف: سآخذ ذلك على عاتقي... إنهم جنودي وأنا مسؤول عنهم. وسنحاسب عليهم في العالم الآخر... لن أسلّمهم أحياء... أبداً!... فقط حين تصل الحال إلى ما لا يطاق هناك في الأعلى... أخبريني... هيا يا سابريكين، هذا آخر جرس يدق لك من العالم الآخر... فاذهبي

الآن... وفكّري في نفسك وفي غورباتشوف أكثر... فأنتما ما تزالان على قيد الحياة... والحرب موشكة أن تضع أوزارها... وسيكون لك أطفال...

واستلقى مسترخياً ببطء على يديه المرتعشتين من العياء. ولمع وجهه العرق العجوز والخشن قليلاً، وابتسم فجأة كاشفاً عن ثغرة داكنة في أسنانه الأمامية لم ترها لينا من قبل، ذلك لأنها لم تره يبتسم قط.

– نعم، سيكون لك أطفال، كرّر القول وهزّ يده في وهن – فقط لا تعترضي عليّ، اذهبي بالله عليك.

– ولم تكن قادرة على أن تقول شيئاً أو تعارضه في شيء. وقد أدرك وأحسّ نفس ما فكرت عنه في ساعات الانتظار والصمت تلك. وخلال خدمتها في الاستطلاع تعوّدت، منذ وقت طويل، على أن الذين يجرحون بجراح بليغة في المنطقة المحايدة نادراً ما يقعون في الأسر. وقد عوّدت نفسها على هذه القاعدة خلال عامين. ولكن لا سابريكين ولا لياغالوف ولا غوسيف من الكشافين. وحين صعدت الدرجات الترابية المؤدية إلى الباب دارت فجأة وهي قريبة من الباب، وبحثت في نفسها عن الأمل الذي ينبغي أن يكون فيها، كممرضة، والذي لا يزال موجوداً في نفس سابريكين المثقلة بالعذاب. وقالت قولاً غير الذي تريد أن تقوله:

– لا تزال عندنا خمس قنابل، ورشاشة.. وأنا أستطيع أن أطلق النيران أيضاً...

ودفعت الباب بركبتها بحزم، وخرجت إلى الليل البارد المضاء بضوء القمر.

كان غورباتشوف مستلقياً على قطعة من مشمع للوقاية إلى يمين

المدفع. ناشراً كوعيه أمام الرشاشة الخفيفة ناظراً إلى الأمام مراقباً. ومن دون أن يدير رأسه نادى بهمس:

– تعالي يا لينا!... يبدو كل شيء مشوّشاً في رأسي. ودفع مخازن الخراطيش ليفسح لها مكاناً. استلقي... لا تخجلي أنا صديقك.

واستلقت بالقرب منه على مشمع للوقاية تشبع ببرودة الأرض، ونظرت إلى وجه غورباتشوف الواضح في ضوء القمر. وقالت:

– هل أنت تعبان؟.. سآخذ مكانك... فاذهب إلى الخندق الملجأ، وبجرأة وضعت كفّها على يده الماسكة بزناد الرشاشة.

فتحرّك غير أنه لم يبعد كوعيه عن الرشاشة. بل رمش لها في وهن ومودّة وكان وجهه أخضر على نحو غير طبيعي، وتعمق خداه وتراخى شعره الأسود على عينيه السوداوين اللامعتين. وكشف قميصه غير المزرّر عن ترقوته القوية. وهمس في مداعبة:

لا حاجة بي إلى تمريض! هل هذا واضح لك، يا لينوتشكا؟ ولو أهوى الفتيات.... فدى لأصابعك الصغيرة هذه حياتي كلها. ولكن أبعديها. ألا تشعرين بأنني تبلدت؟ الدبابات المدماة ترقص أما عيني. وكيف بصرك وسمعك؟

اذهب إلى الشيطان! – قالت لينا غاضبة من دون أن تكترث بلهجته نصف المازحة. فهمس غورباتشوف:

جميل! انظري إلى هناك، إلى الأمام. هناك إلى الدبابات.... ألا ترين شيئاً؟ اقتربي. لتري أوضح....

واقتربت أكثر منْ دون أن تجيب. ومست كتفها النحيلة ذراع غورباتشوف العضلية المستقرة. وانزلق الغمد الصغير الغريب على

حزامها، وضغط على جنبها بألم. وقد أثارها ذلك كما أثارتها حدقة القمر النارية فوق قمم الكاربات المشعة في عينيها. وحولهما كان يسود الغبش الأزرق الذي يضفيه القمر على كل شيء. وكان الحقل أمام الموقع مملوءاً بأجسام الدبابات السوداء المعقوفة المحترقة، والهواء مضمخ برائحة الدرع المحترق مسببة الغثيان. وعلى بعد نحو خمسين متراً أمامهم تمتد أدغال كساها القمر بنور فضي، وعلى بعد أقرب ارتسمت دبابتان ثقيلتان مثل لطختين عريضتين متجمدتين تلقيان ظلهما الكثيف المائل أمامهما. وبين هذين الظلين يمتد على العشب ممر ليلقي فاتح من ضوء القمر. وكان ثمة شيء يضطرب ويتحرّك بحذر مغطياً المرر المضاء. وانبعث من الدبابات نداء وحيد مثل نداء الطائر تردّد في الهواء المتذبذب وتلاشى. ثم انبعث نداء جوابي متقطّع واهن من حقل الألغام على يمين الدبابات ثم تلاشى أيضاً. والآن وضحت الحركة غير الواضحة في الممر المضاء على نحو أكثر. نهض رجلان من الأرض كانا يبدوان شبحين داكنين، وركض ظلاهما على العشب بضعة أمتار على المنحدر منحيين قليلاً. ثم كأنهما ذابا في ظلمة المنخفض.

قالت لينا، وهي تدفع شعرها عن خدها:

– هؤلاء ألمان. وهذان النداءان إشارتان. لقد تعلّمت ذلك من خدمتي في الاستطلاع. ماذا بك يا غورباتشوف ماذا تنتظر؟ أليس عندك خراطيش؟ سألت ذلك في عجالة.

هما يسيران في الممر عبر حقل الألغام. لقد وجداه!..

ومن دون أن يجيب غورباتشوف بشيء وضع أصل أنفه على الرشاشة، وبقي هكذا دقائق عدة ثم نظر بطرف عينه إلى وجه لينا

الرقيق فجأة وكأنه أفاق من غيبوبته. وشعرت هي بنظرته فقال في تعب:

– ظننت أنني أتخيّل في دماغي أشياء، أولئك الأفاعي إما أنّهم يقومون بالاستطلاع أو يرفعون الألغام في الحقل إنهم يستعدون؟ ثم بصق بغضب فوق السترة الأمامية وعاد يقول: إما من الكشافين أو المهندسين؟

فأجابت لينا محاولة أن تتحدث بهدوء:

يمكن أن يكون هذا وذاك. أطلق النار ولا تنتظر. وإن اجتازوا عبر الممر يكون الوقت قد فات.....

أخ..... يا لك من فتاة ذكية!..... – قال غورباتشوف ذلك في نبرة إعجاب واقترب من الرشاشة.– لولا هذه الهرجلة، لاحتويتك، وقبلتك، ولاطفتك حتى الموت! ولو أموت على مقربة منك فأي شيء مفزع في ذلك: من الذي سيقبلك إذن؟.... فتياننا أم أناس غرباء؟

خفف من تأثرك. لن يقبلني أحد.

ولمن أنت يا لينوتشكا؟.... لأليشين؟ أو للكابتن نوفيكوف؟ هناك شيء لا أفهمه....

قال ذلك بلهجة جادة، وحرك كوعيه ليكون في وضع أكثر راحة وضغط كتفه على أخمص الرشاشة، وانتظر دقائق عدة، مقلصاً عينيه في حدة. واستطاعت لينا أن تدرك تحرك الظلين من دون ضجيج في الممر المضاء بنور القمر. وفجأة مزق الصمت رشق ردده المنخفض صداه مثل موجة هـادرة. وأضاء وميض متكسر من إطـلاق نار الرشاشة وجه غورباتشوف القريب منها كاشفاً عن أسنانه المكزوزة، وتراقصت خصلات شعره السوداء على جبينه. ثم ساد الصمت من

جديد فجأة. و لم يحول غورباتشوف عينيه السوداوين المشعتين بلون ذهبي عن الممر المضاء بنور القمر. وصاح بلينا من دون أن يشعر تماماً بالصمت الذي خيم بعد إطلاق الرصاص:

اذهبي إلى المخبأ! فسيبدأون بالرد على ناري! ثم أضاف بقنوط غير متوقع:- أنا لا أطيق رؤية امرأة إلى جانبي. لا أطيق وجودك! ألعن وأشتم كالوحش! أتسمعينني؟

إلا أنها لم تنهض، و لم تتركه، بل ابتسمت له في هدوء وفهم ناظرة إليه من خلال شعرها الأشقر الساقط على خدها.

وتناولت رشيشة غورباتشوف، وسحبت المغلاق إلى وضع إطلاق النار وسألت:

مخزن مملوء؟- ثم أزاحت بالأصابع شعرها عن خدها وقالت:- إنني قادرة على إطلاق الرصاص أيضاً.

وأطلقت رشقتين طويلتين من الرصاص على الممر المضبب الضوء بين الدبابتين حيث ضعفت الحركة ثم اختفت. ومرة أخرى أزاحت الشعر عن خدها. و لم تقل شيئاً آخر لغورباتشوف ما عدا ابتسامتها الغريبة المألوفة.

كان غورباتشوف ينظر إليها من الأسفل نظرة جانبية بعينيه اللامعتين المتقلصتين الوقحتين وإلى جيدها الأهيف المستدير، وذقنها، وشفتيها، وجبينها، وشعرها القصير. ثم تحرك نحوها وقال بهمس واثق:

إذا كان الأمر سيؤول إلى نهاية ذات مرة فسأقبلك. لن أغادر هذا العالم من دون ذلك.

قالت في لهجة لطف ورقة:

يا لك من أحمق. إذ ذاك سأقبلك أنا بنفسي....- وصمتا ناظرين إلى الأمام، إلى الممر المضاء بضوء القمر بين الدبابتين.

وكان الألمان صامتين أيضاً. وكان غير مفهوم السبب في عدم ردهم على النار بالمثل، ولو بطلقة واحدة، وكأنهم لم يكونوا هناك. ونادى طير بعيد في مكان ما إلى الأسفل، من حقل الألغام لم يرد على ندائه طير آخر. صمت كل شيء. وكان في هذا الصمت شيء غير اعتيادي ومريب تردد صداه في صدريهما بشعور نابض مضطرب.

وسألت لينا في همس: أتسمع؟

وخلفهما، في ضفة البحيرة الأخرى، انبعثت أصوات خافتة رفيعة لا تكاد تسمع، طافت من هناك في زرقة الليل بصورة متذبذبة مثل غمامة شفافة حارة، وأنّت ورددت هذه الأصوات شيئاً باطنياً بعيد المنال. تناهى إلى آذانهما صوت سكسوفون مهتز وغير طبيعي وأوكارديون لؤلؤي الرنين، وصوت امرأة تغني بلغة أجنبية، كل ذلك يغري في تعب ومن دون حياء على الاعتقاد بأن العالم جميل ومحبوب، وأن في الطرف الآخر من الدنيا أضواء كهربائية ولمعان مرايا وثريات، ومطاعم فاخرة، وخمرة جيدة، وعبق عطور نسائية لا يزال غير منسي، وأفرشة نظيفة، ولذائذ محرمة. "اصبروا، أيها الجنود، وخوضوا خلال القذارة، والملابس التحتانية الوسخة والدم. وستجدون كل ذلك".

إنهم يهدهدون أنفسهم.

وأنفسنا أيضاً، على ما يبدو... يحاولون اللعب بسيكولوجيتنا!...- أجاب غورباتشوف حاكّاً أصل أنفه بأخمص الرشاشة.- إن

غرامفونهم يدور كما كان في الليلة الماضية.

موسيقى الجاز، أخ، يا لينوتشكا، لقد رأيت الشيء الكثير من ذلك في زماني!- وتحسر غورباتشوف.- لقد أحببت المطاعم والموسيقى والفتيات وتعشقت الحياة إلى حد الجنون، وأحبتني الحياة أيضاً.

وكان عندنا نحن صيادي السمك - فلوس مبذولة. كانت الفلوس ترن في الجيب دائماً. وكان ندل المطاعم في استراخان يعرفون غريغوري غورباتشوف يشرب مع فريقه وكانوا ينتقدونني في الاجتماعات من جراء ذلك. أما الآن فيحلو لي أن أذكر.

وكان عندي فريق فتية صقور وفتيات- غاية في الفتنة.

ضاعفنا برنامجنا وحتى زدناه ثلاثاً. وصورنا طبعت في الصحف. ومجدونا ثم زلزلت الأرض زلزالها. طريف؟ أتعرفين، أتفهمين أهزل هذا الأمر؟ أتعرفين الأغنية القائلة:

يا أماه، أعدي،

أعدي فراشي، أعدي

فبعد غد سأنام وحدي

على معطفي العسكري

ظلّت لينا مستلقية بالرشيشة في يديها صامتة مبتسمة ابتسامتها المعهودة، ومسحة التفكير على وجهها. وصمت الغرامفون في خنادق الألمان. وتلاشت غمامة الصوت العائمة فوق البحيرة، ذلك الصدى النائي لحياة غريبة بعيدة المنال، وغير القمر مكانه، وتحرك الممر المضاء الملقى على العشب بين ظلي دبابتين محترقتين، وتقلص حتى استحال شقاً ضيقاً بينهما. ولم يبن أي شيء هناك. وخيم صمت إلا في المدى

البعيد إلى يمينهما حيث يرتفع الوهج خلف المنخفض. وفوق المرتفع كانت تسمع أصوات المعركة الخافتة.

وقالت لينا نصف متسائلة:

إذا كانوا قد عثروا على الممر في حقل ألغام فسيتقدمون في هذا الطريق. أليس هناك ممر آخر؟

- لا.

فلا داعي لتوفير الخراطيش.

وإذ كانت تقول ذلك غيّرت من وضع الرشيشة على السترة الأمامية على نحو أروح، وأطلقت رشقات سريعة على ذلك الشق الهادئ المضاء بين الدبابتين. وتوقفت منتظرة الرد على النار وأزاحت شعرها عن خدها، وقالت لغورباتشوف منفعلة:

إذا كانوا من الكشافين فيعني أنهم قلائل.... قد استطاعوا التسلل الآن.

كان الألمان صامتين. وطافت الغمامة الصوتية مرة أخرى من جهة البحيرة. وفي هذه المرة كانت متنافرة مجنونة ترتفع فيها أصوات الطبول والصناجات....

وفجأة هدرت قرقعة جشاء من رشقات الرشيشات ممزقة الهواء إلى يمين المدفع. وفي الحال ارتفعت هناك صيحة غير واضحة مثل صيحة أرنب وتلاشت. أعقبت رشقات الرشيشات الألمانية الواضحة النباحة من ظاهر صوتها. واندفعت حزمات آثار الرصاصات من المنخفض نحو المرتفع والجهة المتوهجة. وجلست لينا تسوي قراب المسدس. وقالت مخفضة صوتها:

- لقد تسلّلوا... هم...

وقفز غورباتشوف خاطفاً الرشاشة مندفعاً إلى يمين موقع الرمي صائحاً بلينا:

- اجلبي لي مخازن الرشاشة... لقد بدأت المعركة... أسرعي!

وسقط على ركبتيه، قرب السترة الأمامية، مراقباً وميضات النار المتلألئة في المنخفض، وآثار الرصاصات المتشابكة وغرز قاعدة الرشاشة في الأرض بقوة. واستلقى ناشراً ساقيه. وتابع ببصره خطوط آثار الرصاصات حتى منبعها. إنها آتية من قرب موقع النار. وطارت إلى الأدغال في الجهة المعاكسة للمنخفض. إن الألمان هم الذين يطلقون النار.

- أسافل!

وأدرك في الحال بأن فريقاً للنجدة قد اخترق إليهم من مدافع نوفيكوف، وأن الألمان قد اجتازوا حقل الألغام، وتسلّلوا إلى المنخفض، وأن فريقنا قد اصطدم معهم. وحين جلبت لينا مخازن الرشاشة، واستلقت بالقرب منه كان وجهه الذي شوّهه الحنق يرتج، وكان خده مستنداً إلى أخمص الرشاشة مضاء بوهج الرصاص المتدفق من الرشاشة.

- أوه أسافل! اجتازوا، تسلّلوا! وأدار رأسه خطفاً ورأى لينا تضع ماسورة الرشيشة على السترة الأمامية فقال:

- اذهبي إلى الخَندق الملجأ! إلى الجرحى يا لينا! أنا آمرك بذلك! واحني رأسك، فقد يقتلك الرصاص الطائش!

ودفعها بكفّه القوية من كتفها حتى كاد يضربها وانحنى على

الرشاشة. لم تشعر هي بألم من دفعة يده. وتنحّت عنه قليلاً بعناد صامت. وكشفت في العشب لهب إطلاق نار الرشيشة الألمانية وأطلقت الرشقة الطويلة، وأوقفت صدمات أخمص الرشيشة الشائكة الحية. ولكنها لا تزال تشعر بها على كتفها. ولاحظت أن النار قد انقطعت هناك، على العشب. كان مخزن الرشيشة فارغاً ووضعت رشيشتها على السترة الأمامية. وقالت بصوت عالٍ ضاغط على ارتعاش صوتها:

– نحن اثنان هل تسمعني؟ أنا قادرة على إطلاق النار. لقد رأيت بنفسك. ومشت إلى المخبأ.

وتوقفت في خندق المواصلات، وحاولت أن تكون هادئة عمداً. وشعرت على مضض بأن أصابعها خدرة، وأن كتفها تنبض بألم. وأنها تتنفّس بصعوبة، لأن شيئاً مرّاً ولاذعاً قد علق في حلقومها. وطافت في فكرها هذه الجملة: "جرس من العالم الآخر". وأسرعت في دفع الباب، ودخلت المخبأ الدافئ نصف المظلم. ونزلت ثلاث درجات ترابية بتلمّس خلال الظلمة وأحاطتها رائحة ضمادات دافئة.

كان غوسيف يئن ناشجاً. وكان لياغالوف منبطحاً من دون حراك، ووجهه نحو الحائط. وكانت الفوانيس النفطية تخفق بذبالاتها الضئيلة. وقد نهض سابريكين من ضجعته – وجلس على التخت الخشبي – وقد سقط معطفه من قدميه إلى الأرض.

وكان يضع رشيشته على ركبتيه ويحدّق بذبالات الفوانيس المتذبذبة. وقد رفع رأسه حين سمع خطوات لينا، وحول إلى وجهها بصراً ثاقباً ذكياً. وارتجفت شفتاه كأنّه حاول أن يبتسم، وظهرت الثغرة بين أسنانه. وسأل:

– هل بدأت؟

أجابت لينا:

– نعم، وستنتهي إلى نتيجة قريباً. استلق! يا سابريكين، وضع الرشيشة عنك. واهدأ. ماذا عن لياغالوف؟ ألم يطلب شيئاً؟

– غفا! وظل يهذي عن صغاره وعن زوجته. وطلب الصفح عن شيء ثم غفا.

– مسكين! قالت هي في حنو.

وانحنت على لياغالوف وحدّقت به، ثم رفعت قامتها، وارتجف حاجباها. وسارت نحو باب المخبأ، ثم إلى الطاولة حيث كانت ملعقتها الفضية الصغيرة تلمع في ضوء الفوانيس المرتعش مذكرة إياها بالراحة الوادعة. وإذ ذاك تحوّلت إلى الباب ثم إلى الطاولة ثانية. وجلست على الصندوق وحدّقت بعينيها الجافتين الداكنتين.

وسأل سابريكين في قلق:

– ماذا به؟ نائم؟ لماذا صامتة يا لينا؟

وسقطت يداها على ركبتيها. وهزّت رأسها في ممانعة ورثاء، وقد أغمضت عينيها فلاح ظل أزرق تحتهما. ثم وضعت كفيها على الطاولة، ووضعت خدّها عليهما في تعبير عن التوجع.

الفصل الثاني عشر

دفع باب المخبأ، ودخل مترنحاً والرشيشة على صدره ومعطفه غير مزرر، ونزل الدرجات ببطء ماسحاً العرق من وجهه. ومن الأعلى ترامى إلى المخبأ تبادل نيران الرشاشات الموصول. وكانت ثمّة ذبالة مصباح واحدة تضيء تخوت المخبأ الخشبية بضوء شاحب. ووقف في نصف الظلمة، ونادى بصوت أجش متقطّع:

- لينا!...

ولم تعرفه أول مرة، لم تعرف صوته، ولم تر وجهه. ونهضت من وراء الطاولة، وبحركة من رأسها دفعت شعرها، ووقفت برهة مسترخية اليدين ونظرت إليه بريبة وخوف واضح.

أما هو فوقف على بعد خطوات قليلة منها في الظلمة من دون حراك. وأرادت أن تنطق: "نوفيكوف؟" غير أنها لم تقو على ذلك. ولم تقدر أن تفهم لماذا هو هنا بنفسه.

هل جميعهم أحياء، يا لينا؟... هل الجرحى هنا؟- سأل هو بصوت عالٍ. وكان ذلك صوته.... صوت نوفيكوف....

وخطى خطوة وخرج من الظل إلى الضوء نحو الطاولة، نحوها مباشراً وفجأة لاح لها وجهه بوضوح: وجهه غير المعروف النحيل المتقع وآثار العرق المتصبب على خديه. وعلى صدغه لطخات دم داكنة، التصق به شعره المبلل. وكل ذلك الرأس، وعلى رقبته العارية

حزام الرشيشة ومعطفه مفتوح على غير مألوف عادته، وقميصه غير مزرر، وكان أحد أزراره مقطوعاً، وقد انتزعت معه قطعة من القماش أيضاً. وكل ذلك قد غيره على نحو ما وقرّبه إليها بشكل ودي ضمني لا يدرك. وصمتت ناظرة إلى جبينه بعينين توشكان أن ترتعبا.

– لينا... ماذا دهاك؟ أمسكها من كتفيها وهزّها بلطف. ولم يبتسم لها أو يتحدّث برقة كما كانت تتوقّع.

وفجأة تراخى طرفا فمها قليلاً، وارتعش حاجباها من الألم ولاح وجهها المتقع قبيحاً في حيرة، وتماسكت على نفسها، استجابت لحركة يديه، وضغطت جبينها بقوة على رقبته الفائحة برائحة البارود، والملتهبة العرقة بعد ذلك، وشعرت بأن يديه لم تسترخيا عنها، بل انزلقتا على ظهرها، وطوّقت رأسها وشعرت بضغط الرشيشة على صدرها بألم. وقد جعلها هذا الألم تفيق على نفسها، فقالت له هامسة:

– لياغالوف مات. وينبغي الإسراع في إسعاف غوسيف وإرساله إلى المستشفى من دون إبطاء في الحال.

ومرّة أخرى أمسكها من كتفيها، وأبعدها عنه في ارتباك وضيق، وسألها في عبوس:

– ولكن لِمَ هذه الدموع؟

– لا، ليست هذه دموعاً... إنني لا أعرف كيف أبكي، همست لينا في غيظ ومرارة ولمعت عيناها الجافتان.

وفجأة أبعدت الشعر العرق المتلاصق من صدغه واقفة على أطراف أصابعها، وتحوّلت مسرعة نحو الطاولة وأخرجت من الحقيبة شيئاً من القطن.

- هل جرحت يا نوفيكوف؟... دعني أرى...

أجاب نوفيكوف وهو يطوف ببصره في المخبأ بسرعة:

- مجرد خدش جانبي. والآن أصغي إليّ. ينبغي نقل الجرحى إلى موقع الرمي في الحال وريميشكوف وبوروخونكو يصنعان نقالة من المشمع الخيمة. لك خمس دقائق مهلة واتركي تضميدي الآن.- وتحول إلى التخت الخشبي حيث يستلقي سابريكين وقال بلهجة فيها بعض الرقة:- سابريكين! مالي أراك ساكناً يا رقيب؟.... هل تستطيع السير أم نحملك؟.... أتستطيع أن تتحمّل؟ - ثم أضاف بلهجة جادة حزينة: - أخ... أيها المنظم الحزبي! لماذا لم تمسك أوفتشينيكوف؟ لقد كنت تعرف أن أمراً بالتقهقر لم يصدر قط.

وتراخى سابريكين في الحال، واستلقى من دون أن يرفع رأسه. وكان صدره المضمد يعلو ويهبط بثقل. ثم نظر إلى نوفيكوف نظرة واضحة هادئة عجزت عن إخفاء ما يكابده من ألم وأجاب ببطء:

ما حصل لن يعود. وقد سقطت جريحاً إذ ذاك ومع ذلك، فقد أتحمل الذنب في هذا. ذلك شيء لا يصلح الآن. ولا تقلق على حياتي. ولكن ينبغي أن يجلى الفتى غوسيف.

ورفع نوفيكوف قامته وقال:

سأعود الآن.... تهيأوا!

إلى أين؟ ولماذا؟- سألت لينا ذلك وهي تضم قطعة من القطن إلى قنينة الكحول. فأجاب نوفيكوف:

- إلى مدفع لاديا... ينبغي أن أرى.

فقالت لينا في هدوء:

- لقد قتلوا جميعاً هناك، أيها الرفيق الكابتن... لقد كنت هناك صباحاً... وما من أحد هناك كان بحاجة إلى تضميد.. أحقاً أنك لا تصدق؟

فكرّر نوفيكوف قوله:

- ينبغي أن أرى بنفسي... نعم بنفسي...: وخرج. وران صمت. وكان إطلاق نار الرشيشات قد توقّف. وصار الهواء صافياً، أزرق بنفسجياً. وقد ارتقى القمر قبة السماء، فكان يشع هناك بعيداً فوق قمم الكاربات التي تلوح على يسار الوهج.

وعلى موقع الرمي كان بوروخونكو ورميشكوف يتبادلان الشتائم في همس ويتنفسان بصوت مسموع وأحذيتهما تتعلّق بمسندي حاضن المدفع، وهما منشغلان في صنع نقالة من المشمع الخيمة. وكان غورباتشوف مضطجعاً وراء رشاشته يراقب وبصق فوق السترة الأمامية محدثاً صوتاً: وبدا خلي البال هادئاً وحين رأى نوفيكوف سأل في همس غير مكترث:

- هل سنخترق سالكين نفس الطريق؟.. إنهم يزحفون في المنخفض كالبق.. ها أيها الرفيق الكابتن؟

وأخرج نوفيكوف عمرته التي وضعها في جيبه عندما اخترقوا إلى المدافع وارتداها وأجاب:

- بنفس الطريق.. اسمع: أنا ذاهب إلى المدفع الرابع... وعند الضرورة القصوى احمني بنارك...

كان مدفع الرقيب الأول لاديا على بعد نحو أربعين متراً إلى يسار مدفع سابريكين. وتخطى نوفيكوف السترة الأمامية المحطمة بالشظايا إلى النصف، يخامره شعور بالفراغ والعزلة. وأمامه كانت

حفرة عميقة حفرتها القذائف وأضاءها ضوء القمر الشاحب وقد مال المدفع فيها وثقب ترسه المدرّع، وانتزع جهاز الإعادة وتدلّى مغلاقه المفتوح. وانفتحت فتحة مغلاق المدفع المستديرة فكانت مثل فم يستنجد. وما زالت رائحة ت.ن.ت. الألماني كثيفة رغم انقضاء نهار وليلة وكأنّها قد حصرت في وعاء.

ونظر نوفيكوف محاولاً أن يفتّش عمن جاء من أجلهم إلى هنا... عن الذين كانوا أفراده وطقم المدفع. غير أنه لم يعثر على ما يشبه الأفراد. و لم يجد غير شيء مرعب دام شنيع. لم يستطع أن يميّز أحداً منهم، و لم يعرف أحداً من وجهه أو ثيابه. كان حطام صناديق الذخيرة الفارغة ممتزجاً مع مزق المعاطف ولفائف الساق والخراطيش الفارغة المتناثرة والمغروزة في الأرض. وبحث بين حطام الصناديق هذا، وسط هذه الخراطيش، نابشاً إياها بيده باحثاً عما يمكن أن يشرح له كيف قتل أفراده.

ولكنه لم يعثر على قنبلة واحدة كاملة حتى في مشاكيهعا. وفهم أنهم قد استنفدوا جميع ذخيرتهم. ثم مشى نحو سكتي حاضن المدفع. كان في حفيرة القذيفة شيء لامع يعكس ضوء القمر ببرود. وانحنى، والتقطه واتضح أنها قطعة من قميص كساها الندى، التصق بها نيشان "النجمة الحمراء" حاداً مشوهاً زال عنه طلاؤه.

أمعن النظر فيه طويلاً، و لم يستطع أن يتذكر لمن يعود هذا النيشان. وبعد ذلك وضعه في جيب معطفه.

وكان يعرف أن عليه أن يغادر المكان. ولكنه لم يقو على مغالبة نفسه وترك المكان لسبب لا يعرف ما هو. فقد كان هناك شيء يشده إلى هنا – هو أن عليه أن يفهم كل شيء.

ودار حول سترة موقع الرمي الأمامية وتفقّد حفر القنابل أمام المدفع. وفجأة رفع رأسه ومدَّ بصره إلى يسار الموقع، إلى حفرة مراقبة القائد فرأى شيئاً مدوراً ساكناً قائماً على السترة الأمامية. فقفز إلى الحفرة الصغيرة، والآن فقط تبين بوضوح شخصاً يسند صدره إلى السترة الأمامية. كان يرتدي قميصه العسكري فقط محدودباً، ووجهه إلى الأسفل. وكان جبينه مستقراً على قبضتي يديه وكأنه كان يفكر. وعلى كتافته السوداء القذرة التي كانت في وضع عمودي إشارة ماسورتي المدفع المصنوعة من صفيح علبة طعام. وكان هناك خط أبيض واضح هو بطانة الياقة التي خيطت مؤخراً قبل القتال كما يبدو. وإلى جانبه منظار حربي.

كان ذلك الرقيب لاديا.

ومدد نوفيكوف لاديا في الحفرة بعناية – وتقلص الكتفان. وصار صغيراً تماماً، وارتمى رأس لاديا إلى الوراء وتجمد على وجهه تعبير غريب عن العجالة واليأس الصامت. وكان ثمة سائل داكن يغشي أوسمته الستة المعلقة على صدره الضيق من يمين ويسار. ويبدو أنه في اللحظات الأخيرة قد أصدر أمراً ما. غير أنهم لم يسمعوه عند المدفع، ربما لأن أحداً منهم لم يكن إذ ذاك حياً.

ومات في يأس، ووجهه ملقى على قبضتي يديه.

وبعد هذا فهم نوفيكوف كيف مات لاديا وكل طقمه. الظاهر أنهم حين نفذت ذخيرتهم تقدمت ثلاث دبابات من اليسار، وراحت ترميهم بتصويب مباشر وهي واقفة حتى الآن. ولكن من دمرها وأحرقها أهو نفسه، نوفيكوف، أم أليشين، أم سابريكين. لن يستطيع لاديا ولا أحد من طقمه أن يخبرهم بالحقيقة.

عاد نوفيكوف وروحه مثقلة، وكأنما ترك جزءاً من نفسه عند مدفع لاديا. ولم يشعر من قبل بمثل هذه الحدة في الشعور حين تقدموا في أراضي بلادهم، وإذ ذاك لم تكن هناك هذه الجبال الكارباتية الكئيبة التي لا تحمي من شيء، وهذه النفحة غير المنظورة، نفحة انتهاء الحرب.

- من يمشي هناك؟- همس أحدهم من العتمة.

- صديق.

وكان الجميع في موقع الرمي مستعدين للانسحاب منتظرين مجيئه فقط. وتقدم نحو المدفع صامتاً، وسمع أصواتاً مكتومة نباحة ورأى بوروخونكو بين مسندي حاضن المدفع يخرج القنابل من الصندوق مقرفصاً وظهره يرتجف وكأنه قد غص بشيء. وكان ريميشكوف ينظر إليه والدهشة مرتسمة على وجهه وقد ركع على ركبتيه بالقرب منه.

وسأل نوفيكوف: ماذا؟

فأجابته لينا وقد هدأت من صوتها وخفضته:

لا تزعجه... لقد دفن لياغالوف من توه.

كان غوسيف مستلقياً على المشمع - الخيمة ملتهباً بالحمى ناشجاً نشيجاً متقطعاً. وكانت لينا تقوم بشيء ما من دون ضجيج قرب قدميه والضمائد البيضاء كانت مرئية في الظلمة. وارتدى سابريكين معطفه، وجلس على صندوق للذخيرة يتنفس عميقاً وبحشرجة. وكان يسند ظهره ثابتاً إلى غورباتشوف الذي برزت من فوق كتفه العريض رشاشة خفيفة، وعلق رشيشته على رقبته.

وقد ربت على ذراع سابريكين برقة، وقال بصوت خافض:

أنت، أيها المنظم الحزبي، اعتمد عليَّ... أفهمت؟ أمسك بي كما

تمسك بحبل جر قوي. أفهمت؟ أنت، يا باباتي، لست من الوزن الخفيف، لكن أنا أثقل منك. سيكون كل شيء على ما يرام فهمت؟

قال سابريكين وهو يئن:

أخ، يا للكونتيسة البولونية خليتك.... وآهاً على أنني لم أهتم بصديقي أكثر.... ولماذا ترهق نفسك، يا بوروخونكو؟ إن الأموات لا يعودون!...

– استعدوا!– أمر نوفيكوف. ثم سأل:– كم قنبلة بقيت، يا سابريكين؟

– خمس، وترنح إلى الأمام محاولاً أن ينهض– خمس. قنبلتان لاختراق الدروع وثلاث قنابل شديدة الانفجار... لقد حسبتها بنفسي.

فصاح نوفيكوف:

– بوروخونكو وريميشكوف! تعالا إليّ! هل القنابل معدّة؟ ألقما المدفع! وأصغيا بانتباه. بعد أن نطلق النار يخرج المساعد غورباتشوف وسابريكين ولينا.– وهذه المرة الأولى التي يدعوها فيها باسمها أمام الجنود.– هل عندك رشيشة؟ أعطها رشيشتك، يا غورباتشوف وسيخرج خلفهم بوروخونكو وريميشكوف يحملان غوسيف.... وأنا في مؤخرتكم.... ولا تضلوا العبور المنخفض طريقكم عبر المنخفض إلى الأدغال، ثم إلى المرتفع!

..... في الفراغ المرن الذي أعقب إطلاقات المدفع الخمس وقف نوفيكوف في موقع. ثم سحب مغلاق المدفع بسرعة، ودفعه إلى حفرة، وهال التراب عليه، ثم سحب خابور الأمان بحركة سريعة، ودفع قنبلة يدوية في الماسورة التي ما زالت ترسل دخاناً.

وبعد ذلك مسك بالرشيشة المعلقة على صدره، وقفز عبر السترة الأمامية. والظاهر أن انفجار القنبلة الأخيرة دفعه في ظهره. وكان الآخرون قد وصلوا إلى المنحدر، ونزلوا إلى المنخفض مبتعدين عنه وكان لا يكاد يراهم بعد الوهج الذي أحدثته إطلاقات المدفع. ثم لاح له فجأة ظهرا ريميشكوف وبوروخونكو المترنحان المنحنيان. لقد رآهما إزاء سيل الرصاص الضوئي المتواصل الذي راح يطلقه مدفع رشاش ثقيل في طقطقة عبر المنخفض من شاطئ البحيرة. وكان الرصاص يطير على ارتفاع مترين من الأرض لا أعلى ولا أخفض.

صاح نوفيكوف: عبر المنخفض... زحفاً... وأنت يا لينا وغورباتشوف... إلى الأمام!

وألقى نفسه على المنحدر، ورأسه إلى البحيرة، واكتشف النقطة التي يلعلع فيها الرشاش الألماني. وفكّر. "آه... هم ينتظروننا إذاً؟.. حدسوا بغيتنا؟" وأطلق رشق الرصاصات حاسباً الخراطيش بضغط إصبعه.

وعلى بعد نحو ثلاث خطوات منه أطلق أحدهم النار في رشقات قصيرة مقتصدة. فقال لنفسه: "هذا غورباتشوف" ولكنه، حين اختلس نظرة سريعة في ذلك الاتجاه، لاح له وجه لينا القريب منه في وميضات النار البرتقالية، واختفى.

كانت راكعة على ركبتيها، رافعة رشيشتها، مطلقة النار باتجاه شاطئ البحيرة، بالاتجاه الذي أطلق إليه النار هو. وتذكّر كيف أنها قبل بضع دقائق ضغطت جبينها على عنقه، وفي نوبة عاطفية غامضة، وكيف أنه ارتبك على نحو غير متوقع ربما لأنه كان يفوح برائحة البارود والعرق. وإذا تذكّر ذلك شعر بموجة من الرقّة نحوها، ذلك

لأنها الآن تطلق الرصاص إلى جانبه. تلك المرأة التي دخلت إلى قلبه في غير هدوء وتعذيب رغم مقاومته لذلك. وزحف نحوها وأمرها وهو يتحدث بعسر:

– ازحفي إلى الأمام! إلى الأمام! أتسمعينني يا لينا؟

ونظرت إليه. وخفضت الرشيشة طائعة، و لم تجب، وتحرّكت إلى الأمام على المنحدر نحو قاع المنخفض. وانطلقت فوقها دفقة رصاص مضاء فرأى نوفيكوف طاقيتها. ودار في خاطره: "إنهم سيقتلونها... سيقتلونها.. لا، لا... أبداً!".

ومن دون أن يغير موضعه، أطلق برشقات طويلة على المدفع الرشاش الثقيل. وفي اللحظات القصيرة التي كان يكف فيها عن الإطلاق ينظر في الاتجاه الذي اختفت فيه لينا وسار فيه بوروخونكو وريميشكوف مطأطئين يحملان غوسيف في نقالة من مشمع. وصمت المدفع الرشاش الثقيل. غير أن الرشيشات الألمانية فتحت نيرانها من اليسار ماشطة قاع المنخفض.

وفي اللحظة نفسها ردّت عليها من المنحدر المقابل رشاشة غورباتشوف الخفيفة متقطعة. ثم صمتت أيضاً. وسطعت نار الرصاصات المتفجرة الزرقاء على العشب في المكان الذي صمتت فيه رشاشة غورباتشوف. وانهمر الرصاص على المنحدر.

وفكر نوفيكوف: "لماذا صمتت؟ ماذا جرى هناك؟ أين لينا؟" و لم يفهم شيئاً فقفز وجرى هابطاً المنخفض، وجرى في قعر المنخفض. ثم راح يتسلق المنحدر في الجهة المعاكسة. وفي تلك اللحظة ارتفع ضوء كيمياوي أصفر في هسيس فوق الشاطئ مضيئاً بصورة واضحة جميع الأكمات على المنحدر الذي حرثته حفرات القنابل العميقة القديمة. وتفجر صاروخ التنوير فوق رأسه.

وفي الوقت الذي سطع فيه ضوء الصاروخ في السماء ظهر في الأسفل على الأرض ضوء آخر واجتاح المنحدر وابل حاد من الرصاص في مستوى الأرض تقريباً وعاد المدفع الرشاش الثقيل إلى الحياة. وفي أعقاب ذلك تفجّرت أمامه قنابل الهاون الثقيلة التي رنت شظاياها وتساقطت على شكل رقعة الشطرنج.

وفي ضوء الصاروخ الذابل استطاع نوفيكوف أن يتبين لينا وغورباتشوف على المنحدر. كانت لينا راكعة فوق سابريكين رافعة رأسه قليلاً لتضعه على ركبتيها بينما كانت بيدها الأخرى تفك زمام الزمزمية وكانت تقول شيئاً لغورباتشوف الذي كان يضرب بقبضته على مخزن الرشاشة في حنق.

وضاح نوفيكوف ملقياً نفسه إلى جانبهم:

- ماذا حصل لكم؟.. لماذا توقفتم؟

- استعصت يا للشيطان! لقد شتم غورباتشوف متأججاً، وضرب مخزن الرشاشة بكل قوته. حدث اعوجاج وكأنه لحسن الحظ!

فأمر نوفيكوف:

- إلى الأمام! نحو الدغل! هذه آخر وثبة! الق الرشاشة للشيطان! خذوا سابريكين، إلى الأمام! نحو الدغل!

وأبعدت لينا الزمزمية من فم سابريكين، وتحوّلت إلى نوفيكوف وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- لقد مات!.. أظن قلبه قد توقف..

فكرّر نوفيكوف أمره:

- قلت إلى الأمام! لا تتركوا سابريكين! خذوه معكم! ولوّح برشيشته، إلى الدغل!... هيا..

ولعن غورباتشوف، ورمى رشاشته بعيداً عنه، ودفع لينا وانحنى على سابريكين وقال في حسرة:

– سأحمله أنا... ذلك الصديق العجوز. آه، لم يصل والمنظم الحزبي! ومشى من دون أن يتفوّه بشيء... هذه شفتاه الداميتان، فضغمهما.

سأساعدك في حمله، – قالت لينا بصوت سابق لا معارضة فيه.

ونهضت وساعدت غورباتشوف ليرفع جسم سابريكين الثقيل المسترخي. ولاح وجهها في ضوء صاروخ جديد، كما لاح قوامها المشدود بالمعطف، وقراب المسدس الصغير الملألئ بطلائه في جنبها.

وفي اللحظة التالية أعمى عيون الثلاثة نورٌ أرجواني انبعث من انفجار قذيفة الهاون ولفّهم هواء حار. و لم يسمع نوفيكوف الصفير المقترب، و لم يدرك في الحال أن القذائف انفجرت إلى جانبه، وكلما أحس به هو صوت دهش بعيد خافت لم يعرف صاحبه: "أوه!" – وخلال الدخان رأى لينا تجلس على الأرض ببطء، ورأسها متدلٍّ، ويدها تحكّ صدرها في وهن.

وصاح في يأس وضعف:

لينا! ماذا بك؟– وزحف نحوها، وركع على ركبتيه، وأمسكها من كتفيها وفكر بسبب ما – إنه هنا على مقربة منه وقع ما كان يخشى أن يقع، ولا ينبغي أن يقع.... ولكنه وقع.

لينا..... ماذا جرى لك؟ تكلمي!..... هل جرحت؟ أين؟

كان لا يتكلم بل يصرخ بشدة هازاً إياها من كتفيها بلطف وحنون، وقنوط وللمرة الأولى وبشعور من الرعب أمام ما وقع رأى رأسها

يتمايل من جانب إلى آخر بوهن، وشعرها متدلٍّ على وجهها بكآبة.

– أين؟ أين جرحك؟...

– يبدو.... يبدو... في قدمي.

وأصغى إلى همسها المبهم من خلال شفتيها الشاحبتين الملتويتين عن ابتسامة مذنبة، وفي الحال التصق قميصه على ظهره، وحرّك الرشيشة وراء كتفه بدفعة واحدة وفرج حار جعله يتصبب عرقاً.

قال لها بصوت غريب غير مألوف له: "امسكي برقبتي"، – ورفعها على ذراعيه وحملها، صاعداً المنحدر. ولأول مرة في حياته أحسّ بلمسة جسم نسائي مشدود ثقيل.

وقالت في استعطاف وهي تمسك برقبته:

فقط لا ترسلني إلى المستشفى... أستطيع أن أتحمل قليلاً. عندي القدرة على الصبر....

وجمع في الأدغال أفراده؛– بوروخونكو وريميشكوف وغورباتشوف، وأمرهم بأن يبحثوا عن حفرة ويدفنوا فيها سابريكين.

الفصل الثالث عشر

– لا تذهب الآن إلى المدافع، وحين يحتاجون إليك سيدعونك.... وغداً سترسلني إلى الكتيبة الطبية ولكن الكتيبة الطبية في البلدة. والبلدة محاصرة كما يبدو. إنني لم أفكر قط أنني سأقع في الحصار في نهاية الحرب.

– الطريق إلى الشرق قد قطع بالفعل، ولكن ذلك على أية حال غير مهم. سأوصلك إلى هناك كما أوصلت غوسيف. سينقلك غورباتشوف. إنه قادر على ذلك.

– غداً، جرحي غير خطر أبداً. ولن يحدث شيء. أنا أعرف. اجلس، أرجوك. ها؟ أتجلس إلى جانبي؟

وجلس على صندوق للذخيرة بالقرب من تختها الخشبي ففتّش طويلاً في جيوبه عن علبة السكائر في صمت. كان المخبأ يهتز بفعل الانفجارات القريبة، وكان صوت التراب المتساقط في الزوايا يبدو مثل خربشة الفئران.

قال نوفيكوف:

– رائع جداً... انتهت سمائري.... إذن فسندخن الماخوركا.

وفي أسف نفض غبار التبغ من علبته، وحك أنفه على نحو فكه، وتبسم ابتسامة صبي – ونادراً ما كانت تراه هكذا ومد يده في محفظته

وسحب منها بقايا ماخوركا قديمة. وفي الحال زايلت وجهه ابتسامة الصبي الأسيفة تلك، وحل محلها عبوس حائر. لقد أخرج قطع الشيكولاته الثلاث التي أرسلها معه الملازم الثاني أليشين ليسلمها إلى لينا.

وتمتم:

– لقد نسيت تماماً!... هذه مرسلة لك من أليشين. لقد ظلت في ذاكرتي دائماً، ثم نسيت. عن فكري.... مع كل هذه الأحداث، أرجو المعذرة!

فسألت هي في شيء من الدهشة:

– من أليشين؟... لي؟ هذه الشيكولاته؟

– نعم. إنه فتى طيب. وأحسب أنه واقع في غرامك. ذلك ما يبدو تماماً،– قال نوفيكوف في هدوء على قدر مستطاعه.

– واقع في غرامي؟– قالت لينا ذلك وقعدت على تختها الخشبي ودفعت شعرها إلى الوراء وضحكت ضحكة فضية رنانة وأضافت:– إنه يبدو طفلاً. وهو يظن أنني أحب الشيكولاته، وكان أوفتشينيكوف يظن أنني أحب العطور، وأحمر الشفاه، وأشياء أخرى يعرفها الشيطان!

ونظرت إلى نوفيكوف بعينين فاحصتين مدققتين دافئتين بضحكهما. ثم طلبته في لطف:

– أعطني الجريدة والتبغ لألفّ لك سيكارة. لقد فعلت ذلك للجرحى ألف مرة. وأنت تعب، يداك ترتجفان. هل أنت تعب؟

وقطعت من الجريدة قطعة ونثرت الماخوركا في هدوء، ولفت

سيكارة في مهارة، وقدمتها له، فرأى ابتسامتها الآملة الوجلة قريبة منه كثيراً:

- بللها هنا..... وستكون كاملة.

قال نوفيكوف:

- بلليها بنفسك. وستكون أحسن عندك.

وتملكته عاطفة رقيقة لاذعة، عاطفة لم تبرحه منذ أن ضغطت جبينها على رقبته في المخبأ، منذ أن انفجرت القذيفة فرآها تجلس ببطء على العشب وهي تحك صدرها بوهن. والآن أثارت فيه هذه العاطفة الرقيقة اللاذعة غير المألوفة له بضحكها الرقيق، وهذه السيكارة الصغيرة التي أجادت لفّها له، وشعرها الأشقر القصير الذي سقط وأعاقها وحجب خدها.

في السنوات الثلاث التي قضاها في الحرب، وهو الذي ارتقى إلى رتبة ضابط مبكراً، وبدأ يقود الأفراد مبكراً، كان يفكر بالآخرين أكثر مما يفكر في نفسه، ويعيش حياتهم محرماً على نفسه ما يبيحه للآخرين في بعض الأحيان، ولم يتعود ولم يرد أن يمنحه أحد رعايته بصورة واضحة. ورآها تمرر طرف لسانها الضيق في بطء واحتراس على حافة ورقة السيكارة ثم توقفت فجأة وقالت بحزم:

- لا، افعلها بنفسك!

وحين تناول السيكارة، أحس بأصابعها تنزلق على يده مرتجفة. ونظر إلى وجهها في استغراب، ولاحظ في عينيها الساكنتين سواد رقة مرتبكة، وظل رموشها الجامدة. وسأل حائراً في أمره:

- ماذا بك، يا لينا؟

– أألف السيكارة لك... فلست جريحاً. أنا لا أستطيع أن أتخيلك جريحاً.– وأخذت تتكلم بسرعة. ثم راقبته وهو يشعل السيكارة، حاجباً لهب القداحة بين يديه على عادته المعهودة:– لقد لاحظت: أن الشباب يقتلون ويجرحون أكثر من غيرهم. لماذا؟ هل لأن تجربتهم أقل أم لأنهم لا يحذرون كثيراً! وأنت لست حذراً كما لاحظت. هل أنت لا تثمن الحياة بالتأكيد؟

قال نوفيكوف بصراحة:

– أنا لم أعش حياة حقيقية. وأنا لا أرمي نفسي تحت الرصاص عامداً وفي بعض الأحيان يبدو أن لا خيار لي في ذلك.

وأحياناً يبدو لي أنني حاربت طوال حياتي. وفي ثنايا السنين تلوح لي السنة التي قضيتها في معهد المناجم، والكتب ومصباح القراءة. وحياتي الماضية كلها يمكن أن تلخص بسطر واحد. أما في حياتي الحالية فإن مجرد دبابات مدمرة، لا يمكن أن تلخص في صفحة كاملة. ربما ذلك هو السبب على ما يبدو لي؟– ثم صحح نفسه من لهجته الصريحة السابقة وقال:– وربما هناك سبب آخر...

– ما هو هذا "السبب الآخر"؟

– في عام ١٩٤١ دخلت المقاومة الشعبية. حاصرونا قرب مدينة سمولينسك وحشدوا نحو عشرة آلاف شخص منا في الطريق العام. وكان معنا طلبة صبيان، أساتذة كهول. وكان بعض هؤلاء لا يعتقدون بوجود قسوة، وحتى الدقائق الأخيرة كانوا يناقشون في الثقافة الألمانية. في باخ وهايني.... وجاء الألمان بالدبابات، ونصبوا الرشاشات المضادة للطائرات على جانبي الطريق وصفونا بعناية وأطلقوا النار علينا بدقة. وقد قتلوا نصفنا، على الأكثر. أما البقية –

نحو خمسة آلاف – فصفونا في طابور، وساروا بنا إلى الغرب عبر سمولينسك.

– وبعد ذلك؟

– وفي سمولينسك هربت مع ثلاثة طلاب من صفّي واجتزنا الجبهة. ولكنني طوال الحرب حتى الوقت الحاضر ما زلت أذكر هذه الإنسانية.

قالت لينا وقد قلصت عيناها في كراهية:

– أنا أعرفهم، أعرفهم كما تعرفهم أنت! إنهم استباحوا حياتنا. ولكن اعتن بنفسك.... أحقاً أنك لا تستطيع أن تعتني بنفسك بطريقة أو بأخرى؟

قال نوفيكوف وابتسم لها:

– ولكنني معتنٍ بها.... إنني أعرف ذلك.

وخلال تلك الساعات التي قضياها سوية رأته لينا يبتسم أكثر من مرة. وكانت ابتسامته تلك تبدو عرضية طارئة. ولكنها في اللحظة التي ظهرت فيها اختفت من وجه نوفيكوف مسحة التحفظ، وبدا وجهه مثل وجه صبي سليم النية، مرحاً وكأنه ينتظر، وبدا فجأة "نوفيكوف" آخر غير معروف لها وهي لم تعرفه ولن تعرفه. لأن في ابتسامته المقتضبة حياته الماضية ما قبل الحرب وهو طالب، وهي حياة لا تعرفها.

وهز المخبأ انفجاران متعاقبان، ورجّ الهواء الحار فيه وتساقطت قطع الطين الجافة من السقف بضجة عل القش، وسقط بطنين مصنوع من ظرف الخرطوش الموضوع على الطاولة، فقد خرج برنين على

الأرض، وانطفأ الضوء في الحال كأن أحداً قد خنقه. وساد ظلام حالك وظل التراب ينهار بشوشرة. وكان تسمع طقطقة الرشاش الطويلة يلوح من وراء المرتفع.

- هذه دبابات،- قال نوفيكوف ونهض.

فنادت لينا هامسة بصوت مرتعش:

- نوفيكوف! لا تفتح النور في الظرف فقط، قل لي...... أنا أعرف أنك لم تحبني حين جئت للخدمة في البطارية وأعرف ما تظن فيّ. اسمع... أنت تعرف طبعاً المرافق سينكوف من الفوج الخامس والثمانين وهو، على أية حال، كان يعتمد على قوته الجسدية كثيراً. وقد ضربني فضربته. وخرجت من الاستطلاع.

ثم انتشرت شائعات عني.....

وصمت نوفيكوف.

فسألت هي من دون أن تتحرك:

- هل صدقت تلك الشائعات؟

وكان لا يرى في الظلمة وجهها، لا حاجبيها ولا فمها. وكان يسمع فقط همسها الواني منها بالتلمس، وانحنى عليها. وكانت مستلقية، فتلمست يداه في غير ثقة جسمها الدافئ اللدن الذي استجاب له في طواعية. وانزلقت أصابعها الرطبة على رقبته، كتافيته وياقة معطفه، ولفحت أنفاسها خد نوفيكوف. وحضنته بقوة وجنون. وهدته أنفاسها هذه وهمسها بسرعة إلى شفتيها الرقيقتين الرخصتين السخيتين حتى إنهما أخذا يختنقان.

وهزت انفجارات مزدوجة كثيراً من الأخشاب المدورة في قرقعة،

وسالت خشخشة التراب المتناثر من الجدران ومرة أخرى سمعا في الأعلى رشقة الرشاش. ورفع نوفيكوف رأسه:

- ينبغي أن أراقب المخافر، أن أرى، - قال ذلك بصوت خافت غريب، وانتزع نفسه من دفء صدرها وذراعيها، وهو من دنوها منه لم يعرف ماذا يقول لها. ثم نطق في صوت أجش - أتوجعك قدمك؟ يمكنني أن أضمدها.... هل أوقد المصباح؟

- لا.... لا توقده فما من حاجة لذلك.... اذهب وسأنتظرك!- أجابت لينا وأخذت تجهش في البكاء.

بدا خندق المواصلات بعد ظلمة المخبأ الكثيفة مضاء. كان نور الوهج العالي يتصاعد وراء المرتفع فوق البلدة، ويمتد زهاء ثلاثة كيلومترات مهلهلة. ولاح لنوفيكوف الآن أن جميع أحياء البلدة وضواحيها تحترق. وكانت أصوات المعركة المختلطة تهدر هناك وأصبحت أقرب وأوضح واقتربت من الغرب إلى المرتفع مباشرة. وتلوّت آثار القذائف الصاروخية في السماء مثل سمكات خيالية في بحر من النار، وصارت أصداء الانفجارات المتسابقة تسمع على المرتفع أكثر حدة وجهارة، وثقلاً.

وظل نوفيكوف يمعن النظر إلى هناك- إلى صواريخ الإشارات الوهاجة الخاطفة المنطلقة من شاطئ البحيرة وإلى خطوط مرور قنابل الدبابات الواطئة في ضاحية البلدة، والتقطت أذناه صلصلة وهدير محركاتها البعيد.

ولكنه كان ما يزال منتعشاً بتلك اللحظات التي قضاها في الخندق- المخبأ محتضناً بنشوة كتفي لينا الدافئتين الطائعتين شاعراً بقرب جسمها، ولمسة أصابعها الرطبة على عنقه، وشفتيها السخيتين

الرخصتين. وكان لا يصدق أنه منذ دقائق فقط قبّل امرأة في الخندق المخبأ للمرة الأولى كرجل، وقد قبلته هي باندفاع جنوني مستعدة لأن تسلم نفسها له.

وسار في الخندق. وعند موقع الرمي نادى الحارس بصوت خفيض. ولم يجبه أحد. فتخطى السترة الأمامية ورأى الحارس وهو ريميشكوف. وكان ريميشكوف وجميع الطقم جالسين على مشمع للوقاية مفروش بين مسندي حاضن المدفع وكانوا يتهامسون ويدخنون.

وكان غورباتشوف نائماً وحده مستلقياً على صناديق الذخيرة مغطياً بالمشمع الخيمة إلى رأسه متنفساً بصوت مسموع، مدمدماً في نومه في اضطراب، وحذاؤه المصنوع من المشمع يتحرك. وقد برزت مخازن الرشيشة المنسية من عنق حذائه، وبدا وكأنها كانت تضغط على ساقيه.

وحين رأى الجنود نوفيكوف أداروا رؤوسهم في وقت واحد، ونظروا إليه في ترقب وتمعن. وكان ريميشكوف يتحدث عن شيء قبل هذا الوقت. مسح فمه بكفه، ولمع فكاه القويان الفتيان من الوهج بلون وردي.

سأل نوفيكوف:

- لماذا أنتم غير نائمين؟ عندما تبدأ المعركة ستدلون رؤوسكم..... ها؟

وجلس على السترة الأمامية وأطفأ بوروخونكو عقب سيكارته في الأرض، وتنهد متقطعاً في كآبة. ثم ضم ركبتيه النحيلتين، ووضع عليهما ذقنه الأسود غير الحليق في عبوس. وتشوه وجهه الضيق إلى

الأسفل عن بسمة ترقب:

– أخ، أيها الرفيق الكابتن....

– الدبابات لا تتركنا ننام،– غمغم المسدد ستيبانوف.

وتحرك بشعور الذنب على مسند حاضن المدفع. وكان قصير القامة وسميكاً. وسرّح ساقيه المشدودتين باللفائف في موضع أروح. وسعل ومسح وحك خديه الممتلئتين وكأنما ينظف وجهه العريض كالكعكة. ثم نظر إلى يده لسبب في ذهنه، وارتجفت أصابعه:

– اخترقت الدبابات إلى ضاحية البلدة وهي تطلق نيرانها على المرتفع بالتصويب المباشر،– نطق بذلك مرة أخرى بصراحة مذنبة.– والظاهر أن قواتنا في البلدة تعرضت إلى ضغط شديد فانسحبت هناك هاربة.... ألعلنا الآن ما نزال نصمد على جناحنا فقط؟

– ضغط شديد؟– تساءل نوفيكوف.

قال ستيبانوف في خجل:

– ربما سنفارق الحياة في هذه الليلة، أيها الرفيق الكابتن، – ومرة أخرى مسح خديه الطريين المدورين في انزعاج.

قال نوفيكوف في إيمان:

– سنشرب الفودكا في حفلة زواجك بعد الحرب.... هل عندك خطيبة؟ قد تنتظرك....

فابتسم ستيبانوف بجهد، ونظر إلى نوفيكوف نظرة خجلة من تحت حاجبيه:

– أنا متزوج، أيها الرفيق الكابتن. تزوجت بعد المدرسة تماماً.

قال بوروخونكو لاذعاً وهو ما يزال واضعاً ذقنه على ركبتيه:

– يعني لا صبر لكم. لو كنت في مدرستي، أيها الصغير، لنصحت أمك بأن تخلع سروالك وتجلدك على علامة الاستفهام لكي تعرف ما هو جبر الحياة. إن النوم مع الزوجة في فراش واحد ليس أمراً يحتاج إلى دهاء.– ثم تحول إلى نوفيكوف وسأل بصوته الواثق المعتاد:– أصواب ما أقول، أيها الرفيق الكابتن، أم لا؟

وعلى أية حال، فإن كون هذا الشاب الأخرق، السليم الأطوار، الخجول ستيبانوف متزوجاً أهدى لنوفيكوف شعوراً غريباً شبيهاً بالاندهاش منه واستظرافه، إذ إن هذا الفتى قد جرب ما لم يكتب لنوفيكوف نفسه أن يجربه.

قال نوفيكوف:

– نعم ما فعلت هذا، يا ستيبانوف.... وهل عندك أطفال؟

تمتم ستيبانوف: لم يتح لنا الوقت الكافي.....

قال نوفيكوف بنبرة من له عائلة:

– هذا مؤسف. ينبغي أن يكون للجنود أولاد ينتظرونهم بعد الحرب.

وانبرت طلقة قريبة متميزة عن أصوات المعركة الأخرى وصدمت المرتفع مثل الرعد قادمة من جهة البلدة. ووقع الانفجار على بعد زهاء ثلاثين خطوة إلى يمين المدفع. وانهال التراب، وطارت شظايا القذيفة فوق موقع الرمي بصفير متقطع مرتطمة بالأرض ثقيلة أمام السترة الأمامية. وفي الحال أطلق مدفع رشاش خلف المرتفع، وأزت الرصاصات إلى يسار الموقع....

وصمت الجميع ناظرين في اضطراب باتجاه البلدة.

– انفجرت قذيفة ثقيلة! والحقيقة أن الدبابات اخترقت ضاحية البلدة،– قال ريميشكوف ناظراً من طرف عينه إلى المكان الذي سقطت فيه الشظايا، ولكنه لم يخفض رأسه بل تحرك جسمه إلى الأسفل قليلاً.

– هل رأيت، أيها الرفيق الكابتن؟ أين أولئك الفاشيست؟– قال ستيبانوف بسرعة واهتياج.– اقتربوا منا كثيراً وقواتنا هناك لم تصمد، ونحن قائمون هنا....

والآن تطلع الجميع إلى نوفيكوف بنظرات مستفسرة وكأن الجنود كانوا يتوقعون منه تأكيداً بأن الألمان تسللوا إلى ضواحي البلدة بالفعل، وبأن المشاة قليلون في الأرض الفاصلة بين المرتفع وضواحي البلدة كما هو ظاهر أو أنهم معدومون البتة.

وكان نوفيكوف يعرف أن هذه وتلك أشياء محتملة، ولكنه كان يعلم أيضاً بأن ما من كلمات مهدئة مطمئنة كاذبة مشجعة من كلماته قادرة على أن تبدد القلق الشديد الذي استشعروه، وكان يفهم أن من الحماقة أن يحاول تهدئة الجنود. فقال لهم بحدة:

– من الأسهل أن تقنعوا أنفسكم بأن الألمان سيستولون على البلدة، وسيخترقون إلى تشيكوسلوفاكيا. ولكن إذا أفلحوا في ذلك، وتركناهم يمرون فليكن على بالك، يا ستيابانوف، بأن الحرب ستطول. هل تريدون ذلك؟ لا، أنا أيضاً لا أريد ذلك.

يمكن أن ندعهم يمرون، ويذهبون في هدوء وبلا معركة فسيقضون على انتفاضة السلوفاك ويهيئون أنفسهم لحربنا فيما بعد. هل فهمتم؟ إذن فلماذا استشهد نصف بطاريتنا؟ وليس نحن فقط.... لماذا أنت صامت، يا ستيبانوف؟

- لم كل هذا، أيها الرفيق الكابتن؟ لقد كان مجرد كلام....- غمغم ستيبانوف فجأة وأطرق رأسه متلمساً شاداً خديه الممتلئتين على عادته.

قال نوفيكوف وقد لطف من لهجته:

- حسناً.... يحدث ذلك أحياناً. لنفرض أن هذا الحديث لم يجر قط.- وتبسّم قليلاً.- بماذا كنت تتحدث، يا ريميشكوف؟... فإذا كان سراً ذهبت وإذا لم يكن سراً سمعته.

قال بوروخونكو في سخرية وعبوس وهو يستلقي على مشمع للوقاية:

- هو يثرثر عن امرأة عجوز. ولياغالوف كان يتحدث عن الحياة زمن السلام. يتحدث وكأنه يكتب ولكن ريميشكوف يفتح فمه ويهذي ويقرفك.... ويحرك الأكاذيب وهو في الكذب أجود من الحصان في الجري.

صمت ريميشكوف قليلاً ونظر إلى نوفيكوف وبوروخونكو ورمشت أهدابه الشاحبة.

- لا، إنني، لا أكذب. أقول ذلك جدياً، كلام شرف، أيها الرفيق الكابتن، - قال ذلك وكأنه يعتذر لنفسه.- لقد ذهبت عندنا امرأة عجوز إلى الغابة لاقتطاف ثمر العليق. لا، لا تهز يدك، يا بوروخونكو.... صدق ما أقول، كلام شرف.

حسناً، مرت ثم سقطت في حفرة.... عندنا آبار كثيرة جافة في الغابة، وأنواع عديدة من الأفاعي. وقد عثر عليها بعض الناس من الكولخوز المجاور بعد نحو خمسة أيام ميتة ومغطاة بالأفاعي.

وصمت في إبهام، وثبت بصره بحركة القذائف الصاروخية وسط الوهج وكأنما كان ينتظر أن يلحّوا عليه بأن يتحدث بأطناب أكثر. إلا أن الجنود صمتوا.

– أفاع؟– سأل غورباتشوف في صوت جهير أجش غير متوقّع وهو يتململ تحت المشمع الخيمة والظاهر أنه استيقظ في تلك اللحظة.

وهزّ ريميشكوف رأسه باتجاه الصناديق وقال بصوت خفيض متأكد:

– نعم، حيات وصلال من كل نوع....

– لم تفلت واحدة منها!– تمتم غورباتشوف وكلماته مخنوقة من المشمع الخيمة الموضوعة على رأسه. ثم نظّف حنجرته بصخب، وتثاءب في تلذذ.

– ماذا تعني بذلك؟ من؟ – سأل ريميشكوف مستوضحاً.

قال غورباتشوف متقلباً على الصناديق:

– لقد خنقتها جميعاً... لا يمكن أن تخيفني بذلك.

– هناك كمية هائلة منها... أوه، أنت تتبجّح!

– آه! هراء! قد أخنقها جميعاً، بماذا أتبجح؟ قلت لم تبق واحدة منها. ألا تفعل كذلك؟

أجاب ريميشكوف متأذياً:

– أنا لم أفكر في نفسي.

– ومن علّمك هذا؟ في أية مدارس؟

لم يرفع غورباتشوف المشمّع الخيمة من رأسه، ولم ينهض، بل

تنحنح في النوم وأرخى حذاءه قليلاً بضغط قدميه وحين لم يتلق جواباً بقي ساكناً على جنبه، وهدأت أنفاسه. والإنسان المعافى القوي وحده يمكن أن يغرق في مثل هذا النوم العميق.

- قصة غريبة،- قال نوفيكوف من دون أن يبتسم وتذكر كيف اخترق مع ريميشكوف إلى مدافع أوفتشينيكوف، ولم يرد أن يجرح شعوره فاستطرد يقول: - غريبة جداً، وطريفة على نحو كافٍ.- ونهض وأضاف:- غريبة جداً، وطريفة على نحو كافٍ.

إذا تم الاتصال أخبرني. أنا ذاهب إلى المدفع الثاني.

وأطلقت دبابة نيرانها على يمين المرتفع.

والآن فقط حين خلا إلى نفسه في طريقه إلى مدفع أليشين استطاع أن يزن خطورة الموقف الحالي بدقة. وكان واضحاً أن المعركة في البلدة لليوم الثاني قد وصلت إلى حدّ يجعل أي تفوق في قوة الألمان حاسماً بالنسبة إلى مصير البلدة: أي استلامها.

وقد كان التفوق لهم. لقد تكونت قواتهم من المجموعة التي فلتت من حصار ريفني، وقد تقهقرت بعد القتال الصباحي إلى الغابة محافظة على دباباتها، وكفّت عن هجماتها أمام المرتفع. وكل ما رآه نوفيكوف في المنخفض حين تسللوا إلى مدافع أوفتشينيكوف أقنعه بأن الألمان يرفعون الألغام في حقل الألغام، فاتحين بذلك ممرات لهم إلى البحيرة، وإلى المعبر والمرتفع. ولكن إبطاءهم كان غامضاً محيراً له. وكان يودّ لو يحدس ماذا سيحدث في هذه الليلة، بعد دقيقة، بعد ساعة أو عند الصباح. ولكنه كان غير قادر على ذلك، كما لم يكن يعتقد بأن البلدة ستترك، وأن الألمان سيعبرون الحدود التشيكوسلوفاكية. فإن ذلك أفظع من فقدان كل ما يربطه بأفراده الذين وصل معهم إلى الكاربات.

كان المدفع الثاني على الحافة اليمنى للمرتفع.

- قف! من هناك.

- الكابتن نوفيكوف.

ظهر قرب ترس المدفع الواطئ شبح إنسان يحمل رشيشة على صدره، ويرتدي مشمعاً من مشمعات الخيام. ولمع ضوء القمر على كتفي الحارس بشرائط فضية. وتقدم الشبح للقاء نوفيكوف، فسأله نوفيكوف في دهشة:

- من هذا؟ أليشين؟ أي معنى في هذا؟ أن تكون حارساً؟

أجاب أليشين في همس:

- أنا، أيها الرفيق الكابتن..... لقد طردتهم جميعاً إلى الخندق المخبأ ليناموا قليلاً، وهم موجودون في موقع الرمي دائماً. وهذا يثير عندي الحنق. فليهدأوا قليلاً.

فابتسم نوفيكوف قسراً.

- اليوم، يا فيتيا، الجنود يقررون بأنفسهم هل ينامون أم لا. وإذا قام الضابط بدور الحارس فلن يشعروا بالسكينة.

فهمت، يا فيتيا؟ أرسل أحد جنودك، ولا تثر أعصابهم.

- سمعاً!- أجاب أليشين طائعاً دافعاً حافة عمرته من جبينه، زائحاً المشمع الخيمة عن كتفيه وكأنما يشعر بالحرارة، وقال في حيوية:- لماذا هم صامتون؟ لقد ضجرنا من الانتظار.

أرجو أن يكون في وقت قريب، أيها الرفيق الكابتن.

وأمامهما ارتفع صاروخ فوق خنادق المشاة، وتعلق في الهواء

الأزرق الساكن، وانزلق على حقل الألغام منطفئاً. وجلس نوفيكوف وأليشين على مسندي حاضن المدفع. وظلت رشاشات الألمان ورشاشاتنا صامتة. ورأى نوفيكوف في الغبش الوردي الذي يشكله الوهج أن أليشين يحدق به بعينين واسعتين منفعلتين لا تطرفان.

ولم يكن نمش الربيع الحاد ظاهراً على وجهه. ولم تكن تفوح منه رائحة دخان أو معطف عرق، بل رائحة طيبة: إما أن تكون رائحة شيكولاته، أو بسكويت أو عرق صبي حلو.

كانت الرائحة رقيقة بيتية دافئة لا تناسب قط ما كان يفكر به نوفيكوف، في طريقه إلى هنا، إلا أنها ذكرته بلينا حتى أحس، وكأنها قريبة منه، بدفء أصابعها المرتعشة منذ وقت قريب.

قال أليشين في تأثر ظاهر:

– يقذفون بالصواريخ لا غير، لقد مللت الانتظار! كلام شرف لو تبدأ المعركة لسجلت على حسابي خمس دبابات أخرى؟ ألا تصدقني؟

– أصدق، أصدق....

وشعر نوفيبكوف بموجة من الرقة والإشفاق نحو أليشين. إن أليشين لم يفقد بعد بساطة الشباب مندفعاً إلى ما لم يدركه أو لم يحاول إدراكه أنانية، ولكن نوفيكوف يفهمه جيداً. ونوفيكوف نفسه قد لا يكون قادراً على أن يتبين بداية ونهاية ما حدث، وما يمكن أن يحدث له ولأفراده ولبطاريته، وللينا.

قال نوفيكوف: سلمت شيكولاتتك، يا فيتيا. وقد شكرتك، وقالت إنها تحب الشيكولاته كثيراً.

– حقاً؟ تشكرني لينا؟– سأل أليشين في قلق لم يحسن إخفاءه، حك جبينه، وضحك في فرح. – كيف حال لينوتشكا، أيها الرفيق الكابتن؟ أحسن حالاً؟ رفضت الذهاب إلى الكتيبة الطبية؟ يا لها من فتاة!

– نعم، ولكنني سأرسلها إلى الكتيبة الطبية غداً أو هذه الليلة. بحسب الموقف.

وساد صمت قصير. ومرة أخرى ارتفع صاروخ فوق حقل الألغام ناشراً ضوءاً شاحباً. وانطفأ ببطء. وانزلق الظل على خد أليشين، وشفتيه المشدودتين.

– لا ترسلها، أيها الرفيق الكابتن. إذا كان جرحها غير بليغ لا ترسلها. إنها طبيبة تقريباً، وقد درست في معهد الطب. وهي تفهم وتعرف التضميد... وكل شيء....– قال أليشين ذلك مقطعاً الكلام ومال نحو نوفيكوف مستعطفاً.– إذا ذهبت فلن تعود إلينا. سترسل إلى وحدة أخرى. أنت تعرف ذلك بنفسك. سامحني، أيها الرفيق الكابتن، أتظن أنني أرسلت لها الشيكولاته باسمي؟ إنها في بعض الأحيان كانت تتكلم معي بصراحة لا غير، مثلما يتكلمون مع صديق... أم ماذا؟... لقد أرسلت الشيكولاتة من أجلك أنت. لقد حدثتني عنك، ربما ستكرهك أو تغادر البطارية.... كلام شرف! وأن تكرهك سخف وهراء بالطبع. قالت ذلك من غيظها لأنك لم تتحدث معها.

– انصب حارساً، واذهب إلى الخندق الملجأ– قال نوفيكوف في حدة غير متوقعة، ونهض من جلسته وعدّل غمد مسدسه بحركة مدبرة.– غيّر الحراس كل ساعتين.

حاضر... كل شيء واضح!- أجاب أليشين بصوت متهادن ونهض مسرعاً أيضاً، وعدّل مسدسه بنفس الحركة كما فعل نوفيكوف. ولاحظ نوفيكوف ذلك، كما كان يلاحظ في صوت أليشين في بعض الأحيان الماضية نبرة الأمر التي يستعملها هو.

وداهمه شعور مفاجئ بعدم الرضى حين فكر بأن فيتيا يحبه حب صبي وبأن هذا التقليد متأتٍّ من عبادة البطل التي يكنها له أليشين وبأن هذا التقليد مقتصر على الأشياء الخارجية، تلك الأشياء التي تلتقطها عين الآخرين وخيالهم كما التقطت عينه الآخرين في الماضي. غير أن هذه الأشياء قد تكونت في نفسه عبر السنين ومن دون إرادته.

إنه أصبح يقود الناس في وقت مبكر، ويحمل السلاح في وقت مبكر، وإذ ذاك كان فيتيا أليشين لا يعرف شيئاً من هذا.

وفكر نوفيكوف في رقة ضئيلة: "إنه يقلدني كما يقلد رجلاً كبيراً في السن والتجربة، ويرى فيَّ ضابطاً نموذجياً. ولكنه لا يعرف أننا في سن واحدة تقريباً، وأننا - نحن الاثنين - نفكر في بعض الأحيان بشيء واحد، وليست عندي أية تجارب ما خلا تجارب الحرب، وأنني أرغب في التهام الشيكولاتة أيضاً، وفي أن أقف حارساً، أو في أن أتباهى صراحة بالدبابات التي أصيبها. ولكنني لا أستطيع، وليس لي حق في ذلك. والظاهر أن شجاعتي تبدو له شجاعة من نوع رفيع.... آه، يا فيتيا.... لو بقينا على قيد الحياة بعد الحرب لأخبرتك يوماً بكل شيء وستدهش بلا ريب قائلاً: "لا يمكن!" ولكن يمكن أن يكون ذلك. إلا أنك بقيت أصغر مني سناً فقط، وإنني مسؤول عن حياة الناس".

- ليلتك هادئة، يا فيتيا،- قال نوفيكوف وشد على يده بقوة على غير عادته. - بالرغم من أن هذه الليلة لن تكون طيبة. وماذا ستكون - سنرى!

– يا للشيطان، أيها الرفيق الكابتن! – أجاب أليشين باسماً ضارباً بأصابعه حافة عمرته المدفوعة عن جبينه.– الدفاع أسوأ كل شيء! تحياتي إلى لينوتشكا!

حين عاد نوفيكوف إلى المدفع الأول أيقظ غورباتشوف وأوعز إليه بالتسلل إلى البلدة، والاتصال بالكتيبة واستطلاع الموقف في أية ظروف كانت.

وما يزال الجنود غير نائمين بل كانوا مستلقين في صمت على مشمع للوقاية بين مسندي حاضن المدفع مصغين إلى إيعاز نوفيكوف.

كانت شرائط الوهج البرتقالية تدب عريضة من البلدة وتضيء المرتفع كله والوجوه، والمدفع، وصناديق القنابل. وفي المؤخرة كانت المعركة تزمجر وتهزّ سترات المواقع الأمامية من حين إلى آخر. وظهرت وسط الوهج صواريخ متعددة الألوان ترسل إشارات غير معروفة. وأمام جبهة البطارية، وراء حقل الألغام، كان الألمان صامتين صمت الموت.

وكان المرتفع قد حصر في فكي كماشة: الوهج من روائها، والصمت المترقب من أمامها. وهناك الألمان، والدبابات، ومن يفكر ويحسب، ويحدد ساعة الضرب، الساعة التي لم يكن في ميسور نوفيكوف أن يحزرها.

قال نوفيكوف بلهجة اعتيادية لكي يخفف التوتر المهيمن على موقع الرمي:

– أنا ذاهب لأستريح،– وخاطب ريميشكوف: إذا جدَّ شيء فأيقظني.

فأسرع ريميشكوف بالجواب:

– حاضر، – وحرك الحاجبين وقام قائلاً:– ولكن أحقاً ستنام هنا؟

كانت ظلمة المخبأ مشبعة برائحة قش، وشعثاء وكأنما أحس بذراتها في عينيه المتقلصتين، واضطربت أمامه واكتنفته من جميع الجهات. ووقف قليلاً قرب المدخل مستمعاً لأنفاسه، ودقات قلبه المزدوجة العلالية. ثم نادى بصوت واطئ:

– هل أنت نائمة، يا لينا؟

– أنا بانتظارك.... تعالي إلى هنا.... ماذا يجري هناك في الأعلى؟

بلغه همسها الرقيق الذي لا يكاد يسمع آتياً من أعماق المخبأ الكثيفة. فخطا للقياها. وكأنما هزت أعطافه نسمة دافئة.

– هل حوصرنا؟ فقط لا تشعل المصباح.

قال نوفيكوف:

– لينا! لا يمكن أن تظلي هنا. ينبغي أن تنقلي إلى مكان هادئ. ولو إلى الفيلا بالقرب من المرتفع. سأحملك بنفسي. ليس هناك معنى في بقائك هنا.

– إنني لأشعر من صوتك أنك عابس. لا تقلق عليَّ إذا كنت قريباً مني فسأشعر بهدوء أكثر.

– ولكنني أشعر بالعكس.

– غريب، ولكنني فاهمة، اسمع، لماذا لا تزال واقفاً؟ كأننا في محطة قطار، هذا ما أعرفه. وماذا في ذاك؟ وليكن... اخلع معطفك، أنت تبدو تعباً وذلك أروح لك، حين خرجت قلت لنفسي: إنه سيعود عابساً أو لن يعود البتة. ولكنك عدت، يعني أنك تحبني قطرة.

وضحكت بهدوء ضحكاً سعيداً دافئاً أحس به الآن نوفيكوف إحساساً جديداً طلقاً ولكنه كان يبدو من قبل فاسداً متعمداً ولا يتناسب مع وضعها وهم محاطون بالقذارة ورائحة البارود والدم والعرق. وهي التي كانت من قبل مزدرية تحدثت معه من دون أن يتوقع حبها له، وابتسمت بلطف، وهو منجذب نحوها بقوة لا تقاوم، ولعل ذلك منذ زمن طويل. ليس ذلك الحب القديم الذي أضاء سنوات صباه. ورائحة ممرات الأشجار الرطبة في منتزه الثقافة، ورمل أصفر تحت نعال صيفية بيضاء وساقان لوحتهما الشمس تلوحان تارة ثم تختفي في الدغل تحت فستان قطني، ودراجة متكئة على سياج، ولقاء غير متوقع قرب كشك لبيع ماء الصودا، وعينان رماديتان صافيتان تبتسمان له من فوق قدح ذي حبب، وثلج يتساقط بهدوء على ضوء مصابيح....

وكل ما بقي له من ذلك الحب السالف الصبوي نصف المنسي – أربع رسائل يضعها في جيب قميصه، وبلا صورة.

وحين خلع معطفه، وأوقف حركة يده لحظة، واستمع إلى خشخشة الرسائل في جيبه شعر بأنه يخون ويسحق شيئاً سالفاً طفولياً، وأن حبه الحالي أهم وأقوى، وأثمن وأكثر نصعاً – وهو يجربه لأول مرة.

– لينا... إنني لم أحس من قبل بهذا الشعور الذي أحسه نحوك، – قال نوفيكوف بصوت خافت، وجلس على التخت الخشبي حيث كانت تضطجع هادئة قريبة منه غير منظورة في الظلمة.– أتصدقينني؟... لم أحس قط!.....

وحضنها. ومن دون أن ترفع رأسها أو تتكلم طوقت بذراعيها رقبته، وجذبته نحوها. ومع خفقات قلبه ناقصة القوة أحس على

قميصه تكور نهديها، ورخاوة همس أنفاسها على حنكه، وأصابعها الرقيقة تعبث في هيام بشعر قذاله، وتمسد في مودة وعشق عنقه منزلقة إلى كتفيه....

– لا تشفق عليّ.... لا تشفق! افعل بي ما تشاء. أحقاً أنك لا تفهم أنني راحلة عنك غداً؟...

– الآن في وسعك أن تنقلني إلى المستشفى. فمهما يحدث بعد ذلك فأنت لي!

كانت مستلقية دافئة مسترخية تطوّقه في تعب، وتقبله قبلات رقيقة ناعمة. وتراءى أمام عيني نوفيكوف الهمس الخافت الملتف كالصوات السوداء، الهمس غير الجسدي والذائب وغير المسموع. وأحس بعذوبة التعب، واستعدادها لكل ما يمكن أن يحدث لهما، في الطريقة التي احتضنته بها، وفي الطريقة التي مسدت فيها بأصابعها جبهته وشعره. ولكنه بعد ما جرّب لأول مرة – هذه السعادة القصيرة في حيازة المرأة التي كانت تبدو خارقة العادة كابوسية لم يرد أن يصدق كلماتها عن ذهابها إلى المستشفى، وكان لا يصدق رحيلها عنه يوم غد، أو ربما هذه الليلة، وقد صعقه عدم الحاجة المحير المخيف وغير المفهوم إلى جرحها، وتقاربهما المتأخر، وهذه المصادفة الطارئة التي قاربت بينهما.

وفي الظلمة حاول أن يرى وجهها المبيض، وأصغى إلى همسها صامتاً. ولم يشعر قط مثل هذا الشعور المرير المحترق بالضياع وبهذه الضربة الخاطفة المفاجئة لظلم حيوي واقع وغير مصحح.

ورفع جسمه قليلاً وقبّل فجأة شفتيها المضطربتين في ضعف، وحاجبيها الناعمين ورموشها الخشنة، وقال لها في حزم وبطيبة مفرطة:

- لن تذهبي إلى أي مستشفى. لن أتركك تبتعدي عني. في الكتيبة الطبية فقط. سأسعى إلى أن تظلّي في الفرقة. أنت زوجتي. والجميع سيعاملونك كزوجتي. لا تتحدثي عن المستشفى مرة أخرى.

فكررت لينا قوله في بطء:

- زوجة... ما أحلى قولك هذا! زوجتي....- وصمتت قليلاً ثم قالت في مرارة غاضبة: - ولكن هنا لا زوجات ولا أزواج.

- لا أريد أن أنتظر. إنني عثرت بصعوبة على الرجال الذين غادروا البطارية ولو كانوا ضباطي، و لم يبق لي أحد من الذين خرجوا معي من ستاليتغراد .

صمتت لينا. وظلت تضغط وجهها على إبطه تدفئه بأنفاسها، وشمت رائحة جسمه المعافى الفتي ورائحة البارود الحامزة المألوفة التي ما زالت عالقة في ثيابه منذ وجوده في مخبأ موقع أوفتشينيكوف، وكان مشبعاً بهذه الرائحة كلياً بعد المعركة الصباحية. وظلت لينا مستلقية طويلاً لا تتحرك. وفهم هو من صمتها أنها لم تكن تريد و لم تكن قادرة على أن تقول له ما يرفضه ولا يعترف به ولا يقبله. وإذ ذاك قال بصوت قطعه الانفعال:

- أنت صامتة، يا لينا؟ ولكنني فاهم كل شيء.

فأجابت هي بجد وشغف:

- كل شيء يمكن أن يتغيّر. أرجو أن تفهمني! كل شيء.... بخير جداً إذا كنت معك، ومثير. هل أنت مصغٍ إليّ؟

ربما تقول إنني أتفوه هراء. ولكن حين يكون الإنسان سعيداً جداً يبدأ بالخوف من كل شيء. أنا أخاف عليك وعليّ. أفهمتني؟

و لم يتمالك نفسه من أن يعانقها.

وقال بهدوء:

– أنت تتفوهين هراءً، يا لينا، بالتأكيد. لن يحدث شيء لي. فلا تفكري بذلك. أنا مؤمن بأنني لن أقتل. كنت مؤمناً بذلك منذ بداية الحرب.

وصمتت ممرّرة يدها على رقبته وصدره.

ثم طلبت فجأة همساً:

– احضنّي بقوة، بقوة شديدة حتى توجعني....

إن قرقعة الانفجار فوق أخشاب المخبأ المدورة وصرخة قصيرة من المدفع، وضجة أقدام تركض في الخندق، كل ذلك حمل نوفيكوف على النهوض. وفي الظلام ارتدى معطفه في عجالته المعهودة. وشدّ على المعطف حزامه بثقل المسدس المألوف، وأصغى إلى دوي الانفجارات وقطع التراب تتساقط فوق رأسه وتضرب كتفيه مثل وابل متعاظم.

وانبعث من باب المخبأ صوت مبحوح – صوت ريميشكوف أو صوت ستيبانوف:

– أيها الرفيق الكابتن!.... الألمان!

ولدى سماعه هذه الكلمة "الألمان" ارتد إلى عالم الواقع وفهم كل شيء.

وتقدم إلى لينا التي كانت جالسة على تختها الخشبي في صمت. و لم يقبلها بل قال:

– حسناً، لقد بدأت المعركة! أنا ذاهب!....

وخرج من المخبأ مزرراً معطفه.

ولأول وهلة لم يكن كل شيء واضحاً ومميزاً في ذهن نوفيكوف بتفصيل ودقة: الوهج الكابي من نور الصباح، ورقعة السماء الشرقية الزرقاء المشعة بالبرودة فوق انحناءات جبال الكاربات الضبابية وبرد الأرض المتغلغل المبكر والكتافتان المنداتان، ووجه ستيبانوف المدور الأصفر الناعس والقمر يذوب في السماء الخضراء وكأنه ثلج شفافة... ولكن أي شيء من هذا لم يقدر على حرف انتباهه عن منظر آخر وقعت عليه عيناه في هذه اللحظة.

كانت كل حاشية الغابة الصنوبرية التي تقهقر إليها الألمان في اليوم السابق ما تزال في الظلمة الكئيبة المختلفة عن الليل الراحل. غير أنها تحركت كثيفة، وكانت دفقات من النار تأتي من تلك الظلمة، وكانت أجسام الدبابات السوداء تجتاز ببطء خندق الغابة منقسمة إلى طابورين– واحد يسير باتجاه البحيرة الرصاصية اللمعان ماراً بمواقع أوفتشينيكوف السابقة، والآخر عبر الألغام باتجاه المرتفع حيث تقع مدافع نوفيكوف. ولم يندهش نوفيكوف من كل ما رآه في الوهلة الأولى لأن الهجوم بدأ متأخراً، بل لأن شيئاً جديداً غير معروف له كان في هجوم الألمان هذا، وفي تقدمهم.

والليل الذي مسّه الفجر مسّاً خفيفاً فقط ملأ الوهدة بظلمته، وغطى على تقدم الدبابات الأولى نحو المرتفع على طريقة خادم عطوف. ولم يستطع نوفيكوف أن يحدد هذا الاتجاه الجديد نحو المرتفع بدقة ومن دون خطأ إلا من الهدير الحديدي، والشرارات المفاجئة المنطلقة من مخرج الغازات ومن ألسنة اللهيب الحمراء، ومن الصلصلة المعدنية، وكان نابضاً فولاذياً هائلاً مضغوطاً بدا الآن ينفك ويضطرب بمرونة

ويرتج في توتر.

وارتفعت نجمتا صاروخين من صواريخ الإشارة ساطعتين في آن واحد من طرفي الغابة المتقابلتين. وخلفها، من ضاحية البلدة المحترقة، من المكان الذي أطلقت منه الدبابات المخترقة من كاسنو في الليل نيرانها على المدافع من مؤخرة المرتفع ارتفع صاروخان عاليان وكأنهما رد على الصاروخين الأولين. وحين رأى نوفيكوف هذين الصاروخين فهم المراد منها: "نحن نتقدّم لنخترق وننضم إلى القوات الصديقة في البلدة".

كانت الدبابات التي كانت لا ترى جيداً تنتشر الآن على جبهة ساحقة النباتات وكأنها تلتهمها بنهم وافتراس، زاحفة بجرأة في منطقة حقل الألغام أمام المرتفع– والآن وضح له أن الألمان استطاعوا في الليل أن يفتحوا إليها ممراً في المنخفض.

وأمر نوفيكوف:

– لماذا أنت واقف، يا ستيبانوف؟ اجر إلى المدفع!– حين رأى ستيبانوف دعكَ خديه الممتلئتين وعصرهما في عصبية.

وكان واقفاً إلى جانبه في خندق المواصلات، ثم جثَمَ في ثقل ناظراً إلى المرتفع اللاهب من الانفجارات وانتفضت شفتاه الغليظتان وتمطتا وتريث وتمتم في صعوبة بكلمات لم يفهمها نوفيكوف:

– اجر!

ماذا حصل له؟ لقد كان فتى هادئ الأعصاب. "هل أصبح فاقد الأعصاب؟"– فكرر نوفيكوف بذلك في انزعاج ودهشة وهو يراه يركض إلى المدفع ممتلئ الوسط، ورأسه الكبير يغوص في كتفيه عند الانفجارات، حتى إن أذنيه كانتا تضغطان على ياقة معطفه.

ونوفيكوف نفسه انحنى مرتين حين تبع ستيبانوف راكضاً إلى المدفع. وصفرت شظايا القنابل فوق السترة الأمامية. وحتى الإذن في وسعها أن تعرف حافاتها الممزقة عندما شقت الهواء ورنت نحيلة ورقيقة. أحس نوفيكوف بالكراهية لصوت الموت المغازل المضاد للطبيعة هذا بصورة جديدة.

وفي الموقع كان الجنود يضطربون قرب المدفع ووجوههم متعبة ورمادية ترابية من أثر السهر، مصلحين القضبان الخشبية تحت سكتي حاضن المدفع.

وكان بوروخونكو قد خلع معطفه وجلس على الأرض يضرب حافات التخندق في نهاية مسندي المدفع بضربات خشنة قوية من الفأس العسكري ويصرخ بريميشكوف مكشراً عن أنياب الغيظ.

وكان ريميشكوف يضع قضيباً خشبياً تحت سكتي حاضن المدفع.

وأدار بوروخونكو وجهه بسرعة إلى نوفيكوف. ورأى نوفيكوف عينيه الحادتين بلهب الفرح وشعور الانتقام. ألقى بوروخونكو إلى نوفيكوف نظرة سريعة وكأنما حانت الساعة التي كان ينتظرها.

وفي الحال تأجج نوفيكوف من هذه النظرة، وخلع معطفه المثقل بحركة واحدة وألقاه على السترة الأمامية وصاح:

- كل في مكانه... ألقموا المدقع!

ولاحظ نوفيكوف على الخدين غير الحليقين لريميشكوف الذي اندفع إلى خزنة ماسورة المدفع، وعلى حاجبيه الأبيضين لطخات شحم الذخيرة وعلى شفتيه نصف المتفرجتين تعبيراً عن العجالة العمياء. تموجت القنبلة الزلقة في يديه فدخلت إلى حجرة سبطانة المدفع المقفولة بالمغلاق في الحال. ومرة أخرى دار هارعاً إلى الصندوق

المفتوح وخطف منه قنبلة أخرى، وشدّها عند بطنه في لطف، وتقدم وكأن الأرض تتلظى تحت قدميه القويتين.

ففكر نوفيكوف مع نفسه بالارتياح: - "لقد انتهى كل شيء مع هذا الفتى. يبدو أن جندياً قد خلق" - ولم يلم نفسه على الغلظة التي أبداها له في الأيام الماضية.

صاح ستيبانوف متوسلاً وهو يميل نحو جهاز التسديد البانورامي بجنبه غير مصدق:

- هل ستقف أنت عند البانوراما أم أنا؟ أنت أم أنا، أيها الرفيق الكابتن؟ أم ربما بوروخونكو؟

وكان وجهه شاحباً مزرقّاً وكان كله مستقلاً وفاقداً للبراعة السابقة في حركاته وكأنه كان منكوداً ومتعباً من شيء وكان في عينيه الفارغتين - الكاشفتين المرتعشتين شيء منفر رافض لنوفيكوف وقد اختفت حدتهما، وحلت محلها عجالة طائشة خالية من التروي. وفهم نوفيكوف ذلك. إنه انسحاق الرعب الذي ولده انتظار لا يطاق دام طوال الليل، ونزوع إلى حفظ النفس يصيب بعض الجنود كالمرض، حين تكون الحرب موشكة على الانتهاء.

وأمسك نوفيكوف كتفي ستيبانوف، وحوله إليه:

- ما الذي دهاك؟ اضبط نفسك! وانفض عنك ما في رأسك! وإذا بقي في رأسك الهراء فستصاب من الطلقة الأولى.... إلى جهاز التسديد!

ودفع المسدد ستيبانوف من كتفه بقوة وحزم إلى ترس المدفع.

وقرفص ستيبانوف إزاء جهاز التسديد ومد يديه مرتجفة بعجالة

إلى إطاري تسديد الاتجاه والارتفاع وكان يبدو أنهما قد يتملصان من بين يديه. ولكنه أمسكهما وأجهد ظهره العريض وشعر نوفيكوف من هذا الظهر بتوتر ستيبانوف المرتعش وبتنقلات جهاز التسديد الطائشة غير المضبوطة.

– أتسمح لي بأن أقف وراء جهاز التسديد، أيها الرفيق الكابتن؟

– بدا صوت بوروخونكو من وراء ظهره، ثم اختفى الصوت ممسوحاً ومبدداً في انفجارات القذائف التي تطلقها الدبابات على المرتفع وراء المدفع.

وظل قوس الدبابات الحي ينتشر ويتسع على كل الجانبين ملتفاً حول المرتفع. وكانت ذراعه اليسرى تمتد إلى البحيرة، ولكن لا إلى حيث أقام الألمان معبراً يوم أمس، ولكن بمحاذاة مواقع أوفتشينيكوف السابقة باتجاه المنخفض الذي اخترقه نوفيكوف في الليلة إلى المدافع لإنقاذ الجرحى، وتقابل فيه مع الألمان.

والآن لا يوقف مدفعا أوفتشينيكوف حركة الدبابات في المنطقة المحايدة. وكان وسط القوس يقترب منبسطاً نحو المرتفع، أما الذراع اليمنى للقوس فقد قطعت خط الطريق العام المستقيم.

وكانت واضحة أشباح الدبابات السوداء الجهمة وهي تزحف عبر الطريق العام متقدمة نحو البلدة من جانبها.

واندلعت صواريخ الإشارات وامضة، وانطفأت ببطء في طرفي القوس المختلفين.

وامتلأت الوهدة بهدير متدحرج ولكن مربعات الدبابات غير الواضحة لم تطلق حتى الآن ناراً مركزة، بل كانت تطلق النار في تفتيش، وكأنها تبحث عن الأهداف في ثقة منتظرة. وذلك أيضاً بدا غير مألوف بالنسبة لنوفيكوف.

وقفز نوفيكوف إلى حفرة التلفون وأمر للهتاف:

- اتصل بأليشين! بسرعة! - وتحرك وجه جندي الإشارة الأبيض من وراء التلفون.

وفكر نوفيكوف: "لو كانت مدافع أوفتشينيكوف في مكانها الآن.... لو.... آه...." وفي هذه اللحظة لا يغفر لأوفتشينيكوف شيئاً وخطف السماعة وتابع تفكيره" "هناك، بالقرب من البحيرة الممر مفتوح لا تغطيه أية وسيلة....".

ضغط السماعة:

- أليشين؟.... هل أنت، أليشين؟

وقبل أن يتلقى جواباً - رنّ في أذنيه قصف المدفعية: إطلاقات وانفجارات وانفجارات وإطلاقات ورفع رأسه مسرعاً:

على يمين المرتفع كان الوهج الممزق يرتفع ويسقط. وتشابكت هناك ألسنة النار الأرجوانية بكثافة غير ممكن استيعابها - فتحت البطاريات المجاورة النار على الدبابات وهدرت إلى جانبها مدافع ثقيلة ذاتية الحركة مدفونة في الأرض. و لم يكن لنوفيكوف اتصال تلفوني مع جيرانه، و لم يكن يعرف مقدار خسائرهم في معركة الصباح واعتراه فرح مفاجئ حين عرف أن المدافع المجاورة ما زالت حية، وتأجج فيه شعور بالحرارة المضطرمة. وابتسم ابتسامة حائرة أفزعت جندي الإشارة وأدهشته. وصرخ في السماعة باسطاً كفه:

- هل ترى، يا أليشين، النار إلى اليمين؟ جيراننا أحياء! لا تطلق النار على الدبابات اليمنى! أطلق النار على الدبابات اليسرى! لا تدعها تقترب من البحيرة! لا تبخل بالقنابل! هذا كل شيء!

ورمى السماعة، والتفت إلى المدافع. وأمر بصوت عالٍ رنان:

– انتباه!.... سددوا على الدبابات اليسرى! على الدبابة القائدة!

وانقطعت صواريخ الإشارات. وضمت الدبابات التي خرجت من الغابة صفوفها، وبدأ الهجوم من كل نقاط التشكيلة المقوسة. وكان نوفيكوف يرى ذلك من دون حاجة إلى نظارة.

واستدارت الذراع اليسرى للقوس فجأة. زادت الدبابات الثلاث المتطرفة سرعتها واندفعت إلى الأمام بهدير محركاتها المهتز متدحرجة بتثاقل على الرابية التي كانت تظهر عليها مواقع أوفتشينيكوف السابقة مثل آكام بنفسجية. زحفت الدبابة الأمامية بجرأة إلى السترة الأمامية بسلاسلها العريضة، وداست موقع الرمي واستدارت هناك بهدير حديدي وسحقت بقايا المدفع، وحين أدارت وتوهج جانبها بوهج أحمر استطاع نوفيكوف أن يصرخ آمراً بأمره الأول:

– على الدبابة اليسرى.... نار!

وحين أطلق المدفع ممزقاً الهواء على المرتفع، اندفعت في نفس اللحظة تقريباً قذيفة من مدفع أليشين، خطف شيء عالٍ وناري بصر نوفيكوف، وارتجت الأرض تحت قدميه، وجرح ألم حاد أذنيه.

وشعر بقوة تدعكه وتضغطه في الخندق، وأطار هواء حار عمرته من رأسه، وألقى شعره على عينيه. ومن دون أن يلتقط عمرته (لم يلاحظ إلا أن جندي الإشارة ذا الوجه الشاحب كوجوه الموتى مد إليها يديه كأنهما جامدتان على قعر الخندق) هز نوفيكوف رأسه الموجع في الحال ونهض. كانت حفرات القنابل على السترة الأمامية ما تزال ترسل الدخان وما زال الطنين في أذنيه. وشعت في عينيه وميضات

نار كثيفة قادمة من قوس الدبابات المقترب – كانت الدبابات تطلق النار باستمرار.

وبدا المرتفع وكأنه لم يعد مرتفعاً. ارتفع فوقه الدخان وكأنه ساواه. وكانت تلوح بقايا المدفع الدارسة ثم سرعان ما تختفي في الضباب. ولم ير نوفيكوف أشباح الجنود العاملين هناك ولا ستيبانوف قرب ترس المدفع– لم ير غير الظلمة المتدحرجة التي كانت تقطعها آثار قذائف الدبابات المضاءة.

– ستيبانوف!– نادى نوفيكوف بصوت عالٍ قلق حتى أوجعه شيء في صدغيه. ولكنه لم يتلقَّ جواباً.

وحين هرول إلى المدفع التقى بعيني ريميشكوف المتسعتين الكدرتين وكان هذا يزحف بين مسندي الحاضن إلى المدفع في عناد حاضناً قنبلة على صدره بيده واحدة ومختنقاً بالدخان وأشار بعينيه إلى ستيبانوف الذي كان راكعاً على ركبتيه قرب ترس المدفع.

وكان بوروخونكو المسود بالدخان يجذبه ويجر معطفه بحزام ويصيح بشيء ما.

وصرخ نوفيكوف:

– ماذا؟؟ لماذا أوقفتم إطلاق النار؟ ستيبانوف!....

ولم يجب أحد. وانحنى ورأى وهو غير مصدق ستيبانوف راكعاً على ركبتيه وقد أسند جبهته في وهن إلى ترس المدفع وكتفه منهارة إلى مؤخرة ماسورة المدفع. وكانت طاقيته ما تزال على رأسه الكبير يمسكها ضغط جبهته على ترس المدفع، وكانت طية رقبته السمراء حتى الآن من أثر الشمس وكأنها رقبة إنسان حي ملقاة على ياقته. وقد ظهر شيء دبق كثيف من تحت طاقيته الممزقة. وتبين لنوفيكوف

من ذلك عدم التوافق الغريب بين وضع ستيبانوف وبين ما حدث. وكانت ثمة حفر قنابل إلى يسار ستيبانوف وإلى الوراء قليلاً- هي آثار القنابل التي تساقطت على السترة الأمامية وأماتته.

- احملوه إلى المشكاة، سندفنه فيما بعد،- قال نوفيكوف بصوت لا يكاد يسمعه وتذكر في أسف الكلمات القاسية التي تحدث بها إلى ستيبانوف في ساعاته الأخيرة. ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي ولا القوة النفسانية ليستذكر متى كان خاطئاً في تصرفه ومتى كان مصيباً. وشعر نوفيكوف بدوار معتم في رأسه أثار فيه تقززاً- الظاهر أنها صدمة في الخندق.

- احملوه إلى المشكاة. سندفنه فيما بعد،- كرر نوفيكوف أمره في بحة ثم رفع صوته إلى درجة الأمر أثابهم إلى أنفسهم:- إلى أماكنكم!

وفي الحال تلاشى من ذهنه كل ما حدث قبل لحظات. وأعاد نوفيكوف ثقته بطالعه السالف السعيد، وركع على ركبتيه إزاء جهاز التسديد، وضغط عينيه على واقية العين المطاطية للبانوراما التي ما زالت تحتفظ بدفء الحياة وطراوة العرق التي خلفها ستيبانوف.

ورأى خلال البانوراما أن قوس هجوم الدبابات تم تسويته وتقسيمه إلى قسمين. وكانت الدبابات الثقيلة تطلق ناراً في سيرها زاحفة من المركز إلى حافتي الحقل اليسرى واليمنى مكونة كتلاً سوداء. وكانت الدبابات الثلاث الأولى قد تخطت موقع أوفتشينيكوف بالفعل، وكانت تنحدر إلى المنخفض وهي تغوص تارة وتبرز أخرى في غير انسياق.

وتمتم نوفيكوف فقط:

- آ..... آ،- لم ينطق نوفيكوف إلا ذلك وضغط أوتوماتيكياً على الزناد اليدوي براحة يده، وسرت في جسمه رعشة جزع وحنق وانفعال، وكأن يديه وعينيه راحت تعمل في معزل عن وعيه. وراح يردد مع نفسه: "لا تستعجل!... لا تستعجل!... فأنت لم تستعجل قط من قبل!". وكأنما اختفى كل شيء من ناظريه: حجبت شبيكة جهاز التسديد فنطيسة الدبابة بجبهتها العريضة المنحدرة التي كانت تخرج من المنخفض مباشراً وتتجسم وهزت ماسورة الدبابة الطويلة، وأرسلت الوميض من شدقها، فغام جهاز التسديد بالنار واختفت الدبابة من نظر الشبيكة: وإلى يساره تطايرت قطع التراب في هدير راعد. وفي نفس اللحظة التقطها نوفيكوف ثانية وهو يتلمظ الدم المالح على شفته المعضوضة، وأطلق النار من دون أن ينظر على أين امتد خط القذيفة. و لم ير غير نقطة اللهب الأزرق على صدر الدبابة العريض.

- أيها الرفيق الكابتن! أسرع! أسرع! طائرات "الميسير شميت" فوقنا! أيها الرفيق الكابتن العزيز!... أسرع!

"لمن هذا الصوت، لريميشكوف؟ لماذا يصيح؟ لا تصح يا ريميشكوف! التزم الهدوء، لا تصدر صوتاً! أنا لا أستعجل لأن ذلك ما ينبغي، ذلك أصح...".

كم مرة أطلق ناراً؟ ستاً؟ عشراً؟ عشرين؟... لا! تسعاً فقط. ولكن القوس استقام باستمرار. وأين آثار القنابل؟ الدبابات تسير.... ومرة أخرى ارتفعت صرخة من وراء ظهره تضطرم بالخطر، أو ربما هي صرخة وحشية أججها فرح مستعر. إنه لم يسمع قط هذا الصوت غير الطبيعي من ريميشكوف:

– ثلاث عشرة دبابة تحترق! لا، أربع عشرة! أليشين أصاب ثلاثاً ونحن ستاً،– ثم انتثرت الصرخة:– إنها تنقض علينا... ها هي... أيها الرفيق الكابتن!

ونشأ في السماء صفير رفيع حاد ومن خلال دوي وقرقعة القنابل المنفجرة سمعه نوفيكوف من فوق رأسه مباشرة: كانت أجسام طائرات "الميسير شميت" الممتدة الضيقة تنقض خلال الدخان مائلة للأرض مثل شفرات حادة. لقد انقضت على المرتفع تماماً، ورشاشاتها تبصق اللهب الشائك، وانفجرت القنابل على الأرض عند خنادق المشاة، وارتفعت أعمدة التراب المتطايرة الملتوية.

ووصلت الاهتزازات إلى المرتفع محركة المدفع. وظهرت المقاتلات من الدخان برنين حاد خارجة من الأنقاض مرتفعة في نصف دائرة إلى الأعلى بسرعة كبيرة متلألئة بلون ذهبي في سماء الصباح. وراحت تتساقط على المرتفع بصورة مائلة مبدية سهام الرشاشات السوداء. ولاحت الصلبان على أجنحتها الضيقة بصورة واضحة واطئة، وخطفت بصره وميضات النار من رشاشاتها. وصفعت وجهه دفقة هواء حديدية وطقطقت على السترة الأمامية نافورات الرشقات ورنّ ظرف فارغ مخترق. وانفجرت القنابل حول المدفع وصفعت ظهره وقفاه دفقة هواء حار وأحس نوفيكوف بصدمات الموجات الحارة هذه في ظهره ولكنه لم يشعر بالخطر الكبير، ولم يلق نفسه على الأرض، بالرغم من أنه غطا براحة يده في حركة غريزية رأس جهاز التسديد.

وتسلل إلى ذهنه صوت ريميشكوف وكأنه في حلم:

– أيها الرفيق، الكابتن، استلق... استلق، أحقاً أنك لا ترى؟

لقد جن جنونهم! وهم يحلقون فوق الرؤوس! سيقتلونك... نحن من دونك نهلك، أيها الرفيق الكابتن...

غير أن هذه الكلمات لم تمسه، وقد مرت به مثل نفحة ريح، مثل ضربات لصدمة من قنبلة غير محكمة. وكان واثقاً بمتانة الأرض تحت قدميه، و لم يؤمن بالضربة المباشرة؟ وراح يرقب كيف كانت أجسام المقاتلات الزنبورية تتساقط في الدخان فوق المرتفع على المدافع.

وميز الرنين المتواصل وكأنه ينفذ إليه من خلال الهدير المحيط بموقع الرمي وطنّ خلف ظهره بصورة مزعجة ومصرة. والظاهر أنه رنين التلفون.

وصاح نوفيكوف:

– تلفون!– و لم يكن يرى شيئاً في الدخان ثم نادى صوت جندي الإشارة المرتعش من الانفعال:

– أيها الرفيق الكابتن! أليشين على التلفون! وهو يبلغك بأن الدبابات إلى اليمين اجتازت حقل الألغام!

– أين؟ أين اجتازت؟

وقام نوفيكوف مستنداً إلى خزنة ماسورة، ونظر من فوق ترس المدفع، ورأى فجأة دبابات ألمانية إلى اليمين وأمام المرتفع، حيث كانت مخافر القتال الأمامية للمشاة. وكان هناك نفر من الجنود يطلقون النار من رشيشاتهم، ويركضون في خطوط منحنية عبر الحقل إلى المرتفع أمام الدبابات الزاحفة، ملقين أنفسهم على الأرض ناهضين، مختفين تارة ثم بادين في الضباب.

وفي تلك اللحظة فهم نوفيكوف أن مخافر القتال الأمامية سحقت.

– يا جندي الإشــارة!.... هل يرى أليشين هذه الدبابات بوضوح؟ هل يرى بوضوح؟ إذن لأبلغه أمري!– أوعز نوفيكوف وهو يعلو بصوته على أزيز المحركات المتزايد، وطقطقة الرشاشات المتقطعة.– أوقف إطلاق النار على الدبابات اليسرى! افتح النار على الدبابات اليمنى! واسند المشاة! النار إلى هناك! في البداية أطلق عدة قذائف شديدة الانفجار!

وإذ كان يلقي أوامره نظر إلى مقدمة المرتفع يخامره شعور بأن فاجعة توشك أن تقع. وكان هناك نفر من الجنود يجرون مبعثرين نحو خنادق التشيكوسلوفاكيين. وقد انفجرت قنابل أليشين وراء أشباح الجنود الراكضين وتعالى حائط من التراب أمام الدبابات. ويبدو أن ذلك قد أعاد أولئك الرجال إلى صوابهم، فتوقفوا، ثم اندفعوا عائدين إلى خنادق مخافر القتال الأمامية.

– أيها الرفيق الكابتن! كيف تفعل ذلك؟ استلق!– مرة أخرى ارتفعت صيحة ريميشكوف المتوسلة من وراء ظهره.– إنها تنقض!

وشعر نوفيكوف بأن كمه يجر بقوة. وكان ريميشكوف المغطى بالتراب يجاهد لالتقاط أنفاسه. وقد جلس بالقرب منه رافعاً وجهه الرمادي، وفي عينيه المتجمدتين من الخطر الداهم انعكست ولمعت نقطة مرآة هابطة من السماء. وصمَّ أذني نوفيكوف زئير معدني، ومرت الرصاصات بمحاذاة موقع الرمي مثيرة الغبار، والسترات الأمامية قد تحركت مثل سطح الماء. حلق ظل واطئ فوقهم– راح ذيل إحدى المقاتلات يرتفع فوق المرتفع منغرزاً في السماء.

– هل أنـت بخير، أيها الرفيق الكابتن؟ ألم تجـرح؟ – قال ريميشكوف في عجالة مكرراً قوله بصوت أجش ماسحاً العرق من

وجهه.– لَمَ أنت هكذا؟ لَمَ أنت هكذا؟ أيها الرفيق الكابتن!....

ووقف نوفيكوف قرب ترس المدفع وكأنه لم يسمع كلام ريميشكوف، ورأى بوضوح كيف تتدحرج الدبابات إلى المنخفض ببطء مارة بالدبابات المحترقة الداخنة ومتجهة إلى شاطئ البحيرة.

وكانت الطائرات تغطي حركة الدبابات. وارتعش حاجبا نوفيكوف بغرابة وتوتر. ولم يكن ريميشكوف قد رأى الدبابات فلم يكن في ميسوره أن يعرف ما شعر به نوفيكوف فاقترب منه، ورفع إليه وجهه الفتي القلق وسأل:

– ألا تشعر بخير، أيها الرفيق الكابتن؟ هل جرحت؟

– إلى المدفع!– أمر نوفيكوف من خلال أسنانه المصكوكة.– ألقم، يا ريميشكوف! أين بوروخونكو؟ ألقم!– وحين كان يتخذ مكانه قرب جهاز التسديد التفت وسأل:– هل بوروخونكو حي؟

كان بوروخونكو مستلقياً على ظهره بين مسندي حاضن المدفع يتابع ببصره دوران المقاتلات بفضول حانق، ويمضغ قشة بأسنان قوية، وهو يضحك ضحكة غير مسموعة ويغرق في هذا الضحك المرعب.

وأمر نوفيكوف:

– نار!

كان الدخان المتراكم يغطي كل شيء كما كان صباح أمس، ويتدلى فوق الحقل أمام المرتفع. والآن لم يكن في وسع نوفيكوف أن يتابع حركة دبابات الذراع اليسرى على شاطئ البحيرة إلا من وميضات الإطلاقات السريعة؛ ومن صلصلة السلاسل الحديدية، وهدير المحركات في الدخان.

كان أزيز المقاتلات الحاد يهوم فوق المرتفع، والرشاشات تسوط الهواء. ولكن كل ذلك لم يعد له وجود عند نوفيكوف.

لقد شعر بأن حلقومه يحترق جفافاً بفعل الرائحة التي أثارها احتراق طلاء المدفع ولاحظ أن ماسورة مدفعه الحامية قد غلفت بلون أزرق ومتلألئ. ولكنه لم يكن يفكر إلا بأن الدبابات تلف المرتفع وهي تحاول أن تخترق إلى البلدة. فليس هناك أية فكرة أكثر قرباً للمنطق من هذه الفكرة: إنها تخترق نحو البحيرة.

وصدرت صرخة من وراء ظهره:

– إنها تفلت!

وفهم بغموض أن شيئاً حصل في الجو.

كانت كرة الطائرات تحلق عالياً فوق المرتفع لامعة في ضوء الشمس مثل سمكات فضية. وإذ كانت كرة الطائرات تسرع نحو الأفق الغربي فتلوح منخفضة أكثر فأكثر، كانت آثار الرصاص الضوئي تتقاطع في الهواء صادرة من طائرة إلى طائرة، مائلة متجهة إلى الأرض وفضاء السماء الصباحي. ومن اللمعان فقط، ومن خط الدخان المتعرج الخارج من طائرة "الميسير شميت" الضيقة الجسم المبتعدة عن طائرة المطاردة الأخرى بسرعة حدس نوفيكوف أن المعركة الجوية لا يمكن فهمها من الأرض كما هي الحال دائماً.

– ألقم!

ومرة أخرى جسّ من خلال جهاز التسديد كتلة الدبابات المتحركة عند حافة المنخفض، وأطلق طلقتين متتابعتين. وبسرعة وتعب مسح العرق الذي كان يلسع عينيه. وفي تلك اللحظة هدر أزيز المحركات مرة أخرى فوق الأرض، وثقل على الرأس وصم الآذان بهدير مؤثر،

غير أن هذا الأزيز الجديد كان من نوع آخر، أزيز قاذفات القنابل الثقيلة يهدر في السماء بصورة مضبوطة.

وقبل أن يرى نوفيكوف الطائرات وقد تهيأ لصب شتائمه غطت صرخة ريميشكوف على كل شيء:

- إنها طائرات "أليوشين"، أيها الرفيق الكابتن! طائرات الهجوم الصديقة! واحدة، اثنتان.... انظر! ها هي تعتدل! عزيزتنا!

وقف ريميشكوف ناضحاً بالعرق بين مسندي حاضن المدفع، وسط أكوام الأظراف الفارغة محتضناً قنبلة ساهياً وضاحكاً في فرح ضحكة ناشجة رافعاً رأسه، والعرق يتصبب على رقبته القوية. وتطلع بوروخونكو إلى السماء حاسر الرأس متشابك الشعر، مقلصاً عينيه، متلمساً الأرض بيده، باحثاً عن قشة كما بدا، مبتسماً من فم ناشف، من السخام في غل وارتياب.

وطارت جماعة كبيرة من طائرات "أليوشين" على علو منخفض فوق الكاربات قادمة من الشرق، حاجبة الشمس، منتظمة بتشكيلة القتال.

وفي الحال حلقت فوق خنادق المشاة صواريخ حمراء مطلقة إشارات التحذير منحدرة إلى جهة الألمان. ودارت طائرات الهجوم ودخلت في الدائرة وفجأة لاح وكان المعركة الأرضية قد هدأت وجمدت.

وفكر نوفيكوف وهو يرى كيف وخزت أول طائرة مهاجمة الهواء وأخذت تنقضّ على الدبابات الألمانية: "هذه مهلة لنا، ها هي راحة وقتية. ربما لا نجد غيرها في المستقبل! ولينا على بعد عشر خطوات من هنا، لينا.... سيتاح لي الوقت لنقلها إلى مكان هادئ،

إلى الفيلا. كيف حالها هناك، أتنتظرني؟ ليس لي حق في نسيانها.... لا، كنت لا أنساها....".

وصاح على بوروخونكو:

- خذ مكاني. سأعود حالاً.

واتجه إلى المخبأ ماراً بشظايا القنابل، ومشى مترنحاً وكأنما يسير في الضباب الحار. وهو لا يكاد يلاحظ أن موقع الرمي القديم، وخندق المواصلات والحفر الأخرى، اختفت من الوجود تقريباً: كان كل شيء قد حفرته قنابل الدبابات الكثيفة وبدا كالمجدور، وتفتت الأرض وتكورت بعمق وانقلعت السترات الأمامية إلى إنصافها وكأنما تعرضت لضربات مجارف كبيرة ومساح حديدية.

دفع باب المخبأ ودخل.

دخل لاهباً مسوداً عرقاً، ووقف على عتبة الباب المفتوح غير قادر على أن يقول شيئاً- والاختناق يعصر حنجرته.

كانت لينا جالسة على التخت الخشبي، مرتدية وحتى متمنطقة بحزامها وعليه غمد مسدسها الصغير وقد تدلى إلى وسطها. وقدمها المضمدة حديثاً متدلية من التخت، وكأنها توشك أن تنهض، وكانت تنظر إلى قدمها منحنية الرأس... وكان شعرها الأشقر يغطي خدها.

قال لها بصوت مبحوح وهو يخطو إليها:

- لينا... لقد جئت لأنقلك. حان وقت نقلك، يا لينا...

ولم تباغت لينا، ولم تسأل شيئاً، بل رفعت رأسها وعلقت بصرها بوجهه، وأجالت بصرها فيه من الأسفل إلى الأعلى وابتسمت ملاطفة إياه بعينيها الدافئتين العميقتين، واقتربت منه وبرقة واستغفار قبلته

من شفتيه الجاسيتين المرتين مما علق بهما من بارود، وقالت بصوت مسكن:

– حسناً، هذا كل شيء. أنا الآن ذاهبة إلى المستشفى أو إلى الكتيبة الطبية. إلى الأحسن والأسرع. انتظر! أنت عرق. هل كان القتال حاراً؟

وأخرجت من حقيبة الإسعاف قطعة من القطن، ونشفت له جبينه، وحنكه ورقبته كما كانت تفعل مع الجرحى، ومسحت له بعناية أعلى حاجبه الأيمن حيث خدشته رصاصة يوم أمس خدشاً بسيطاً. ووقف هو إلى جانبها شاعراً بلمساتها الناعمة اللطيفة، وبقربها منه، ولم يستطع أن يرد بشيء خائفاً أن تلتصق الكلمات في حنجرته. وكان يعرف أن صوته قد بح وتغير من كثر ما أصدر من أوامر، وصار غريباً على نحو عجيب حتى على نفسه ولم يكن قادراً على أن يشرح بهذا الصوت أي شيء من كل ما شعر به نحوها.

الفصل الرابع عشر

في الفيلا عثر نوفيكوف على أحد السواق وأرسله راكباً ليبحث عن الكتيبة الطبية مهما كلف الأمر. ثم جلسا على مشمع خيمة فرشها على كومة ندية من أوراق الشجر.

وظلا صامتين مصغيين إلى فرقعات قصف الطائرات المتزايدة، ورشقات الرشاشات المتوترة خلف المرتفع، وأزيز طائرات الهجوم وهي تتقلب والشمس تنعكس على أجنحتها وتدخل في الدائرة ثانية وتحوم فوق المنتزه على الارتفاع المنخفض مالئة بالهدير ممراته المطمورة بأوراق ساقطة.

ونظر نوفيكوف إلى المرتفع في تفكير، وإلى المدافع القريبة التي تلوح خلال أشجار الزيزفون الشفافة: هناك بقي الجنود الذين مرّ بهم منذ زمن قليل حاملاً لينا على ذراعيه. وآنذاك شعر بنظراتهم المستغربة المدركة بكل جسمه، وسمع صوت ريميشكوف: "مع السلامة، يا أختنا الممرضة.... لقد احترمناك جميعاً بعمق". فأضاف بوروخونكو: "سنلتقي إذا بقينا أحياء".

وما من أحد منهم حق له أن يدينه أو يدينها، وما أدانهما أحد، حتى بوروخونكو. وكانت تلك طيبة منهم، نفس الطيبة التي أخفاها في نفسه غالباً نحو ريميشكوف وبوروخونكو، ونحو أفراده الذين يحبهم. وغالباً ما امتنع عن الإقرار بأي شيء رقيق عن قصد– لقد كان شاباً، وقد رأى كثيراً من الغلظة في الحرب، ومن العذاب الإنساني،

وذلك المصير الذي كتب لجيله. و لم يسأل نفسه قط هل يحبه جنوده ولماذا؟ وفي بعض الأحيان كان يبدو جافياً نحوهم، وفظاً مع نفسه: كل تلك الأشياء التي تجعل الحياة الإنسانية جميلة في زمن السلم – الطيبة الصافية، والحب، والشمس – وضعها جانباً إلى ما بعد الحرب، إلى المستقبل. والآن عندما كان غير قادر على البحث عن مخرج آخر، أي أن لا يرسلها إلى الكتيبة الطبية، وألا يفقدها وكأنها لقية عرضية بدا له ذلك قساوة لا تبرير لها. وكان يعرف أن جرحها غير بليغ، ولكنه كان يدرك أيضاً أن إبقاءها قرب المدافع أمر لا يجوز حتى ولو لبضع ساعات– فلم تكن نتيجة المعركة المقبلة معروفة.

قال نوفيكوف بحزم وهو واثق بقوله:

– سأجدك مرة أخرى، سأجدك مهما كلف الأمر... سواء أكنت في المستشفى أم في المؤخرة. هل تصدقينني؟ ينبغي لك أن تصدقي بأننا سنفترق لوقت قصير.

– لا.... – قالت لينا وابتسمت ابتسامة حزينة، وتحولت إليه، وانزلق شعرها عن خدها.– لا، يا ديما.... لن تعثر عليّ.

– سأجدك.... وأنا أحبك. فهمت ذلك في وقت متأخر....

ومسدت بأصابعها حاجبيه وجبينه وكأنها تريد أن تحفظ ملامحه في ذاكرتها. وفجأة أطرقت بوجهها، وأغمضت عينيها، وطفق طرفا فمها، وحاجباها، وحنكها البيضوي الرقيق يرتجف قليلاً. وارتعش منخارا أنفها بصورة لا تكاد تُلحظ. ولكنها عادت فرفعت رأسها، وكتمت جهشاتها القصيرة، وصكت على ارتعاش كتفيها. قالت بهدوء:

– ستكون لك نساء كثيرات....

- ولكن عندي أنت! وأي نساء أخريات ما دمت لي؟- قال نوفيكوف ذلك وعانقها بقوة، وقبل فمها المستجيب بوهن مودعاً ومريراً.- ينبغي أن أذهب الآن! أتسمعين؟- وهزها بلطف من كتفيها.- وداعاً! ينبغي أن أذهب الآن. أتسمعين؟ سأجدك.... سأعثر عليك....

ونهض. ونظرت إليه بعينين كأن عليهما غشاوة فلا تريان. وصمتت عاضة على شفتيها. و لم يقدر هو أن ينتزع نفسه في الحال. وكان عنقها المحشور بياقة قميصها، وشعرها، وكتافتاها على كتفيها الضيقتين، وطرف خدها- كان كل شيء مضطرباً وردياً بلون الفجر المنتشر في المنتزه. وكان كل ما يحيط بهيكلها المحدودب اليائس ينسكب عليه هذا الفجر الخريفي البارد المقلق.

وبدا للحظة واحدة وكأن لم تكن هناك حرب في هذه الرقعة من الأرض، بل كان هناك خريف اعتيادي، وهواء وردي بارد لا إطلاقات فيه ولا دوي الدبابات خلف المرتفع.

وفي الممرات الرطبة لأشجار الزيزفون المعمرة استلقت قطع من نور الشمس الحمراء، ولمعت أكوام الأوراق المبللة، وتوهج زجاج الفيلا الذي بقي من دون عطب توهجاً ذهبياً. وأمام الشرفة، فوق سطح البركة الصباحي الوادع الصقيل، كان الضباب يرتفع خفيفاً. وهنا حيث سادت السكينة، والرطوبة الخريفية، ورائحة الأوراق المنداة، والفجر البارد الصافي- كان كل شيء ينطق بالسلام الأبدي، الطبيعي.

- أنا ذاهب، يا لينا، أنا ذاهب،- قال نوفيكوف بصوت مبحوح وكان يعرف أن عليه أن يغادر، ولكنه غير مصدق بأنها ستبقى

وحدها هنا في هذا العالم المنفصل عنه حالاً.

قالت لينا بصوت جعلته أقوى من ذي قبل:

- انتظر لحظة، إن كمك ممزق.... انتظر... بأي شيء هذا، بشظية أم برصاصة؟ ألم ترها؟ دعني أخيط كمك.

فاخلع لدقيقة واحدة. سأخيطه بسرعة.... - وفجأة حملت عينيها المذعورتين، ونظرت إلى المرتفع.- جاء أحد عليك.... سأخيطه لك، يا ديما، حالاً، ودع السائق يحمله لك.... دعني أخيطه لك.... يا ديما سأخيطه.....

هرول رجل على المرتفع قادماً من المدافع ملوحاً بذراعيه وصارخاً، ومنادياً من هناك، ثم ابتلعت صوته الانفجارات الكثيفة على المرتفع. وزحف الدخان في المنحدر مغطياً المدافع.

- إنه يناديني.

وكان لا يتذكر بوضوح كيف خلع قميصه الممزق عند المرفق، وكيف وضعته لينا بين يديها، بل كل ما يتذكره أنه لم يكن قادراً على أن يقول شيئاً، وأن يقبلها مرة أخرى قبلة الوداع- فقد كان ذلك الآن مستحيلاً عليه.

وابتعد عنها عدة خطوات محولاً إليها وجهه، ثم أدار لها ظهره وركض في الممر على الأوراق الهاشة تحت قدميه، متجعداً محاولاً أن يبتلع ريقه الحار- فلم يقدر.

كان الملازم الثاني أليشين هو الذي نادى على نوفيكوف من المدافع. وحين جرى نوفيكوف على المنحدر منقطع الأنفاس رآه ولم يعرفه.

كان أليشين عرقاً للغاية، ووجهه شفاف طباشيري تلمع فيه عيناه

الزرقاوان على نحو غير طبيعي. وكان يرتدي معطفاً وسخاً كان طرفه نصف ممزق. وحين اندفع إليه صاح بصوت متهدج غير عال وغير واطئ أيضاً:

– دمر جهاز التسديد! أيها الرفيق الكابتن! وجرح عندي جنديان! واصطدمت دبابات بالألغام مرة أخرى.... وهي تقوم بالالتفاف من اليمين! وصلت المصفحات حاملات الجنود! كيف أطلق من دون جهاز التسديد؟ أيها الرفيق الكابتن!.... دمر لسوء الحظ..... فما العمل؟.... هرعت لآخذ جهاز التسديد لأوفتشينيكوف..... ولكنه مكسورا!

وتلوى وجهه مثل الصبي، واهتز رأسه وكز على أسنانه وكاد يتشنج من ضعفه. ومسح عينيه بكم معطفه بسرعة وترنح على ساقيه النحيلتين المحصورتين في جزمته الأنيقة بشدة.

– من خلال الماسورة، يا فيتيا! صوب من خلال الماسورة! من دون جهاز التسديد! هيا إلى مدفعك! هيا، يا فيتيا!– صاح نوفيكوف ودفع أليشين من كتفه.– هيا.... يا فيتيا، يا عزيزي.

وأطلقت رشقات الرشيشات على المرتفع وتقاطعت مكونة شبكة.

وطفر السترة الأمامية في قفزة واحدة، وفي الحال رأى أمام عينيه في الدخان شبح بوروخونكو الطويل راكعاً بثبات على ركبتيه بين مسندي حاضن المدفع وهو يمسك قنبلة بين يديهه ورأى ريميشكوف وأسنانه مكشرة تكشيراً مرعباً، مستنداً إلى السترة الأمامية وراء رشاشة خفيفة. وكان يطلق النار ورأسه يدور وظهره يرتعش، وطاقيته تتأرجح منزلقة على رقبته وكان يقول بصوت لا هو بالباكي ولا بالضاحك:

– لا!.... لا!....

وكان كل شيء يحترق أمام المرتفع، ويرسل دخاناً كثيفاً مستمراً تتخلله آثار القنابل. وكان أمامهم بضع دبابات ثقيلة تجمعت على حافة المنخفض. والظاهر أن القصف فاجأها وأضرم النار فيها، وتصادمت من دون تبصر، وتشابكت بسلاسلها واحترقت. وتفكك القوس، ولم يعد له وجود، ولم تبق إلا حرائق متناثرة، وسحابة من الدخان المازوتي. فلا تزال بعض الدبابات على اليمين تتحرك بوثبات محاولة أن تحيط بالمرتفع.

وإلى اليسار كانت المصفحات الفطساء المبرقشة الحاملة للجنود تتدحرج في المنخفض، وكانت أشباح الجنود الألمان تراكض نحو الدغل مرفوعة القامة، من دون أن تتوقف، أو تستلقي على الأرض، مطلقة النار من رشيشاتهم برشقات. لا، إن هؤلاء الألمان الذين جلسوا في مصفحاتهم ودباباتهم يطلقون النار، والذين يتراكضون في الحقل كانوا يريدون أن يعيشوا، يريدون أن يقتلوا من يتصدى لهم في طريقهم إلى البلدة عبر المستحيل.... وذلك ينبغي ألا يحدث. وفكر نوفيكوف لسبب ما بأن هذا المستحيل هو نوفيكوف ورجاله على المرتفع.

– لا! لا! لا!

...... ومن إطلاق نار الدبابات والرشيشات وراء المرتفع، ومن ضربات المدافع السريعة على المرتفع، والانفجارات الكثيفة نحو السماء، من هذا كله أدركت لينا في الحال أن المعركة لم تفتر بعد إغارة طائرات الهجوم، بل اشتدت وأنها قد تأجج أوارها إلى تلك الدرجة التي تختفي فيها السماء والشمس ولا يبقى غير ثبات الأرض.

"ديما.... ديما... ما الذي يجري هناك، يا ديما؟.... ماذا جرى له؟ لن يقتلوه.... والرجال مثله لا يجوز أن يقتلوا.... لا يقتل.

أنا أعرف أنه ماهر في الرماية على نحو لا يضارعه أحد... ما هذا هناك؟..... مرة أخرى؟".

وارتعشت الإبرة بين أصابعها، فألقت عنها القميص وراحت تعض شفتيها، مرسلة بصرها في تحديقة إلى هناك، إلى المرتفع وبحثت وبحثت ببصرها عن المدفع الذي كان يظهر ويختفي في الضباب وراء أعمدة التراب: وبين حين وآخر كان يلوح شيء أبيض ثم يختفي... أم هذا خداع بصر؟

"هذا هو. هو قرب المدفع.... هذا هو... إني أراه.... أيتها المعركة انتهي بسرعة.... نهاية المعركة فقط. لا بد أن تكون هذه نهايتها... بسرعة، بسرعة!".

وهوى من السماء شيء أسود هائل ثقيل في طقطقة وقرقعة، ووقع على المرتفع وارتفع وهج برتقالي يأخذ بالأبصار على شكل مخروط مقلوب. وكأن المرتفع قد ذاب واختفى. وغطى الدخان كله، وستره وارتفع كالسحب وتدحرج على السفوح. ثم تبعثر، وشف بسرعة وتبدد تدفعه نسمة الصباح. ومرت رعشة خاطفة في جسم لينا، وانحصرت حنجرتها، وفي غير وضوح رأت الشيء الأبيض منبطحاً على السترة الأمامية ووجهه إلى الأسفل.

"ما هذا! ما هذا؟"– في الحال برقت في خاطر لينا فكرة.

وفي تلك اللحظة لم تكن قادرة على أن تتبين كل شيء، وأن تشعر، ولم تكن قادرة فقط على أن تستوعب في ذهنها أن هذا قد يكون هو جريحاً أو مقتولاً، بل بالعكس دار في ظنها أنه لم يكن هو أبداً.

وصدرت أصوات جديدة زاعقة عاوية، تعالت وانتشرت من الجهة اليسرى، من جهة البلدة، ولمعت فوق رؤوس أشجار الزيزفون

أذناب حارة حامية مصحوبة بهدير مصمّ، وضربت مثل بروق نارية عريضة وطعنت المرتفع، وتلوث أفعوانات حامية بكل طوله. ومرة أخرى غطى الدخان وجه السماء، وأخفى الشيء الأبيض على السترة الأمامية أيضاً.

"ما هذا؟ صواريخنا؟ "كاتيوشا"؟ ولكن لماذا يطلقونها إلى هنا؟ يظنون أنه قد قتل. لا. لا. لا يمكن أن يقتلوه. فماذا يفعلون؟ يطلقون عليه! الدبابات لم تصل إلى هنا، وهو حي! حي يرزق! وماذا أنا؟ وحيدة؟ لا، إنه لم يقتل..... كيف أنا الآن؟".

وبددت الريح الدخان مرة أخرى. وكان الشيء الأبيض كما كان من قبل منبطحاً على السترة الأمامية لا يتحرك ووجهه إلى الأسفل. وحين حولت بصرها إلى القميص عند قدميها وكان ردنه الممزق لم يصلح بعد، فهمت كل شيء فجأة. فأمسكت القميص بارتعاب. وكانت فيه رائحته وضغطته على وجهها، وكمشته وذرفت عليه دموعاً سخينة. واهتز بدنها كله وصرخت بشيء متوسلة الإنصاف.

حين عرف الميجور غولكو بموت نوفيكوف كان الوقت ظهراً خريفياً في البلدة تشع فيه شمس غير حارة على الشوارع المرصوفة بالحجارة، والمبعثرة فيها آثار سلاسل الدبابات، والمنثور فيها حطام الزجاج، وخلف الأسيجة الحديدية كانت البيوت تحترق بصمت ودخان.

وكانت الحدائق البيتية سوداء فاحمة، وفوقها تطير سحب غير خريفية وتذوب مبددة بضوء الشمس. وكان الميجور غولكو جالساً في نقطة القيادة ينتعل خفيه البيتيين، وبلا قميص عسكري، وكان جنود الإرسال نائمين قرب آلات التلفون – كل هذه الصورة ناطقة بالحياة الاعتيادي. إلا أن الملازم الثاني أليشين كان مفعم الصدر بالعبرة.

كان الملازم الثاني أليشين واقفاً أمام غولكو. وكان حليق الوجه أو ربما اغتسل من توه – نظيف الياقة مرتدياً معطفاً جديداً، وكان النمش الربيعي واضحاً في وجهه الشاحب النحيل، وخديه الغائرين.

وراح يقص على غولكو قصة مقتل نوفيكوف بصوت هادئ غير ملتفت إلى الدمع المنحدر على خديه، ومسح خديه بكمه.

وكان من الغرابة رؤية ياقته النظيفة، ونمشه الطفولي في وجهه المذهول غير الطفولي، وأن يسمع صوته الذي لاح أكبر من سنه الحقيقية بعشر سنين، ورؤية دموعه والحركة الصبوية التي كان يمسحها بها.

– الكابتن نوفيكوف؟ نوفيكوف!.... ذلك الفتي؟ لا أصدق! لا أصدق، لا يمكن ذلك– قال غولكو بصوت أشبه بالصراخ، وضرب الطاولة بقبضته حتى إن الأفلام الموضوعة على الخارطة قفزت من أماكنها.

وحوّل وجهه إلى الحائط طارفاً بعينيه الحمراوين. وخرج من حنجرته صوت سعال مكظوم، ورمح منخارا أنفه الطويل غير الجميل. وابتلع لعابه وحك حنجرته، ودمدم بصوت مبحوح:– اذهب، واستلم البطارية، اذهب... بعد نصف ساعة سنتحرك. دباباتنا في ماريتسي الآن. أتسمع؟ في ماريتسي!

وخرج الملازم الثاني أليشين، وتوجه عبر البلدة إلى الكتيبة الطبية. وكان غورباتشوف ينتظره في منعطف.

كان يهيمن على البلدة صمت مطبق. وكانت عربات صواريخ "الكاتيوشا" قرب البيوت التي سلمت من الدمار وسيارات الإسعاف مموهة تحت ظلال أشجار القيقب في الشوارع المليئة بضوء الشمس،

والدخان منبعث من مطبخ في بيت مجاور، وأصوات الجنود ترتفع حوله- كل ذلك ما زال ينطق بالحياة الاعتيادية.

غير أن الملازم الثاني أليشين لم يشعر بالوحدة والفراغ شعوره بها الآن في هذا العالم الشامل المليء بالهدوء الرهيب.

كان السواق قد حملوا لينا إلى الكتيبة الطبية. وإذ دخل أليشين حوش الدار وسار في الحديقة المكتظة بعربات الإسعاف والنقالات لم ير لينا في أول وهلة. كانت مستلقية على نقالة نحيلة شاحبة كشعاع الخريف تضغط خدها على معطف مطوي تتوسده تحت رأسها. وكان حاجباها المستقيمان يقطبان في معاناة ويخطان بياض جبينها ويضطربان أحياناً؟ فتبدو كأن ظلالاً داكنة تمر عبر وجهها عاكسة الأفكار التي تعذبها. وسمعت صوت أليشين على نحو غامض حاملاً لها شيئاً قريباً مألوفاً لها. وفتحت عينيها، ولكنها لم تجب لا بصوتها، ولا بنظرة منها. واكتفت بأن هزت أصابعها مودعة.

- لينوتشكا.... وداعـاً..... يا لينوتشكا..... لن ننساك أبداً..... وداعاً يا لينوتشكا.....

و لم تنصت إلى أليشين وغورباتشوف وهما يغادران بل استلقت هادئة فاقدة الوعي، وكأنها تغطس في ماء دافئ راغبة في شيء واحد هو ألا يمسها أحد.

وكانت تصلها بخفوت أصوات العالم الخارجي: وقع الخطوات في الحديقة، وحفيف المعاطف، ورجال النقالات كالظلال، يمرون بها ويتخطونها، وهسيس الأعشاب، والأوراق المعدومة الوزن تساقطت من أشجار التفاح على صدرها، وانحشرت في شعرها.

وطلب شخص بجانبها ماء خلال أناته المتباطئة، ونادى شخصاً بهمسه الناشج.

"من يئن هنا؟ أليس بوسعه أن يحتمل الألم؟ أحقاً أنه يعرف الألم الحقيقي؟"– فكرت هي وقد اختلج وجهها، وارتجف حاجباها، فعضت شفتيها، وكبتت نفسها وجاهدت أن تتذكر ما كان قبل موته– صوته وعادته في إصلاح وضع مسدسه، ونظرته، وابتسامته.

ومرة فتحت عينيها، كانت أغصان أشجار التفاح العارية تبدو داخلة في السماء السحابية الواطئة الفاترة، هناك بين الخطوط البنفسجية الملتوية يسود نور خفيف غامض يسبح تحت الشمس الخريفية الباردة ويتلألأ ففكرت: "من أين جاء هذا النور؟ ولَمَ هو هنا؟ لم كل ذلك؟ السماء والهواء ما دام قد راح.... لم كل هذا؟".

– إيه، أيتها الشمس الدافئة! يا لجمالك! أي هدوء يشمل العالم! لا يصدق!– بلغها هذا بصوت خشن لمدمن على التدخين وكأنما دفعها بقوة من عالم الغبش الذهبي إلى الواقع. وفهمت بطرف ذهنها ما تحدث به بجمال هذا الصوت الغريب الذي يبدو وكأنه بلون رمادي. وأدارت رأسها ورأت بشعور يقرب من الكراهية عند واجهة البيت رجلاً أشيب في روب أبيض مبقع ببقع داكنة في الردنين. وكان يسند ظهره إلى إطار الباب ويدخن ببطء وتعب ويتطلع إلى السماء فوق الحديقة.

واستدارت وكأنها تحمي نفسها من شيء ما، وضغطت خدها على شعر المعطف الخشن. ونظرت وهي تبكي إلى النقالة المجاورة لها.

وكانت تسمع الأنات الصادرة منها طوال الوقت. كان عليها فتى تشيكي ذو شعر كتابي في حالة هذيان يحاول أن يزيل الضمادة من صدره. وكانت ثمة قطرات من العرق تنتشر على شفته العليا المغطاة بالزغب الناعم الطفولي.

وهمس التشيكي وكأنه تعجل إلى مكان ما متفوهاً بكلمات غير مفهومة متقطعة فكت معناها بعد جهد.

- ماء..... ما.....

وتلمست زمزميتها رافعة جسمها قليلاً، وقضت وقتاً طويلاً في فك غطائها بأصابعها التي فارقتها الحياة وكأنها لا تعرف ذلك.

وجاهدت أن تكتم عبراتها، ووضعت الزمزمية على شفتي التشيكي، ورأت من خلال الدمع كيف راح يعب من الماء باسترواح، وهي تهمس:

- سيزول الألم، سيزول الألم....

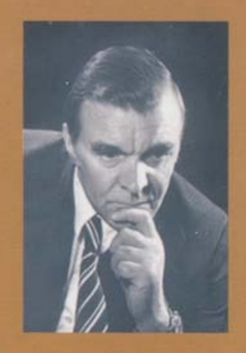
واستلقت على جنب صدرها الأيسر الذي كان فيه الغم. ومرة أخرى ضغطت خدها على العطف الخشن، وراحت تعض بأسنانها ياقته كي لا تصرخ من الألم.

يوري بونداريف: (مواليد ١٩٢٤) الكاتب الروسي السوفييتي، الحائز على جائزة لينين عن الأعمال ذائعة الصيت عن الحرب الوطنية الكبرى (١٩٤١ - ١٩٤٥). وابتداءً من الروايتين القصيرتين "الكتائب تطلب النار" (١٩٥٧) و"الطلقات الأخيرة" (١٩٥٩) اللتين اعتمد فيهما على خبرته الشخصية تحظى موهبته باعتراف من عامة الشعب. لقد ذهب يوري بونداريف إلى الجبهة متطوعاً في عام ١٩٤١ وهو فتى في السابعة عشرة. واليوم لم تعد الحرب الوطنية الكبرى التي خاضها الشعب السوفييتي ضد الفاشية الهتلرية ذكرى وشيجة إلى قلب الكاتب فقط، بل صارت الموضوع الرئيسي لإبداعه.

وقد كتب يوري بونداريف يقول: "لقد حاولت إيجاد الملامح النموذجية لإنسان جيلي، الضابط الذي أخذ في وقت مبكر يحمل السلاح ويقود الناس ويتحمل المسؤولية عن مصائر إنسانية كثيرة".

والرواية القصيرة للكاتب الجبهوي المقاتل "الطلقات الأخيرة" مكرّسة لأحداث السنة الأخيرة من الحرب الوطنية الكبرى، عشية النصر. وأبطالها من عمر المؤلف، طلعوا إلى ميدان المعركة من مقاعد المدرسة، مثلما فعل هو.

فهرس



يوري بونداريف: (مواليد ١٩٢٤) الكاتب الروسي السوفييتي، الحائز على جائزة لينين عن الأعمال ذائعة الصيت عن الحرب الوطنية الكبرى (١٩٤١ - ١٩٤٥).
وابتداءً من الروايتين القصيرتين "الكتائب تطلب النار" (١٩٥٧) و"الطلقات الأخيرة" (١٩٥٩) اللتين اعتمد فيهما على خبرته الشخصية تحظى موهبته باعتراف من عامة الشعب. لقد ذهب يوري بونداريف إلى الجبهة متطوعاً في عام ١٩٤١ وهو فتى في السابعة عشرة. واليوم لم تعد الحرب الوطنية الكبرى التي خاضها الشعب السوفييتي ضد الفاشية الهتلرية ذكرى وشيجة إلى قلب الكاتب فقط، بل صارت الموضوع الرئيسي لإبداعه.
وقد كتب يوري بونداريف يقول: "لقد حاولت إيجاد الملامح النموذجية لإنسان جيلي، الضابط الذي أخذ في وقت مبكر يحمل السلاح ويقود الناس ويتحمل المسؤولية عن مصائر إنسانية كثيرة".
والرواية القصيرة للكاتب الجبهوي المقاتل "الطلقات الأخيرة" مكرّسة لأحداث السنة الأخيرة من الحرب الوطنية الكبرى، عشية النصر. وأبطالها من عمر المؤلف، طلعوا إلى ميدان المعركة من مقاعد المدرسة، مثلما فعل هو.


ISBN 284306253-5
9 782843 062537